
أصل العرب
و
لغتهم
بين الحقائق
والأباطيل
الدكتور
عبد الغفار حامد هلال
منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET
https://twitter.com/SourAlAzbakya
دار الفكر العربى



أصل العرب ولغتهم

بين الحقائق والأباطيل

دكتور

عبد الغفار حامد هلال

أستاذ ورئيس قسم أصول اللغة

جامعة الأزهر

١٤١٧ هـ - ١٩٩٦م

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربى

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر

ت : ٢٧٥٢٩٨٤ - ٢٧٥٢٧٩٤

٤١٠ عبد الغفار حامد هلال.

غ ق ا ص أصل العـرب ولغتـهم بين الحـقـائق والأباطيل/ عـبـد الغفار حامد هلال.ـ القاهرة : دار الفكر العربى، ١٩٩٦.

١٨٤ ص: ٢٤ سم.

ببليوجرافية: ص ١٧٩ ـ ١٨٢.

تدمك: ٢ ـ ٠٨١٢ ـ ١٠ ـ ٩٧٧.

١ ـ فقه اللغة العربية. أ ـ العنوان.

تصميم واخراج فنى/ أيمن رزق هيبة

أميرة للطباعة - ت : ٣٩١٥٨١٧

بسم الله الرحمن الرحيم

■ **تقديم :**

الحمد لله الذى يهدينا من الزيغ والضلالة، والصلاة والسلام على نبى الهداية محمد ﷺ خير نبى لخير أمة أخرجت للناس.

﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهَّاب﴾[1].

وبعد :

فينبغى أن ننبه العالم الإسلامى والعربى إلى ما يحيكه له أعداء الإسلام من مؤامرات يقصد منها الإساءة إلى الإسلام وتشويه حقائقه والقضاء على شخصية لغته العربية العريقة الأصيلة.

فقد ألَّف الدكتور لويس عوض كتابا بعنوان (مقدمة في فقه اللغة العربية) ينطوى على مغالطات دينية ولغوية خطيرة ينبغى أن ننبه إلى شرِّها.

إنه يزعُم أن العربية فرع من اللغات الهندية الأوربية، ومن الحامية كذلك، ويزعم أن أهم تأثير حامى فيها يكمن فى تأثرها بالمصرية القديمة، واتخذ الفونطيقا - كما يدعى - طريقا لعقد الصلات بين العربية واللغات الأخرى.

وفى هذا الفكر المنحل أقحم النصوص القرآنية الواضحة، وحاول أن يثنيها عن القصد المستقيم.

كما يحاول - أيضا - رمى الإسلام بما ليس فيه من العنصرية والعصبية، من خلال محاولته رمى العرب بأنهم عنصريون متعصبون، وأن علماء العربية عربا ومستعربين كانوا - فى رأيه - عنصريين.

---

(١) الآية ٨ من سورة آل عمران.

ونحبُّ أن ننبه إلى أننا نقوم ـ في هذه البحوث التي ننشرها ـ ببيان وجه الحقيقة الدينية واللغوية، ونناقش القضايا العلمية واللغوية بموضوعية البحث المنهجي البعيد عن الزيغ والهوى.

وهنا نعرض لبعض قضايا الكتاب الذي ألَّفه الدكتور لويس آملين أن نناقشه ـ بعون الله ـ في كل فصول كتابه في بحوث أخرى ننشرها تباعا.

وفي هذا الصدد نذكر بعض القضايا في فقه اللغة المقارن، ونوضح ـ بالبحث والتحليل ـ أسس المنهج المقارن في دراسة اللغات، ودراسة العربية في ضوء المقارنات اللغوية.

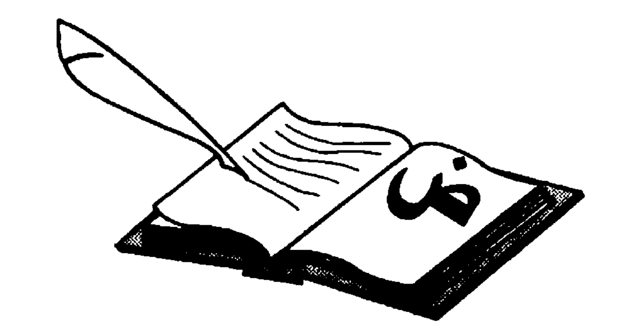
كما نعرض ـ تبعا لذلك ـ بعض آراء المستشرقين في دراسة العربية ونناقشها ونبين وجه الصواب فيها.

ونسأل الله الهداية والرشاد والتوفيق.

الخميس ١٩ من المحرم سنة ١٤١٧ هـ

الموافق ٦ من يونيه سنة ١٩٩٦ م

د. عبد الغفار حامد هلال



١

ض ض ض ض ض ض ض ض ض ض

الباب الأول

موطن العرب وطبيعة اللغة العربية

كتب الدكتور لويس عوض كتابا فى فقه اللغة عنوانه (مقدمة فى فقه اللغة العربية)، طبعته الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٠م[١]، وفيه عرض لقضية (العرب ولغتهم) فى الفصل الأول[٢] منه، وبدا أنه يقلب الحقائق التاريخية واللغوية فى إطار معالجته لهذا الموضوع، وقد رأيت من واجب البحث العلمى الموضوعى أن أناقش ما كتب بالحجة والدليل، مبينا جوانب التجنى والذهاب إلى غير الصواب.

والكتاب الذى نحن بصدده يحوى فصولا كثيرة، لا يتسع المقام لمناقشتها جميعها دفعة واحدة، ولذا فإننى سأعرض لفصوله واحدا بعد الآخر.

ويهمنى الآن أن أعرض للفصل الأول منه، والذى جعل عنوانه (العرب ولغتهم).

ففى هذا الفصل عرض المؤلف الهدف الذى أنشأ كتابه من أجله، فهو ـ كما قال ـ يريد أن يثبت «أن صلب اللغة العربية ذاته كان من نفس الشجرة التى تفرعت عنها المجموعة الهندية الأوربية قبل هجرة العرب من موطنهم القوقازى إلى شبه الجزيرة التى تحمل اسمهم الآن، وبالتالى فإن ما نجده ـ على حد تعبيره ـ من عناصر غير هندية أوربية هو الدخيل وليس صلب الأصلاب»[٣].

وهو بهذا ـ يحاول أن يثبت أن كتابه يقوم على دعم رأيه الذى يقلب الموازين فيجعل العربية فرعا من فروع اللغات الهندية الأوربية قائلا :

«وقد انتهيت من أبحاثى فى فقه اللغة العربية إلى أن اللغة العربية هى أحد فروع الشجرة التى خرجت منها اللغات الهندية الأوربية[٤] ـ فالعرب موجة متأخرة

(١) يقع الكتاب فى تسع وستمائة صفحة غير الفهارس.
(٢) من ص ٥ ـ ٥٠.
(٣) د. لويس : مقدمة فى فقه اللغة العربية ص ٤٢.
(٤) المصدر السابق ص ٢٦.

جدا من الموجات التى نزلت شبه الجزيرة من طريق بادية الشام حاملة معها لغتها القوقازية المتفرعة من المجموعة الهندية الأوربية»[1]، ويرى أن ينسحب هذا الحكم على بقية اللغات السامية أخوات العربية، فيقول :

«وإذا اعتبرنا اللغة العربية نموذجا لبقية اللغات السامية خرجنا بأن ما يسمونه مجموعة اللغات السامية هو أحد الفروع الرئيسية التى خرجت من هذه الشجرة، ثم تفرعت إلى فروع ثانوية كانت العربية أحدها».

ويهاجم فى هذا الصدد علماء العربية القدامى الذين اكتفوا بإيضاح جوانب التأثر والتأثير التى وقعت بين العربية واللغات الأخرى، فقد كان يود أن يوافقوه على رأيه فيقول :

«فالأمر - إذًا - يتجاوز أن يكون مجرد اقتباس اللغة العربية لمئات الألفاظ أو آلاف الألفاظ من اللغات الهندية الأوربية المحيطة بها كاليونانية، واللاتينية، والفارسية، والهندية، وأكثرها من ألفاظ الحضارة،كما كان يظن فقهاء اللغة العربية كالجواليقى والسيوطى والبشبيشى والخفاجى ومَن جاء بعدهم من المتأخرين؛ لأن اللغة العربية - كما يدل التحليل المورفولوجى والفونطيقى والسيمانطيقى فى هذا الكتاب - كغيرها من اللغات السامية ليست فى صلبها وسمتها الأصلى إلا تطورا طبيعيا من نفس الجذور التى خرجت منها السنسكريتية، وإيرانية الزند واليونانية واللاتينية، فعندما نجد أسماء الأعداد وأسماء القرابة الأساسية،وأسماء الحيوانات وأسماء النباتات وأسماء الظواهر الطبيعية،والأفعال والصفات الأساسية مشتركة فى الجذور نشتبه فى أن هذا التواتر ليس نتيجة للتأثر والتأثير وإنما هو نتيجة لوحدة الأصول»[2].

وهو فى هذا السبيل سلك عدة مسالك يبغى من ورائها أن يشوه الحقائق ليخدم وجهة نظر خاطئة.

---

(١) المصدر السابق ص ٤٠.
(٢) المصدر السابق ص ٢٧.

فإذا كانت محاولته تهدف إلى مسخ طبيعة اللغة العربية المستمدة من الأصل السامى، فإن هذا لن يتحقق إلا بسلوك طرق تؤدى بها إلى ذلك، ولو كانت على حساب الحقائق العلمية.

فجعل العرب ـ بصفة خاصة ـ والساميين ـ بصفة عامة ـ منذ فجر التاريخ كانوا يقطنون مكانا آخر غير الجزيرة العربية، وزعم أن الجزيرة العربية لم تكن مهدهم الأول بل قدموا إليها من مكان آخر، وحاول ـ فى بيان هذا المكان الآخر ـ أن يجعله مكانا مشتركا نزل فيه الساميون والآريون جميعا، وأنه لا يوجد جنس يسمى بالساميين إلا فى إطار الشجرة العامة الهندية الأوربية.

ولما كانت الحقائق التاريخية والبيئية والوثائقية تعرف جماعة إنسانية تسمى الساميين ـ منذ فجر التاريخ ـ وتعرف لهم تنقلات وهجرات تمت أصلا ـ من داخل الجزيرة العربية إلى ما حولها، فإن الدكتور يأبى إلا أن يمسخ طبيعة هذه الجماعة ويجعلها تذوب فى الإطار الهندوأوربى بحيث لا يُعرف لها شكل معين أو خصائص تميزها من سواها من الهنود والأوربيين.

ومن منطلقه الخاص يحاول أن يفسر نشأة العرب الأولين، فيصر على أنهم قدموا إلى الجزيرة من خارجها لا العكس محاولا بذلك أن يجعل اللغة العربية من فصيلة اللغات الهندية الأوربية.

يقول : «ولن نستطيع أن نفسر ظاهرة تكوُّن اللغة العربية من عناصر مشتركة الجذور مع اللغات الهندية الأوربية إلا إذا افترضنا أن التكوُّن السكانى لشبه الجزيرة لم يكن فيضانا سكانيا من داخل شبه الجزيرة إلى خارجها أو حوافيها المحيطة بها ولكن كان فيضانا سكانيا من خارج شبه الجزيرة إلى داخلها».

ويشرح اعتقاده السابق فيقول :

«إن المخزن البشرى العظيم الذى خرج منه عديد من أقوام منطقة الشرق القديم منذ الألف الثالثة قبل الميلاد كان المنطقة المحيطة ببحر قزوين من ميديا عبر جبال القوقاز حتى البحر الأسود، وهو يعتنق رأى كنتنو القائل بأن ثلاثة أجناس تعايشت وتحاربت واندمجت فى العراق القديم وهم :

(أ) السكان الأصليون والسومريون والكاسيون، وهؤلاء اصطلح على تسميتهم بالآسيين.

(ب) الهندوأوربيون، وهؤلاء هم الميتانى أو الحريون أو الإيرانيون، ولغة هذين الفريقين هندية أوربية.

(جـ) الساميون، وهؤلاء هم الأكاديون من بابليين وآشوريين وعموريين وآراميين، ولغتهم سامية[1].

وقبل أن ندخل إلى مناقشة الدكتور فى رأيه نود أن نقول :

كلنا يعلم أن الإنسان وجد على ظهر هذه الأرض ولكن أمر وجوده فى بقعة واحدة أو أكثر محل خلاف بين العلماء والباحثين.

ومهما تكن طبيعة هذا الخلاف ومداه فلابد أن يكون بنو البشر قد عرفوا مقرا واحدا لهم منذ فجر التاريخ، وهذا المقر قد اختلفوا فيه أيضا، ومعظم المؤرخين على أن البقعة التى نزل بها الناجون من الطوفان ـ نوح وتابعوه ـ كانت المنطقة المجاورة لمنابع سيحون وجيحون[2] أو بعض جهات أرمينية، ويقرر بعض المفسرين أن الجودى الذى رست عليه سفينة نوح هو جبل (أرارات) فى هضبة أرمينية[3] فهذا المكان أو ذاك ربما كان الموطن الأصلى للبشرية جمعاء قبل انفصالها وانقسامها، وفى تلك المنطقة كان يعيش الآريون والساميون والحاميون وهم نسل أولاد نوح الثلاثة سام وحام ويافث الذين تنسب إليهم الأجناس البشرية[4].

وهناك كثر التناسل وضاقت الأرض بهم، فبدأ بعضهم الهجرات المتعددة بحثا عن القوت والاستقرار.

---

(١) المصدر السابق ص ٣٢، ٣٣.

(٢) أصلهما فى إقليم التركستان القديم، ويسميان الآن (سيرداريا : سيحون) و(إنترداريا جيحون) فى جمهورية أوزبكستان الروسية.

(٣) انظر تفسير القرطبى ص ٣٢٦٩ ط الشعب، ولسان العرب ٤/ ١١٣ . الجودى جبل يقرب من الموصل.

(٤) انظر د. على عبد الواحد وافى: فقه اللغة ص ٢. و د. حسن ظاظا . الساميون ولغاتهم ص ٥. واللسان والإنسان ص ١٦٧، ١٦٨.

«وكانت الجزيرة العربيــة وسوريا وفلسطين وأرض الرافدين الموطنَ التاريخى للشعوب السامية، وقد أقامت فيه إقامة ثابتة متصلة، ولكن ليس معنى هذا أنها لم تنتشر وراء حـدود تلك البـلاد فى غزوات تتـفـاوت فى مداها وطول زمنهـا، أو للإقامة فى مناطق أخـرى إقامة دائمة كالهـجرة إلى الحبشة عـلى الساحل الإفريقى المواجه لليمن وتأسيس الدولة الفـينيقية فى أرض كنعان[1] وإنشاء المستـعمرات فى بعض جزر البحر الأبيض المتوسط وعلى سواحله الشمالية والجنوبية».

وقد استعمل العلماء الأوربيون قرب نهاية القرن الثامن عشر لفظ «الساميين» اسما مشتركا لتلك المجموعـة من الشعوب التى ينتمى إليها الآراميون والآشوريون والعبريون،والتى تتضح قراباتهـا من لغاتها دون لبس أو إبهام، وبعد هذا أسند هذا الاسم إلى بقية الفـصيلة الساميـة بعد أن كشف علم الآثار عن شعـوب أخرى لها صفات مماثلة[2] «وهم البابليون والفينيقيون والعرب والأحباش»[3].

ويدور نقاش وجدل حول الموطن الأصلى للسامـيين الذى نزل فيه أبناء سام ابن نوح بعد نزوحهم من الموطن الأصلى للبشرية كلها.

فذهب فريق إلى أن الموطن الأصلى للساميين كان بلاد أرمينية[4] بالقرب من حدود كردسـتان وهو الموطن الأصلى للشعـبين السامى والآرى معـا، ثم انحدروا منه إلى المناطق الأخـرى بأرض الرافدين وسوريا وفـلسطين والجزيرة العـربية على حد ما ذهب إليه الدكتور لويس عوض.

ومن هذا الفريق أرنست رينان وفريتز هومل وبيترز[5] وفن كريمير وإجنازيو جويدى ودرايفـر وغيرهم، ولهم فى ذلك أدلة ومـلاحظات لم تثبت صحتـها ولم يؤيدها البحث العلمى الموضوعى.

---

(١) يقول ابن سيدة فى كـتابه المخصص : وكنعان بن سام بن نوح وإليه ينسب الكنعانيـون، وكانوا أمة يتكلمون بلغة تضارع العربية. انظر المخصص، ١٢ / ١٦٧.

(٢) سبتينو موسكاتى : الحضارات السامية القديمة، ص ٤٢، ٤٣.

(٣) انظر د. وافى : فقه اللغة، ص ٣، و د. حسن ظاظا : الساميون ولغاتهم، ص ٥ وما بعدها.

(٤) قصد بعض القائلين بذلك من أرمينية شـرقى آسيا الصغرى والإقليم الذى يقع بين طوروس والفرات، ومن هؤلاء بيترز Peters.

(٥) د. حسن ظاظا : الساميون ولغاتهم، ص ١٠.

فأرنست رينان الفرنسى عرض هذا الرأى فى كتابه «التاريخ العام للغات السامية» الذى ألفه فى منتصف القرن الثامن عشر وفيه تحامل على الساميين وآراء دلت البحوث والكشوف الحديثة على خطئها[١].

واعتمد فى رأيه هذا على بعض روايات التوراة التى تقول : إن أقدم أرض عمرها بنو نوح ـ عليه السلام ـ هى أرض بابل وما نقل عن أحبار اليهود من روايات فى هذا الشأن[٢].

ويوافقه فى الرأى المستشرق الألمانى فن كريمير، واعتمد فى ذلك على ملاحظاته الخاصة ببعض الأسماء التى استعملها الساميون فكتب بحثا سنة ١٨٧٥م عن أسماء الحيوانات والنباتات التى أخذها الساميون عن غيرهم، واستنتج من بحثه أن الساميين[٣] لم يكن عندهم اسم مشترك للنخلة أو البلح أو النعام فلابد أنهم عرفوا هذه الأشياء وهم متفرقون فى أوطان مختلفة، ولاحظ أنهم كانوا يستعملون اسما مشتركا للجمل يحتمل أنهم عرفوه فى موطنهم الأول، وهذا ينطبق على بعض مناطق أرمينية المشار إليها.

وقد سبقوا الآريين فى خروجهم من هذه المنطقة، وربما حدث هذا تحت ضغطهم وأنهم ـ بعد هذا ـ انحدروا من هضبة إيران إلى مشارف العراق الشرقية حيث كونوا أقدم مركز من مراكز الثقافة السامية.

ووافقه على ذلك المستشرق الإيطالى جويدى الذى ألف كتابا سنة ١٨٧٩م درس فيه أسماء المعادن والنباتات والحيوانات، والأسماء الدالة على التقلبات الجوية والتغيرات الجيولوجية فى اللغات السامية، واهتدى من ذلك إلى أن أسماء هذه الأشياء التى اتحدت أو تشابهت لا تتحقق إلا فى إقليم التركستان السابق.

---

(١) د. وافى : فقه اللغة ص ٤، ٥.

(٢) انظر أ. حامد عبد القادر فى محاضراته عن فقه اللغات السامية سنة ١٩٦٤، وبحث : الهجرات البشرية الكبرى. ١ ـ الهجرات السامية للدكتور محمد السيد غلاب، بمجلة كلية اللغة العربية بالرياض، العدد السادس ١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م، ص ٤٩٥. وانظر سفر التكوين من التوراة.

(٣) قبل أن تنفصل اللهجات السامية إلى لغات مختلفة.

ومن القائلين بهذا الرأى أيضا فلوك Vlock فى مقاله عن الساميين فى دائرة المعارف التاريخية الألمانية، وهومل قال بذلك أيضا سنة ١٨٧٩م غير أنه عدل عن رأيه فيما بعد ثم رجع مرة أخرى إلى رأيه الأول سنة ١٩٣٦م، كما أخذ درايفر Driver بهذه النتيجة أيضا(١).

وقد تصدى العلامة المستشرق الألمانى الكبير نولدكه(٢) للرد على رينان بأن روايات التوراة مشكوك فى صحتها؛ لأنها لا تستند إلى أسس تاريخية يقينية، وما نقل عن أحبار اليهود مجرد روايات لا يصدقها العقل إذ هى لا تعدو أن تكون رأياً خرافيا لا يمكن أن يكون تعبيرا حقيقيا عما جرى فى القديم من الأزمان؛ لأن الذاكرة ـ وبخاصة ذاكرة القبائل البدائية ـ لا يمكن أن تعى هذه الحوادث الماضية بحيث لا يتطرق إليها نقص أو نسيان.

كما رد على من درس مجموعات الأسماء السابقة بأن هذا مجرد ملاحظات عابرة، ولا يمكن أن تأخذ طابع الاستقراء، ومن الممكن أن تكون هنالك كلمات متحدة لم يصل إليها، وإن كثيرا من ألفاظ هذه اللغات قد انقرض، وحتى الحى منها قد فقد كثيرا من الألفاظ القديمة التى ورثتها عن اللغة السامية الأصلية.

على أنه من الممكن العثور على كلمات مشتركة بين هذه اللغات السامية، ولا توجد مدلولاتها فى بلاد التركستان أو منطقة الرافدين.

بل إن كلمات كثيرة مثل : جبل ـ ولد ـ رجل ـ شيخ ـ رحل ـ خيمة ـ ليست متحدة فى جميع اللغات السامية مع أنه لابد أن توجد فى البيئة التى عاش فيها الساميون(٣).

وربما كانت هذه الألفاظ المتحدة أو المتشابهة مستعارة من لغات أخرى غير سامية كلغات القوقاز وفارس والأناضول(٤).

---

(١) د. محمد غلاب فى مقاله السابق، ص ٤٩٦. وانظر محاضرات فقه اللغات السامية للأستاذ حامد عبد القادر.

(٢) فى كتابه : Die semitischon spmitiques.

(٣) أ. حامد عبد القادر فى محاضراته (فقه اللغات السامية).

(٤) د. حسن ظاظا : الساميون ولغاتهم، ص ١٢. وانظر بحث د. محمد غلاب السابق، ص ٤٩٧.

ولذا لا يصح أن يقوم الحكم على دراسة بعض الألفاظ كما فعل فن كريمير وجويدى.

ويقول أحد الباحثين : إن هذا الافتراض قد أصبح الآن مهجورا لا يقبل عليه أحد[1].

وعلى هذا، فتصور إقامة الأقوام السامية إقامة ثابتة ـ أول الأمر ـ فى العراق وما حولها مع الهنديين الأوربيين ـ قبل أن ينحدروا إلى الجزيرة ـ تصور أثبتت الحقائق أنه لم يكن، وإن صح أنهم كانوا يعيشون معا حينما كان مقر البشر جميعا واحدا فإنهم بعد أن افترق أبناء نوح الثلاثة سام وحام ويافث بحثا عن القوت والاستقرار ونتيجة العوامل الجغرافية والاجتماعية اتخذ الساميون مقرا آخر لهم لم يكن العراق ـ كما يرى هذا الفريق الذى نقض رأيه بالحجة والبرهان ـ وإنما اتخذت الجماعة السامية مقرًا آخر عاشت فيه قرونا متطاولة قبل أن تبدأ هجراتها المعروفة فى التاريخ إلى العراق، وقبل أن تلتقى بسكانه الأصليين والسومريين الوافدين عليه والكاسيين.

ومعظم المؤرخين والباحثين على أن الجزيرة العربية كانت المهد الأول للساميين[2]، ويؤكدون ذلك بأن الجزيرة العربية كانت فى عصور سحيقة خصبة تجرى فيها الأنهار وتجود الزراعة ويكثر الرعى، وكانت صالحة للصيد والقنص، ويمكنها أن تفى بحاجات الآلاف المؤلفة من البشر[3].

ومن أوائل القائلين بذلك من المستشرقين إيرهارد شرادر وفنكلر وتيله وفنسان والأثرى الفرنسى جاك دى مورجان.

---

(١) د. حسن ظاظا : الساميون ولغاتهم، ص ٩.

(٢) اختلف العلماء فى المكان الذى كان الموطن الأصلى للساميين من شبه الجزيرة العربية، فذهب فريق إلى أن ذلك وسطها ـ ولا سيما نجد ـ ، وذهب آخرون إلى العروض ـ ولا سيما جزيرة البحرين والسواحل المقابلة لها ـ ورجّح فريق ثالث أن يكون ذلك فى الجنوب ـ وفى اليمن بصفة خاصة ـ انظر بحث الدكتور محمد بيومى مهران بعنوان (دراسة حول العرب وعلاقاتهم الدولية فى العصور القديمة) بمجلة كلية اللغة العربية بالرياض ـ العدد السادس، ص ٢٩٨، ٢٩٩.

(٣) أ. حامد عبد القادر فى محاضراته (فقه اللغات السامية).

وفى مقدمة المؤرخين الذين أيدوا هذا الرأى البـرنس كيتانى دوتيانو Caetani de teano الإيطالى الذى كان يرى أن هذا القسم ـ جزيرة العرب ـ كان فى العصور السابقـة للتاريخ كثيف السـكان،خصب الأرض،موفور الخـيرات،تخترقـه ثلاثة أنهر كبيرة على الأقل[١]، وأنه على إثر بعض الظواهر البـحرية وانحـسار جبـال الثلج الكبيـرة إلى الشمـال فقد خـصبه وجـفت أنهاره فنزح مـعظم سكانها إلى جـهات أخرى.

وقد اعتمد فـى نظريته هذه على أدلة مستمدة من البحوث الجـيولوجية التى أحريت بالمنطقة.

وقد أفادت أبـحاث المستشـرق الألمانى فريتز هومل أن ميل السطح فـى شبه الجزيرة العـربية وتعرضــه للرياح الموسميـة ربما كان قد تغيـر بانخساف فى طبـقات الأرض فندر الماء فى شـبه الجزيرة وجـفت أنهارها، ولعل سـبق اليمن إلى عـمارة السدود وخزانات الميـاه التى من أشهرها سد مأرب يرجع إلى مـحاولة التغلب على هذا القـحط بل لعل المأثورات المتداولـة بين عرب الجـاهلية عن وجـود ما يســمى العـرب البائدة مـثل عاد وثمـود وطسم وجـديس وجرهم ووبار هو صـدى لتلك الكوارث الجـغرافيـة التى دفعت الســاميـين الأصليين من سكان بلاد الـعرب إلى البحث عن القوت فى أماكن أخرى[٢].

ومن الملاحظ وجود كـثير من الوديان الجـافة فى صحراء الجـزيرة، مما يؤكد أنها بقايا الأنهار التى طمسها التاريخ والحوادث الجيولوجية.

---

(١) فى التوراة (سفر التكوين ٢/ ١٣) ما يفيد أن نهـرين ـ غير دجلة والفرات ـ كانا يرويان أرض الجويلة ـ حيث الذهب ـ والحبـشة، ويسمى الأول فيـشون، والثانى جـيحون، وظاهر أن النهـر الأول ربما كان يوصل إلى الأطراف الجنوبية الشرقية من شبه جزيرة العرب مما يلى عـدن شرقا، والثانى كان ينبع من جبال اليمن وأخذ مجـراه مستديرا حـولها فيلتقى بنهـر فيشون ونهـر دجلة ونهر الفرات فى شط العـرب. د. حسن ظاظا: الساميون ولغاتهم، ص ١٤.

(٢) د. حسن ظاظا الساميون ولغاتهم، ص ١٤

وقد التفت العلماء منذ أكثر من نصف قرن إلى ظاهرة تـغير المناخ تغيرا كبيرا من الدفء إلى البرد أوالمطر إلى الجفاف، ودلت الأبحاث الجيولوجية ـ فعلا ـ على هذا التغير الكبير الذى حدث فى آخر العصور الجـيولوجية ـ عصر البليستوسين أو الزمن الرابع[1] ـ وأصـبح هذا التـغـير أمـرا مـفـروغا مـنه تدل علـيه التكوينات الجيولوجية كما تدل عليه الحفريات النباتية والحيوانية[2].

ويؤكد هذه التغيرات الجـيولوجية فى الأزمان السحيقـة ما جرى من انفصال جنوب غربى بلاد العـرب عن إفريقيا فى العصـور الحجرية والجليدية، فـقد أثبتت مس كيتن تومـسون Miss caton thompson فى أبحاثهـا التى نشرت أن انفـصال جنوب غربى بلاد العرب عن إفريقيا الشرقية حدث فى حقبة البليستوسين Pleisto-cene أى قبل مليون عام على الأقل[3].

وقد قررت أكـبر هيئة عـلمية فى العالم العـربى للتربية والثقـافة والعلوم أن شبه الجزيرة العربيـة مع ما قيل من اعتدال طقسها فى عـهود غابرة قد تعرضت إلى الجفاف على فترات متوالية فضاقت فيها موارد الغذاء مما دفع أهلها إلى الهجرة إلى البلاد المحيطة ووديان الأنهار الكبيرة[4].

واليمن ـ كما يعترف المحققون من المؤرخين القدامى ـ كانت خصبة تنمو فى سهـولها الأشجـار والنخيل وأنواع كثـيرة من الأعشاب والـنباتات، ومن ثم أطلق عليها مؤرخو اليونـان اسم (بلاد العـرب السـعيدة) Arabia Felix وسـماها العرب ـ منذ القدم ـ بلاد اليمن ولعله محرف عن (اليُمْن) بضم الياء وسكون الميم[5].

---

(١) عصور الإنسان الحجرية وعصور الجليد بأوربا.

(٢) من بحث الدكتور محمد غلاب فى مجلة كلية اللغة العربية السابق ص ٤٨٨.

(٣) انظر : دراسات فى العالم العربى. الجزء الخاص بتاريخ الشرق القـديم للدكتور أحمد فخرى، الباب الثالث ص ١٥٦.

(٤) لجنة وضع إستراتيجية لتطوير البيئة فى البلاد العربية ـ إستراتيجية تطوير التربيـة العربية، نوفمبر سنة ١٩٧٦، ص ٥١.

(٥) انظر د. أحمد فـخرى : تاريخ الشرق القديم، ص ٤٨٨، وموسـكاتى : الحضـارات السـامـية القديمة ص ٣٥، ٤٠. وسيديو : خلاصة تاريخ العـرب ص ١٥. ومحاضرات الأستاذ حامد عـبد القادر فى فقه اللغات السامية.

واسم عدن ليس بغريب عن نفس الأصل السامى القديم الذى أخذت منه كلمة (عدن) صفة للجنة[١].

وقد نشر بهذا الصدد الأستاذ توينبى Toynbee بعدد ٩ ديسمبر سنة ١٩٢٥م، من جريدة منشستر جارديان مقالا ضمنه رأيا قريبا من هذا الرأى[٢].

وهذا الفرض كان فى عصور موغلة فى القدم ثم أعقبه ما أصاب الجزيرة العربية من الجفاف والقحل الذى أدى إلى حدوث الهجرات السامية المتتابعة من الجزيرة إلى خارجها والتى يرى المحققون من المؤرخين أنها بدأت حوالى القرن السادس والثلاثين قبل الميلاد.

ويبرهن فريق من المحققين منذ أواخر القرن التاسع عشر على صدق هذه النظرية ببراهين تكاد تكون قاطعة، ونذكر أهمها فيما يلى :

الأول - ما يؤكده التاريخ من أن الهجرات السامية خرجت من الجزيرة العربية[٣] وكانت على سبيل الغارات والهجرة، فمصادرنا التاريخية تسجل هذه الهجرات وهى هجرات لم يكن بد منها إزاء الأحوال الاقتصادية والاجتماعية للصحراء، فهذه الأحوال تؤدى إلى ميل مستمر من قبائل الرعى البدوية إلى الاستقرار فى المناطق الخصبة حول الصحراء والأخذ بأسباب الحياة الزراعية[٤].

وهذه حقيقة ثابتة بشكل كاف، فالتاريخ يدلنا على أن الصحراء العربية كانت نقطة الانطلاق للهجرات السامية، والحركات الوحيدة التى سلكت الاتجاه المضاد كانت حركات دفاعية قليلة محدودة النطاق[٥]، وجميع الحركات التى انطلقت من

---

(١) د. حسن ظاظا : الساميون ولغاتهم، ص ١٥.

(٢) د. وافى : فقه اللغة، ص ٩.

(٣) موسكاتى : ص ٥١.

(٤) المصدر السابق ص ٤٩.

(٥) كتلك الحروب التى لجأ إليها الآشوريون والبابليون منذ القرن التاسع قبل الميلاد بهدف بسط نفوذهما على عرب شمال الجزيرة. ولعل السبب الرئيسى الذى دفع الآشوريين والبابليين إلى الاهتمام بشمال الجزيرة العربية هو الرغبة فى حماية الطرق التجارية التى كانت تسير فيها القوافل القادمة من الجنوب، وقد كانت هذه القوافل معرضة دائما لخطر السطو عليها من قبل القبائل الرعوية فى أثناء رحيلها الطويل. فكانت تلك=

الصحـراء كانت لشـعوب لغـاتها سامـية، ولا يصح أن نعـترض بأنه وقـعت أيضا حركات مـن مكان إلى آخر فى المناطق المستقـرة، فمن الجلى أن الساميـين بعد أن نفذوا من الصحراء إلى المناطق المستقرة واصلوا المشاركة فى الحركات التاريخية التى وقعـت فى تلك المناطق، وأن هذه الحركـات اللاحقـة لا علاقـة لها بمسـألة أصل الساميين[1].

الثاني ـ من الثابت ـ أيضا ـ أن الأحوال الاقـتصادية والاجتماعـية للصحراء تجـعل سكانها الرعـاة البدو ينزعـون ولا مناص إلى التـدفق على المناطق الزراعيـة المحيطة بالصـحراء، ولا نزال نرى هذا النزوع إلى أيامنا هذه[1]، فلا نزال نرى فى أيامنا هذه عملية التحاق القبائل شبه البدوية بالقبائل المستقرة[2].

ولا ريب أن ذلك يحـدث حين تنـكمش مسـاحات الـكلأ وتنفق حيـوانات الرعى، ولا تعود الصحارى بقادرة على إطعام أهلها، فيفيض سكانها على الأقاليم الزراعية المجاورة[3].

الثالث ـ النقوش التى عـثر عليها مكتـوبة باللغة السومـرية، أى بلغة سكان بابل الأصليين، تفيد أن بلادهم كانت دائما فى خطر من إغـارة قبائل سامية كانوا يغيرون عليها من الجهات الغربية والغربية الجنوبية.

الرابع ـ دلائل التاريخ كلها تشير إلى أن بابل وآشور وكنعان ومصر والحبشة كانت كلها هدفا لغارات من أقوام قدموا إليها من الجزيرة العربية.

= الحملات على طريق التأديب تتـم بين الحين والآخر لضمان وصول المنتجـات سالمة. انظر بحث (قوم ثمود بين روايات المؤرخين ومـحتويات النقوش) للدكتـور خـالد طه الدسـوقى بمجلة كلية اللغة الـعربية بالرياض، العدد السادس، ص ٢٦١، ٢٦٢، ٢٨٠. وقد استمرت هذه الحروب قرابة ثلاثة قرون ما بين القرن التاسع والسـادس قبل الميلاد، وأضعفت بلاد العرب الشمالية إلى حد جعل الطريق مفتوحا لاستيلاء الملك الفارسى قمبيز عليها دون مقاومة وهو فى طريقه إلى مصر عام ٥٢٥ ق م. وانظر بحث الدكتور بيومى مهران بالمجلة المذكورة، ص ٣٣٩، ٣٥٤، ٣٥٥.

(١) موسكاتى : ص ٥٣.

(٢) المصدر السابق ص ٥٥.

(٣) د. غلاب ص ٤٩٢.

والساميون أنفسهم يقـولون : إنهم هاجروا من بلاد العرب، قالوا ذلك على لسان سـرجون الأول، وقال ذلك المصـريون حين روى قدمـاؤهم أنهم جاءوا من الشرق ومن الجنوب الشرقى وأنهم علموا الحضـارة لمن كانوا فى البلاد وأخضعوها لسلطانهم، ومـا من شك فى أن صلة مصـر بالشعوب السـامية فى عـصر مـا قبل التـاريخ تركت آثارهـا فى اللغـة المصـرية القـديمـة سـواء فى مـفـرداتهـا أو فى أجروميتها[1].

ويفيد ذلك أيضا تتـبع المؤرخين للنصوص الأولى التى استعملت فـيها كلمة (عرب) واخـتلاف دلالتهـا بين التخصـيص على مواقع فى الأرض أو على قـبائل بعـينها، أو على خـصائـص البداوة فـيهـا وبين التعـمـيم على شبـه الجزيرة ومـا يتجاوزها، وعلى قوم بجميع قبائلهم، وقد استعملها هيروتس كبير مؤرخى اليونان فى القرن السادس ق. م لتـشمل شبه الجزيرة الـعربية كلها وأدخل فيـها جزءا من الأراضى المصرية مما يقع فى شرقى وادى النيل[2].

ولـم يرد حدث تاريخى واحد يبين أن سكان ما حـول الجزيرة من المتحضرين كالبابليين مثلا نزحوا إليها وقتًا ما.

ولـم نسمع بمثل تاريخى واحـد يبين لنا أن سكان السهول والمدن المتـحضرين ينزحون إلى البـادية، أو يهاجرون إلى الصـحارى ليصيـروا رعاة إبل وغنم إلا إذا اضطروا إلى ذلك اضطرارا[3].

الخامس ـ والجزيرة العـربية هى الموطن الوحـيد الذى لم يؤثر فيـه أى نفوذ أجنبى يخرجها عن طبيعتها أو صـبغتها كما يقول المؤرخ الإنجليزى سايس (Sayce) وهو أحد المدافـعين عن هذا الرأى[4] فقـد قال: إن كل الروايات والآثار السامـية

---

(١) بحث دكتور مهران، ص ٢٩٩.

(٢) انظر إستراتيجية تطوير التربية العربية، ص ٥١.

(٣) أ. حامد عبد القادر فى محاضراته (فقه اللغات السامية).

(٤) فى كتابه الذى ألفه عن اللغة الآشورية وظهر عام ١٨٦٢م.

تشير إلى بلاد العرب موطنا أصليا للسامية، فهو الجزء الوحيد الذى ظل ساميا تماما لا تشوب ساميته شائبة[1]، وكان أهلها منذ أقدم العصور مـدبرين لأمورها متأهبين للإغـارة على مجـاورها، ولذا نجت من تسلط كيـروش (Cyrus) ملك الفـرس[2] وإسكندر Alexandre بن فيلبس ملك اليونان[3]، وبقيت على استقلالها زمن أخذ الرومان الدنيا القديمة[4].

السادس- عقلية الساميين التى تمتاز بجنوحـها إلى المعانى المحسوسة المشاهدة - كما يتبين ذلك من لغاتها - تفـيد بأن الصحراء لابد أن تكون مهدهم الأصلى[5]، فتشبيهاتهم ومادة أخيلتهم مستمدة من البيئة المحسوسة المشاهدة.

استمع إلى امرئ القيس الذى يقول فى وصف فرسه :

مكر مـفـر مـقـبل مدبر مـعـا ... كجلمود صخر حطه السيل من عل

ويمكننا أن ننتفع بالأدب العـربى - الذى يمدنا بأوصاف وافرة لحـياة البدو - وبالأدب العبرى مثل سفر التكوين فى التوراة حيث نشهد الانتقال من حياة البداوة إلى حياة الاستقرار[6]، وأشار سايس إلى ذلك أيضا حـين قال : إن المزاج السامى والعقليـة السامية الـتى تمتاز بشدة الإيمان وعـمقه، والصـلابة، وتحلّق فى أجواء الخيال لا يمكن أن يكسـبها سوى وطن صحراوى لا يعـرف أوساط الأمور ويترك قاطنه تحت رحمة قوة عليا مهيمنة، ويفسح له أفق الخيال[7].

وارتضى هذا الرأى أيضا فـريق من الباحثـين على رأسهم العـالمان الألمانيان شريدر و أشـبرنجر A.Sprenger، فقـد نشر الأول مـقالا سنة ١٨٧٣م فى مـجلة

---

(١) د. غلاب، ص ٤٩٧.

(٢) ولى ملكا على فارس سنة ٥٤٦ ق. م د. مهران ص ٤١٣ وما بعدها.

(٣) ٣٥٦ - ٣٢٣ ق م ، وقد فشل ذلك بموته فى ١٣ من يونيه سنة ٣٢٣.

(٤) سيديو : خلاصة تاريخ العرب ص ٦، ٧.

(٥) د. وافى : فقه اللغة ص ٩، ١٠.

(٦) موسكاتى ص ٥٥.

(٧) د. غلاب ص ٣٩٧.

ألمانية عن العلائق الدينية والجغرافية والتاريخية واللغوية أكد فيه هذا الرأى، ودافع الثانى عن هذا الرأى سنة ١٨٦١م، ثم نشر كتابا عن جغرافية بلاد العرب القديمة سنة ١٨٧٦م أكد فيه هذا الرأى أيضا، وألقى العالم الهولندى ديجوخيه DeGoeeje خطابا مهما سنة ١٨٣٢م، أوضح فيه رأيه فى هذا الموضوع وأنه من أنصار هذا القول بأن موطن الساميين الأصلى هو الجزيرة العربية، وارتضى هذا الرأى أيضا Wright وهوبرت جريمه (١٩٠٤م) ومايزر (١٩١٢م) ولوك (١٩٢٣م)(١).

وعلى هذا يصبح استنتاج الدكتور لويس القائم على أن العرب جنس قَدِمَ إلى الجزيرة العربية من خارجها استنتاجا غير مقبول ولا يوجد ما يؤيده، بل الدلائل كلها تعكس مبتغاه ويصبح تعليقه الآتى فاقدا أى مفهوم علمى، ولنستمع جميعا إليه وهو يقول :

«ليس من الصالح أن نتوه فى بحث التكوين الأنثروبولوجى لسكان شبه جزيرة العرب أو الهلال الخصيب(٢)، والتراكمات السلالية فيهما، ففى تعقيدات التكوين اللغوى ما فيه الكفاية، إنما يكفى أن نقرر بضع قضايا منها : أنه من الثابت أن القبائل الآسية(٣) المنحدرة إلى الهلال الخصيب من القوقاز وما حول بحر قزوين والبحر الأسود ومن منطقة الأناضول ومن هضبة إيران أيًّا كان منبعها وأيًّا كان تكوينها الأنثروبولوجى كانت تتكلم لغة ميدية سيكيذية وهى إحدى فروع المجموعة الهندية الأوربية، ربما تكون موجات منها قد نزلت فى شبه الجزيرة، كما نزلت موجات منها فى الهلال الخصيب، وفى هذه الحالة ليس هناك ما يمنع أن تكون الشعوب والقبائل الملقبة بالسامية سواء فى الهلال الخصيب أو فى شبه الجزيرة هى فى حقيقتها موجات تعاقبت فى عصور متعاقبة ومن مواقع متباينة من هذه المجموعة الآسية.

---

(١) المصدر السابق، ص ٤٩٨.

(٢) يقصد به تلك الحاشية الخضراء الممتدة من الخليج العربى شرقا إلى سيناء غربا. د. حسن ظاظا : الساميون ولغاتهم، ص ٢.

(٣) يَقْصِدُ بهم سكان العراق الأصليين والسومريين والكاسيين.

والعرب ـ إذًا ـ موجة متأخـرة جدا من الموجات التى نزلت على شبه الجزيرة من القوقاز والمنطقة المحيطة ببحر قـزوين والبحر الأسود نحو سنة ألف قبل الميلاد أو قبيل ذلك»[1].

وكما يرى المتأمل فكل كلامه مـبنى على مجرد الافتراض، ويكفى أن نلمح فى عبارته (ربما) و (ليس هناك ما يمنع) وغير ذلك من أساليب الارتجال.

بل إن الدكتـور يذهب مذاهب غيـر معقـولة وهو يعرض فكرته فـيدعى أن انحدار هؤلاء الأقوام من خارج شبه الجزيرة إلى داخلها حدث من أقوام بادية آثروا حـيـاة البـداوة على حـيـاة الاسـتـقـرار فى وديان الأنهـار أو حـيـل بينهـا وبين الاستقرار[2].

ويقـول : لعلها لم تسـتقـر فى مكان ما فى بلاد مـا بين النهرين أو الـشام الكبير؛ لأنها وجدت فى هذه وتلك أقواما مـنظمة أقوى منها بأسا وأعلى حضارة، فنفذت إلى الفراغ الكبـير فى شبه الجزيرة من طريق بادية الـشام حاملة معها لغـتها القوقازية المتفرعة من المجموعة الهندية الأوربية أو لعلها آثرت حياة البداوة والرعى والتجارة التى ألفـتها فى مهدها الجـبلى الأول على حياة الاستفلاح والاسـتقرار، فـفضلت الحـربة فى شبـه الجزيرة على الـقيـد فى وديان الأنهار مكتـفـيـة بروابط العصبـية أو (القوميـة) كأساس للتمـاسك الاجتماعى عن الارتبـاط بالوطن سجن المتحضرين على رأى ابن خلدون[3].

وهو يعتـمد فى هذا على ما ينـاقـض الواقع الملموس الذى أشار إليـه معظم الباحـثين والمؤرخـين وذكرته من قـبل فهـو يصطدم بما تمليه طبـيعـة الحيـاة، فمن الواضح أن القول بأن المتـحضرين يتركـون حياة الحضـارة والاستقرار إيثـارا لحرية البـداوة قول لا يوافق الواقع فلم نسـمع ـ على الإطلاق ـ عن أقـوام تركوا حـياة الحـضارة ليعـيـشـوا عيشـة البداوة والرعى، وإنما حقـائق التاريخ تؤكد عكس ذلك

---

(١) د. لويس : مقدمة فى فقه اللغة العربية ص ٤٠.

(٢) المصدر السابق ص ٣١.

(٣) المصدر السابق ٤٠.

كما عرضنا من قبل ـ وكما نراه تحت أعيننا فى العصر الحديث من تحضر البدويين وبنائهم العمارات الشاهقة فى المدن الناشئة فى الأقطار العربية التى انتقلت فى هذا العصر من البداوة إلى الحضارة.

ويكفى أن نعلم أن أشبرنجر يقول : من المستحيل تحول الزراع إلى بدو وأنه أهون عليه أن يرى أسد البحر يعيش فوق مرتفعات الألب والماعز فى البحر على أن يتصور سكان الجبال يتحولون إلى بدو[1].

ويوافق دى جوخيه أشبرنجر فى أن سكان الجبال لا يسكنون السهول أو يتحولون إلى رعاة متنقلين، وقال : إن العكس هو الذى يحدث دائما، فالرعاة يتحولون إلى زراع[2].

والواقع أن العرب كانوا يرحلون ويتنقلون إما للتجارة، وقد ورد ذلك فى القرآن الكريم عن رحلتى الشتاء والصيف[3]، وإما تحت وطأة الفقر والعوز فرادى أو جماعات بشكل سلمى أو غزاة فاتحين[4].

والدكتور لويس يجد نفسه فى حرج مما يقول لمخالفته الواقع، فيفترض فرضا آخر لصحة مدعاه فيجعل من الممكن ـ فى زعمه ـ أن تفسر الهجرات العظيمة بالانفجارات السكانية سواء بين سكان المراعى أو فى أحواض الأنهار دون حاجة إلى انتظار الجفاف من الأنهار والأمطار لتفسير انتقال الحشود البشرية من مكان إلى مكان عبر السهول والقنوات والأنهار والبحار من قارة إلى قارة، ويفترض أن هذه الهجرات الجماعية لم تكن تتم إلا بين أقوام تملك من مقومات القوة الحيوية ما يؤهلها للخروج لغزو الأقوام الأخرى، وفى مقدمة هذه المقومات درجة عالية من درجات التنظيم والتماسك الاجتماعى[5].

والواقع أن الدكتور لويس يناقض نفسه، فمرة يرى أن هذه الهجرات تمت من قبائل بادية آثرت حياة البداوة، وأخرى يرى أن المهاجرين الذين ينزلون مكانا لابد أن يكونوا أقوى من غيرهم تنظيما وسلطانا اجتماعيا.

---

(١) د. غلاب ص ٤٩٧.

(٢) المصدر السابق ص ٤٩٨.

(٣) المقصود قول الله تعالى فى سورة قريش : **﴿لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف﴾**.

(٤) د. غلاب ص ٥٠١.

(٥) مقدمة فى فقه اللغة العربية، ص ٢٥، ٢٦.

ثم إن الدكتور لويس ينكر أمر جفاف الجزيرة فى العصور السحيقة والذى أيده كثير من علماء الجيولوجيا والآثار، ويعرض لرأى البرنس كيتانى وينقده معتمدا على ما ذكره موسكاتى من أن الصحراء العربية لم يطرأ عليها فيما يبدو أى تغيير منذ فجر التاريخ[١]، وأنها لم تتغير إلا قليلا منذ أقدم الأزمان التاريخية إلى يومنا هذا[٢].

ونقد - فى هذا الصدد - ما ذكره الدكتور جواد على[٣] من التغيرات الجغرافية والمناخية فى جنوبى الجزيرة العربية، وأن اليمن كانت جنة خضراء انبثق منها الإنسان الأول ثم أصابها الجفاف[٤].

ووصف هذا الرأى وأمثاله بأنه تشنجات بشرية تحتاج فى تفسيرها إلى تشنجات جيولوجية أو إيكولوجية (بيئية).

ولا ندرى مبعث هذه الأفكار التى يرسلها الدكتور لويس على عواهنها دون ترو أو إدراك للحقائق المسلم بها تاريخيا ووثائقيا، فما قاله فى هذا المجال زيف بلا مراء.

فأمر جفاف الجزيرة - فى العصور السابقة - قد أكدته الأبحاث الجيولوجية والآثار التى لا تزال حتى الآن كما أشرنا من قبل، فضلا عن أن الدكتور لويس يناقض نفسه فيعترف - فى مقام آخر - بأن الجفاف ربما كان أحد العوامل التى تدعو إلى الهجرة، فحينما تحدث عن هجرة أقوام من المنطقة المحيطة ببحر قزوين يحاول تفسير هذه الهجرة على أنها ربما تكون نتيجة الجفاف أو بسبب ضغط أقوام أخرى أخرجت الناس بالغزو من ديارهم[٥] فكيف يعترف هنا ويمنع هناك؟

---

(١) موسكاتى : ص ٥٣.

(٢) المصدر السابق ص ٥٤.

(٣) جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، ط بيروت، ١٩٦٨.

(٤) د. لويس : مقدمة ص ٢٥.

(٥) المصدر السابق ص ٣١.

ثم إن خصب جنوبى الجزيرة أمر ثابت لا يمكن إنكاره ولا يمكن أن يعد تشنجا بل العكس هو الصحيح، فالمؤرخون يعترفون بأن دولة سبأ اتخذت مارب عاصمة لها فى نهاية عصر المكاربة[1] حيث كان يبنى سد عظيم للتحكم فى وادى أذنه[2] وتحويل مياهه للرى، وقد أشاع فيها ذلك السد الخصب والنماء، ثم لما كفروا بأنعم الله أرسل الله عليهم سيل العرم فهدم السد وأغرق الزروع والثمار وخرب الكثير من مواردهم الزراعية.

وبهذا حدثنا القرآن الكريم قائلا :

﴿لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال[3] كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور * فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل[4] * ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور﴾[5].

وهذا الخصب الذى كان بأرض اليمن ثابت كما نرى بالنصوص القرآنية الوثيقة إلى جانب ما أثبته المحققون من المؤرخين.

والقرآن الكريم يبين أنهم - بعد الخراب الذى أصابهم - مزقوا كل ممزق وتفرقوا أيدى سبأ باحثين عن مأوى لهم، قال عز حكمه : **﴿فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾[6].**

---

(١) لقب حكام دولة سبأ العربية القديمة ومعناه (الكاهن الاكبر).

(٢) يقع شمالى مأرب، وقد بنى السد عند مضيق الوادى بين جبل بلق القبلى وجبل بلق الأوسط، وكان يروى مأرب أيضا سد أصغر هو وادى خانق أو وادى الفلج. تعليق د. يعقوب بكر مترجم الحضارات السامية القديمة لموسكاتى. هوامش الفصل الثامن، ص ٣٥٣.

(٣) لم يرد الحق تبارك وتعالى جنتين اثنتين، بل أراد من الجنتين يمنة ويسرة أن بلادهم كانت ذات بساتين وأشجار وثمار تستر الناس بظلالها. القرطبى، ط الشعب : ص ٥٣٦٦.

(٤) الخمط : كل ما تغير إلى ما لا يشتهى، وخمط اللبن إذا حمض. الأثل : نوع من الشجر غليظ كالطرفاء الواحدة أثلة. السدر : نوعان برى لا ينتفع به ولا يصلح ورقه للغسول، وله ثمر عفص لا يؤكل وهو الذى يسمى الضال، والثانى : سدر ينبت على الماء وثمره النبق وورقه غسول يشبه شجر العناب. قال قتادة : بينما شجر القوم من خير شجر إذ صيره الله تعالى من شر الشجر بأعمالهم فأهلك أشجارهم المثمرة وأنبت بدلها الأراك والطرفاء والسدر وأشجار البوادى لا تسمى جنة وبستانا، ولكن لما وقعت الثانية فى مقابلة الأولى أطلق عليها لفظ الجنة - على سبيل المشاكلة - كقوله تعالى : **﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾** القرطبى ص ٥٣٧٠ بتصرف.

(٥) سورة سبأ : الآيات ١٥ - ١٧.

(٦) سورة سبأ الآية ١٩.

فبعضهم ذهب إلى الشام وآخرون إلى عمـان وقبائل ثالثة إلى تهامة، وكانت العرب تضرب بهم المثل فى التـفرق فتقول : تفرقوا أيدى سـبأ وأيادى سبأ، أى: مذاهب سبأ وطرقها[١].

ثم إن الدكتور يـعكس ما اتفقت عليه الروايات التـاريخية، وما اسـتقر لدى الباحـثين من هجرات الشـعوب السامـية من البابليـين والآشوريين والكنعـانيين، فيدعى أن هجرات البابليين والآشوريين تمت من أقاليم أخرى غير الجزيرة العربية، فالبـابليون ـ فى رأيه ـ تسـللوا من شمال سـوريا وأرض كنعان إلى العـراق تسللا سلميا من ٢١٠٠ و ٢٠٠٠ ق.م، وهم من يسمون : العموريين[٢].

مع أن الآثار التى خلَّفها الـساميون فى بابل وآشور تبـين أن فريقا من هؤلاء الساميين هاجروا من الجهات الشماليـة الشرقية من بلاد العرب إلى الجهات الخصبة من بلاد العراق، وقبل هذا التاريخ بكثير وربما فى القرن السادس والثلاثين ق. م، ولكن الدولة لم تكتـمل صورتها وتبلغ أوج عظـمتهـا إلا فى عهد الملك سـرجون الأول حوالى سنة ٢٧٥ق.م[٣].

وجمـيع الموجات السـاميـة ـ وغيرها ـ فـى رأى الدكتور لويس تـدفقت من القوقـاز إلى منطقـة الشرق القـديم منذ بداية الألف الثالثـة قبل الميـلاد على أقل تقدير، وعـرفت بدايتها التاريخـية بحضـارة سومر لا فرق فى ذلك بين سـومريين وحريين (مـيتـانى) وكلدانيين وحيـثيـين من جهة وبابليـين وآشوريين وعـموريين وآراميين وكنعانيين، وفينيقيين، ومؤابيين وسريانيين وعبرانيين وعرب[٤].

---

(١) القرطبى، ص ٧٣٧٣.

(٢) د. لويس : مقدمة ص ٣٢.

(٣) موسكاتى، ص ٦١، وما بعدها. والملك سرجون الأول الأكادى كـتب عن أصله فى نقش مشهور ما يفهم منه صراحـة أنه وعشيرته نزحـوا إلى العراق من شرقى جزيرة العـرب. د. أحمد فخـرى : تاريخ الشرق القديم، ص ١٥٨، ود. هندريك فان لون : قصـة الجنس البشرى، ترجمة إبراهيم زكى خورشـيد وأحمد الشنتناوى، كتاب الشعب (٣) الطبعة الثانية، ص ٢٤، و د. حسن ظاظا : الساميون ولغاتهم ص ١٠.

(٤) د. لويس : مقدمة ص ٣٩.

مع أن الوثائق والنقوش تقرر أن هجرات سامية خرجت من الجزيرة فى قرون سحيقة ق.م ، وكانت تتم كل ألف سنة تقريبا.

فقد نزح بعض الساميين إلى جنوب العراق وغزوا بلاد السومريين، وأسسوا مملكة بابل حوالى القرن السادس والثلاثين ق.م.

ونزح بعضهم إلى الشمال فتكونت الشعوب الكنعانية[١] حوالى القرن السادس والعشرين ق.م.

ونزح بعضهم فى هجرة ثالثة إلى العراق وأسسوا بها الدولة الكلدانية الخامسة التى كان من ملوكها حمورابى فى القرن السادس عشر ق.م[٢].

ووصلت هجرات من جنوبى بلاد العرب إلى مصر حوالى الألف الرابع ق.م[٣].

وهاجرت عشائر سامية منه أيضا إلى بلاد الحبشة قبل الميلاد بعدة قرون، وبلغت هذه الهجرات أشدها بين عامى ٣٠٠٠، ١٥٠٠ ق.م فى عهد دولتى معين وسبأ، وكانت هجراتهم من قرية تسمى فى النقوش السبئية (حبشا)، ولذلك أطلق على هؤلاء المهاجرين اسم الأحباش، وعلى المكان الذى هاجروا إليه اسم الحبشة ويسميها اليونان (أثيوبيا)[٤].

وينفى اعتقاده ـ كذلك ـ ما أثبته الدكتور سليمان حزين أستاذ الآثار والتاريخ المصرى القديم من أن بلاد العرب هى الأقدم، وأن الثقافة قد انتقلت منها فى العصور الحجرية القديمة إلى شرق إفريقيا.

وأن هذه الثقافة تشبه إلى حد كبير ما عثر عليه فى إفريقيا من ناحية، كما يشبه أيضا مع وجود اختلافات قليلة ما عثر عليه الباحثون من رجال عصر ما قبل التاريخ فى سوريا والعراق[٥].

---

(١) الشعوب الكنعانية : الشعب الفينيقى والشعب العبرى. انظر د. وافى : فقه اللغة ص ٣٠.

(٢) انظر مواطنهم الأصلية فى بحث د. غلاب، ص ٥٠١، وما بعدها، وكذلك د. وافى : ص ٨.

(٣) د. أحمد فخرى : تاريخ الشرق القديم، ص ١٥٨.

(٤) د. وافى : ص ٨٣ وما بعدها، وأ. حامد عبد القادر فى (فقه اللغات السامية) وبحث الدكتور مهران ص ٣١٧، وما بعدها.

(٥) من كتاب : (دراسات فى العالم العربى) الباب الثالث ـ تاريخ الشرق القديم، للدكتور أحمد فخرى، ص ١٥٧.

ويقرر الدكتور أحمد فخرى أن المهاجرين الساميين وصلوا إلى العراق حوالى سنة ٣٠٠٠ ق.م.

وقد كانوا على درجة من التقدم تجعلهم يعرفون كيف يستفيدون من غيرهم، فهؤلاء الساميون الذين وصلوا إلى العراق قبل خمسة آلاف عام من جزيرة العرب لم يكونوا قوما بدائيين بل كانوا ذوى ثقافة خاصة ولهم نظمهم وحياتهم الاجتماعية[١].

وهذا يتفق مع ما ذكره المؤرخون والباحثون من أن الجزيرة العربية كانت خصبة فى التاريخ القديم، وكان سكانها قوما ذوى حياة منظمة، وحضارة قبل أن يعتريها الجفاف ويصيرهم إلى حياة البداوة والرعى بآلاف السنين.

ويقرر الدكتور هندريك فان لون أن السومريين - وهم جنس أبيض اللون - وفدوا فى بادئ الأمر من الشمال (منطقة نشأة الإنسان الأول) ثم نزلوا الوادى الخصيب فى القرن الأربعين ق.م.

وسرعان ما تغلب عليهم الأكاديون (البابليون والآشوريون) وهم من القبائل الكثيرة الوافدة من صحراء العرب وكانت تتكلم لسانا مشتركا وعرفت باسم الساميين[٢].

ويقرر كذلك أن الوادى الخصيب هو البوتقة التى انصهر فيها كثير من الأجناس السامية[٣].

والهكسوس - فى رأى الدكتور لويس - لم يأتوا إلى مصر من الحجاز، ومن شبه الجزيرة العربية، وإنما استقروا فيها بعد طردهم من مصر.

أما المنبع البشرى الذى تدفقوا منه على الشرق القديم ثم عبروا إلى مصر - على مراحل أو دفعة واحدة - فهو - كما يقول - بحسب تقدير كثير[٤] من علماء الآثار والتاريخ القديم نفس المستودع البشرى المعروف فى عصر الهجرات العظيمة

---

(١) المصدر السابق ١٥٨.

(٢) من كتاب (قصة الجنس البشرى) ص ٢١.

(٣) المصدر السابق ص ٢٢.

(٤) فى الأصل : الكثيرين.

حول بحر قـزوين وربما كان هذا المستودع ذاته مجـرد محطة وسطى استقروا فـيها زمنا منذ هجـرتهم من وسط آسيـا شأن كـافـة القبـائل التى تسمى آرية وطورانيـة وسامية[١].

وبعد طردهـم من مصر اسـتقـروا فى الحجاز، وأسـسوا لهم مملكـة جعلوا عاصمتها مكة[٢] : وهـم ـ فى رأيه ـ تلك القبائل التى سميت بالعماليق.

ويرجع إليهم مدينة ثمود التى ازدهرت فى القرن الـثانى ق.م شمال الحجاز وكان لها بعض الشأن نحو ثمانيـة قرون قبل الإسلام، ثم أهلكها الله، فاسم ملك الهكسوس (خـمودى) يرتبط بمقارنة عناصره الفـونطيقية باسم (ثمـود) فهى مملكة أنشأها الهكسوس بعد خروجهم من مصر[٣].

(ومدائن صالح) بشمال الحجـاز أنشأها الهكسوس كذلك يقول : ومن حقنا أن نسـتنتج مبـدئيا أن مـدائن صـالح كانت إحـدى المحلات أو المدن التى أنشـأها الهكسوس بعـد خروجهم من مصـر، وذلك بمقارنتها الفـونطيقية بـ (مـتو شالح) و(شالح) الذى يشتبه فى أنه صيغة شيلك Sholek[٤]. وهو يجعل الكاسيين فرعا من الهكسوس.

ويؤكد بناء على ذلك أن العـرب قدموا إلى الجزيرة من خارجـها ونزلوا على السكان الأصليين فيها من الهكسوس ومن كان معهم فى القرن الخامس عشر ق. م يقول : «ولا شك أن العرب حين نزلوا شـبه الجزيرة إنما نزلوا على سكان أصليين كانوا فيها، كان منهم العمـاليق الذين نعرف من قصة الخروج فى التوراة أنهم كانوا مسـتقريـن من الحجاز إلى جنوب فلـسطين من قبل خروج بنـى إسرائيل، وهؤلاء استطعنا تحديدهم بجحافل الهكسوس المطرودين مـن مصر فى القرن الخامس عشر ق.م[٥].

---

(١) مقدمة فى فقه اللغة العربية، ص ٢٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٥.

(٣) المصدر السابق، ص ١٨.

(٤) المصدر السابق، ص ١٩.

(٥) المصدر السابق، ص ٤٠.

ويمضى فى ذلك فيدعى أن المرحلة الهكسوسية أو مرحلة الملوك الرعاة تمثل فترتهم الجاهلية الأولى التى يحدثنا عنها التاريخ العربى والأساطير العربية.

وبنى على هذا أن سكان جزيرة العرب خليط من الهكسوس والسكان الأصليين والآسيين ومتخلفات من الجيوش المصرية التى كان الفراعنة فى مصر يرسلونهم لتعقب الأماليك فى الحجاز[1].

ويبدو أن الدكتور لويس تجاهل حقائق تاريخية ولغوية كثيرة أدت إلى هذه التصورات التى ادعاها.

فالحقائق التاريخية تؤكد أن قبائل انحدرت من أواسط آسيا ونزلت فى مناطق سوريا وفلسطين، وبعد أن استقروا فيها بعض الوقت واندمجوا بأهلها اتخذ هذا الخليط من الناس طريقه غربا إلى مصر باسم الهكسوس سنة ١٧٣٠ ق.م كما ذكر الدكتور أحمد فخرى[2].

ويفهم من هذا الخليط أنه كان يضم عناصر سامية، فالثابت أن الكنعانيين نزلوا هذه المناطق حوالى القرن السادس والعشرين ق.م، واستقروا بها قبل القبائل التى انحدرت إليها من وسط آسيا بأزمان متطاولة ثم تكون منهم الخليط الذى غزا مصر باسم الهكسوس.

وبناء على هذا القول يكون الهكسوس ساميين وغير ساميين.

وفضلا عن ذلك فكثير من الباحثين يؤكدون أن الهكسوس كانوا ساميين خلصاء، فالأستاذ جيمس هنرى برسند[3] ينقل عن المؤرخ المصرى مانيتو أنه فى أواخر أيام الأسرة الثالثة عشرة بعد ضعف مصر سنة ١٦٧٥ ق.م غزا مصر قوم ساميون من آسيا[4]، وقصد مانيتو بالهكسوس الفينيقيين، ويستنتج من

---

(١) المصدر السابق، ص ٤١. جعل الدكتور لويس الهكسوس هم الأماليك الذين تذكرهم التوراة، والواقع غير ذلك. انظر ص ٣٢ من هذا الكتاب

(٢) تاريخ الشرق القديم، ص ٩٠، ٩١.

(٣) كان أستاذا لعلم الآثار المصرية وتاريخ الشرق بجامعة شيكاغو ومديرا لدار التحف الشرقية بمدينة هاسكل والعضو المراسل للمجمع العلمى ببرلين.

(٤) من كتاب : تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسى. تأليف جيمس هنرى برسند، ترجمة الدكتور حسن كمال. الطبعة الأولى ١٣٤٧هـ - ١٩٢٩م ص ١٢٩.

روايات مانيتو عن أخبار سوريا وفلسطين أن إمبراطورية الهكسوس سامية الأصل[1].

ويبدو بعد كل ذلك أن إصرار الدكتور لويس على جعل الهكسوس من القبائل الهندية الأوربية ينبو عن التحقيق التاريخي، ويجانب الحقيقة الموضوعية التي تجعلهم ـ على أقل تقدير ـ خليطا من الساميين وغيرهم.

أما تصور الدكتور لويس بأنهم ـ بعد طردهم من مصر ـ نزلوا الحجاز وأسسوا فيها المدن فهذا قول يخالف الحقائق التاريخية الواردة في شأن الهكسوس أيضا.

فيقرر المؤرخون : أن الهكسوس بعد طردهم من مصر مكثوا في فلسطين ست سنوات ثم تقهقروا شمالا إلى سوريا بعد هزيمتهم في الموقعة المشهورة في مدينة شاروهين إحدى المدن جنوبي فلسطين[2] بعد حصار دام ثلاث سنوات[3].

وعلى هذا فإن حياتهم لم تمتد إلى داخل شبه الجزيرة في الحجاز بل كانت في سوريا وفلسطين ولبنان، وقد كانت نواة إمبراطوريتهم هناك عند نهر الأورونط (العاصي)[4].

والتأثر والتأثير اللغوي والاجتماعي بينهم وبين المصريين حدث خلال فترة وجودهم بينهم فيقال : إن الهكسوس نشروا لغتهم السامية بين المصريين[5]،كما تأثروا هم أيضا بلغة المصريين وتقربوا إلى معبوداتهم كنفاق سياسي[6].

وهذا التحقيق التاريخي ينفي أن يكون للهكسوس وجود في منطقة الحجاز، فادعاء الدكتور لويس أن مرحلتهم الهكسوسية هي فترة الجاهلية الأولى للعرب

---

(١) المصدر السابق، ص ١٤٢.

(٢) من الآثار التي بقيت للهكسوس في مصر رواية عن قصة لأحد القواد المصريين الذين طردوا الهكسوس تدل على أنهم اقتفوا أثرهم في مطاردتهم جنوبي فلسطين حتى بلاد فينيقيا أو سلسريا، انظر : تاريخ مصر من أقدم العصور، ص ١٣٩، ١٤٠.

(٣) تاريخ مصر من أقدم العصور، ص ١٤٢، ود. أحمد فخري في بحثه السابق ص ٩٢، وتاريخ الحضارة المصرية. العصر الفرعوني، ألفه نخبة من العلماء، المجلد الأول من بحث بعنوان (لمحة في تاريخ مصر السياسي والحضاري) للدكتور محمد جمال الدين مختار، ص ١٠٢، وبحث بعنوان (النظم الاجتماعية) للدكتور عبد المنعم أبو بكر، ص ١٢٢.

(٤) تاريخ مصر من أقدم العصور، ص ١٤٢.

(٥) المصدر السابق ص ١٣٩.

(٦) من بحث الدكتور محمد جمال الدين في تاريخ الحضارة المصرية، ص ١٠٢.

ادعاء غير صحيح[1] كما أن هذا التحقيق ينفى ـ أيضا ـ أن يكونوا هم الأماليك الذين عرفوا باسم العماليق حيث لم ينزل الهكسوس مناطق الحجاز ولم يؤسسوا به أية مدينة، وقد اعتمد الدكتور لويس فى ذلك على بعض الروايات التى لا يوثق بها[2].

وعلى العكس من ذلك فإن الهجرات كانت تتم من جنوب الجزيرة إلى شمالها نتيجة التجارة وهدم سد مأرب، ومن المهاجرين عرب الغساسنة ـ فى حوران بسوريا ـ والمناذرة (بنو لخم) : فى الحيرة بالعراق[3] وقد أكدت ذلك النقوش الكثيرة[4].

وهناك هجرات تمت من بلاد الحجاز إلى الشمال نزحت فيها قبائل الإسماعيليين (نسل إسماعيل عليه السلام) ومنهم بنو قيدار وبنو ثابت، أما بنو قيدار فقد انتقلوا من الحجاز إلى يثرب ومنها إلى مدائن صالح حيث تركوا بعض النقوش التى وُفِّق العلماء حديثا إلى كشفها وحل رموزها، ومن مدائن صالح تابعوا هجرتهم شمالا إلى خليج العقبة، ومنه إلى وادى موسى حيث ألقوا عصا الترحال، وأما بنو ثابت (المعروفون بالنبط أو النبطيين) فقد نزحوا مع

---

(١) قيل : إن هكسوس معناها : (ملوك الرعاة)؛ لأن الجزء الأول (هيك) معناه بالقلم البربائى (ملك) و(سوس) لفظ فى اللغة الدارجة معناه (الراعى)، بيد أن روايات أخرى تفسرها بأنها (حكام الأراضى)، ويذكر الدكتور أحمد عبد الحميد يوسف أستاذ الآثار المصرية أن القول بأن الهكسوس كانوا من (قبائل الرعاة) ليس ثابتا، ولم يثبت يقينا ما نقل عن موطنهم الأصلى، وما كانت صفتهم هذه إلا خطأ مرفوضا شاع عن تفسير خاطئ خرج به مؤرخ اليهود جوزيفرس فلاقيوس منذ أكثر من ألف وثمانمائة عام، ذلك أن اسمهم في واقع الأمر إنما يرتد إلى كلمتين مصريتين هما : (حقا) و(خاسوت) بمعنى (حكام البلاد الأجنبية). الأهرام فى ٢٦ من مايو سنة ١٩٩٦ من مقال بعنوان (حقائق تاريخية يجب توضيحها، وهذا يؤكد بطلان القول بأن مرحلتهم تمثل الجاهلية الأولي للعرب.

(٢) سيديو : خلاصة تاريخ العرب، ص ٢١ والعمالقة بنو عمليق بن ولاذ بن سام المضروب بهم المثل فى الطول والجثمان.

(٣) د. أحمد فخرى ص ١٧٩، ١٨٠ ، وكان ذلك فى القرنين الخامس والسادس الميلاديين. انظر : موسكاتى ص ٢٠٤، وبحث الدكتور خالد طه الدسوقى فى مجلة كلية اللغة العربية. العدد السادس ص ٢٥٥.

(٤) وصل عدد النقوش اليمنية الآن أكثر من خمسة آلاف نقش فيها معلومات كثيرة عن مسالك الجزيرة العربية فى الجنوب، كما وصلت إلى أيدى العلماء عشرات الألاف من المخربشات القصيرة على واجهات الصخور فى شمال بلاد العرب بين ثمودية ولحيانية وغيرها جعلتنا نعرف الكثير عن عرب الشمال. انظر د. أحمد فخرى ص ١٥٩.

بنى قيدار من الحجاز إلى الشمال واستقروا فى منطقة خليج العقبة وتركوا آثارا كبيرة، وفيهم ظهر الخط المعروف بالخط النبطى الذى اشتق منه الخط العربى[١].

وقد اختلف علماء الساميات فى تحديد تواريخ هؤلاء الثموديين واللحيانيين وغيرهم ممن كانوا يستوطنون الشمال مثل الصفويين (أهم مراكزهم فى حوران جنوبى سوريا) ورأى بعضهم أنهم عاشوا وازدهرت ثقافتهم قبل ظهور المسيحية بقرون، كما رأى البعض الآخر أنهم لم يظهروا إلا فى القرن الأول المسيحى، ورأى فريق ثالث أنه لم تكن لهم ثقافة إلا قبل الإسلام بقليل، ولم يتفقوا إلا فى أمر واحد وهو أنهم كانوا وثنيين وعاشوا قبل ظهور الإسلام وأن لغتهم تنتمى إلى مجموعة اللغات السامية الشمالية[٢].

ويذكر القرآن الكريم أن ثمود كانت بعد عاد **﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا﴾**[٣]، ومما يذكر المؤرخون أن عادا بادت بعد وجود سيدنا إبراهيم وبناء البيت بمكة وإبراهيم ولد ـ على ما تذكر بعض الروايات ـ عام ١٨٥٤ ق.م وتوفى عام ١٧١٧ ق.م، ويمكن القول بأن قوم ثمود ظهروا وعاشوا وبادوا فى الفترة ما بين عام ١٨٢٤ ق.م إلى ما قبل عام ١٢١٦ ق.م، ومنهم اللحيانيون الذين انفصلوا عن الأمة الثمودية حوالى منتصف القرن الخامس ق. م، وكان الثموديون يسكنون أول الأمر فى الأحقاف بين اليمن وعمان، ثم اتخذوا الحجر[٤] موطنا لهم، واتجه بعضهم إلى اليمن مرة أخرى ووجدت لهم أمة استمرت حتى بعد الميلاد، وكان لهم وجود فى أماكن كثيرة من الجزيرة وربما بقيت أمتهم إلى ما بعد الإسلام، وقد دلت على ذلك الآثار والنقوش[٥].

---

(١) د. وافى : فقه اللغة، ص ٨.

(٢) د. أحمد فخرى : ص ١٦١.

(٣) سورة الأعراف : الآية ٧٤.

(٤) شمال غرب الجزيرة.

(٥) انظر بحث (قوم ثمود بين روايات المؤرخين ومحتويات النقوش) للدكتور خالد طه الدسوقى بمجلة كلية اللغة العربية بالرياض، العدد السابق ص ٢٥١ ـ ٢٩٦.

ويدل على قدم ثمود فى الوجود وأنها تمتد إلى أعماق سحيقة فى التاريخ قوله تعالى : ﴿وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعا فإن الله لغنى حميد * ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات﴾[١].

وإن قوم عاد وثمود قبائل عربية قديمة أثبتت النقوش التى عثر عليها أن لغتها قريبة الشبه من لغة العرب الباقية[٢].

والجوانب الفونطيقية التى اعتمد عليها الدكتور لويس للربط بين ثمود، و(خمودى) أحد ملوك الهكسوس لا تتفق مع قوانين علم اللغة الحديث من الصلة الصوتية بين الأصوات والحروف إذ يجب أن يتم التبادل على أساس من التقارب الصوتى فى المخارج والصفات[٣].

والصلة بين (خمودى) و (ثمود) بعيدة، فالخاء لا تتفق مع الثاء مخرجا بل هما متباعدان تماما مما لا يمكن معه تصور التبادل بينهما.

هذا مع ما يلحظ من الفروق الدقيقة بين الأصوات فى اللغات السامية مما يثبته علم التشكيل الصوتى، فالصوت الواحد، أو ما يسمى فى عرف الأوربيين بالفونيم فى موقعه من الكلمات يختلف عن صاحبه اختلافا بينا من حيث المعنى المراد، ولو كان القرب الشبهى واضحا بينهما، وتأمل معى هذه الكلمات المشتركة فى حرفين والمختلفة فى حرف واحد : (نام . عام . صام) ـ (بلى . بنى . برى)، فالمعانى مختلفة باختلاف الوحدة الصوتية أولا أو وسطا كما ترى، ومع أنها متقاربة فى المجموعة الأخيرة من الأصوات.

والعلاقة بين (ثمود) و (خمود) بعيدة من حيث المعنى فى اللغة العربية[٤].

---

(١) سورة إبراهيم : الآيتان ٨، ٩.

(٢) د. وافى : فقه اللغة ص ٩٤ ـ ١٠٣.

(٣) انظر بحثا لنا عن (تفسير بعض مشكلات العربية الفصحى) بمجلة كلية اللغة العربية بالرياض العدد السابق ص ١٢١.

(٤) فالثمد: الماء القليل الذى ليس له مدد، وثمد الماء : قلّ، وله معان أخرى تدور حول ذلك حقيقة أو مجازا ـ وخمدت النار : سكن لهبها ولم يطفأ، ولها معان أخرى تتعلق بذلك أيضا. انظر ـ على سبيل المثال : المعجم الوسيط ١ / ١٠٠، ٢٥٤.

وقد اعترف الدكتور لويس نفسه بأن العلاقة الفونطيقية لا تؤدى دائما إلى نتائج متحققة معينة[1].

أما أن العرب جاءوا إلى الجزيرة العربية من خارجها فهذا ما أثبتنا خلافه من قبل.

أما القول بأن الموجة العربية تعد حديثة نسبيا فهو أمر يخالف الواقع وهو أن العرب لم يغادروا الجزيرة، وهم الطائفة السامية التى بقيت ممثلة للشعب السامى الأول، بل إن الأستاذ فيليب حتى يرى أن هذه الهجرات التى أطلق عليها الأوربيون اسم السامية ليست فى الواقع إلا هجرات عربية قديمة خرجت من شبه جزيرة العرب تحمل شعوبا وثقافات متجانسة كلها عربية بعضها عربى قديم وبعضها عربى أحدث وهكذا، وهذا يتفق مع تقسيم العرب إلى عرب بائدة وعرب باقية، وليست اللغات البابلية أو الأشورية أو الكنعانية أو الآرامية أو العبرية إلا أشكالا متطورة من اللغة العربية القديمة، وليست العربية الحديثة إلا الشكل المتطور الحديث لهذه اللغات العربية الأقدم، واستمرت فى التطور حينا بعد آخر حتى استوت فى العربية الحديثة لغة القرآن الكريم[2].

وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدل على أن اللغة العربية تعد أقدم اللغات السامية، وأنها كانت ـ ولا تزال ـ تمثل اللغة الأصلية للساميين.

ويذكر بعض الباحثين أن الهجرات العربية ظلت تتدفق على مصر منذ عصور ما قبل التاريخ وطوال العصور التاريخية حتى الفتح الإسلامى فى القرن السابع الميلادى بدرجة كبيرة أو صغيرة طبقا للظروف السياسية والاقتصادية.

وبلاد العرب كانت تقذف بالموجة تلو الأخرى إلى وادى النيل عبر البحر الأحمر وعن طريق سيناء والتى كانت منذ القدم قنطرة مفتوحة للهجرات، ومن هذه الهجرات :

---

(١) د. لويس : مقدمة ص ١٩، وتنسب ثمود إلى ثمود بن جاثر بن إرم بن سام بن نوح. انظر : جواد على: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ١/ ٣٢٤، وفى تاج العروس ٢/ ٣١٢ واللسان ٣/ ١٠٥ ثمود ـ كصبور ـ بن عامر بن إرم بن سام قبيلة من العرب الأول، ويقال : إنهم من بقية عاد وقيل غير ذلك، وانظر البداية والنهاية لابن كثير ١/ ١٣٠ وما بعدها.

(٢) فيليب حتى : تاريخ العرب المطول ترجمة حتى وآخرين. بيروت ١٩٥٢، وانظر د. غلاب ص ٤٩٥.

١ ـ هجرة قبائل كهلانية من عرب الجنوب استقرت فى الجزء الشمالى الشرقى من مصر فى مطلع المسيحية.

٢ ـ هجرة قبائل من طىء ـ فرع كهلانى آخر من المجموعة الجنوبية ـ كان من أهمها قبيلتا لخم وجذام اللتان استقرتا فى محافظة الشرقية.

٣ ـ قبيلة (بلى) التى استقرت فيما بين قنا والقصير، وكان عليها الاعتماد فى نقل التجارة الهندية.

٤ ـ النقوش تثبت لنا وجود تجار تدمريين مستقرين فى مدينة قفط فى صعيد مصر منذ القرن الثانى الميلادى.

٥ ـ هجرة بطون من خزاعة ـ وهم فرع من الأزد ـ خرجوا فى الجاهلية إلى مصر والشام بسبب قحط أصاب بلادهم، هذا فضلا عن الجماعات التى استقرت فى شرق الدلتا قبل الإسلام[١].

وقد حاول الدكتور لويس أن يعتمد على أفكاره التى نقضناها ليثبت أن اللغات السامية من فروع اللغات الهندية الأوربية وعليه فاللغة العربية تتحد فى أصولها مع الهندية الأوربية إذ هى فرع من الساميات.

فقد حاول أن يجعل سكان العراق الأصليين ـ وهم من الجنس السومرى ـ ينتمون إلى الجنس الهندوأوربى يقول: «وقد دلت الأبحاث التاريخية والأثرية على أن حضارة سومر فى جنوب العراق ـ وهى أقدم حضارة معروفة فى بلاد ما بين النهرين ـ كانت حضارة هندية أوربية، فبتحليل نقوشها وجد العلماء أن اللغة السومرية لغة ميدية سيكيذية، وهذا يشير إلى موجات هجرة بشرية خرجت فى أوائل الألف الثالثة ق.م من مراعى ميديا فى شمال إيران المتاخمة لبحر قزوين، ومن مراعى سكيذيا فى القوقاز، ومن مراعى سيميريا حول البحر الأسود، واستقرت هذه الموجات فى بلاد ما بين النهرين، وأعطتها لغتها الهندية الأوربية، وربما أعطتها اسم (سومر) أو (ثومر) من اسم سيميريا القديم، وانتشر هذا العنصر

---

(١) انظر د. بيومى مهران ص ٣٣٤.

حتى شمل آسيا الصغرى وشمال آشور وشرقها وبين عامة السكان من القوقاز حتى علام شرق الخليج الفارسى»[1].

مع أنه يناقض نفسه فينقل ما ذكر كونتنو عن جهل أصل هؤلاء الأقوام، فهو يصنفهم أنثروبولوجيا بأنهم لا هندوأوربيون ولا ساميون[2]، ويقطع الدكتور وافى بجهل أصولهم[3]. ويذكر الدكتور هندريك فان لون أن السومريين اندمجوا اندماجا تاما فى الأجناس الأخرى التى نفذت فيما بعد إلى الوادى الخصيب، وسرعان ما تغلب عليهم الأكاديون، ثم خضع الأكاديون بعد ذلك بألف عام لحكم العموريين الساميين[4]، وأنت رأيت أن المؤرخ هندريك وغيره لا يقولون بانتشار هذا الجنس فى غير الوادى الخصيب، ويفهم من كلامهم أن الجنس الذى انتشر هم البابليون والآشوريون والكنعانيون الذين كانت المنطقة تموج بهم وحلت لغتهم محل لغة السومريين الأصليين وإن تأثرت بها.

والدكتور لويس يرى أن الموجات التى نزلت من القوقاز إلى العراق كانت تتكلم بفروع الهندية الأوربية فيقول: «إن الثابت أن القبائل الآسية المنحدرة إلى الهلال الخصيب[5] من القوقاز وما حول بحر قزوين والبحر الأسود ومن منطقة الأناضول ومن هضبة إيران أيا كان منبعها وأيا كان تكوينها الأنثروبولوجى كانت تتكلم لغة ميدية سكيذية وهى أحد فروع المجموعة الهندية الأوربية ربما تكون مجموعات منها قد نزلت شبه الجزيرة،كما نزلت موجات منها فى الهلال الخصيب»[6].

ويؤكد أن يكون الساميون ـ على أى حال ـ قد تكلموا باللغات الهندية الأوربية ولو مع افتراض المستحيل فى رأيه وهو أن الساميين نبعوا من شبه الجزيرة

---

(١) مقدمة فى فقه اللغة العربية ص ٣١ ـ ٣٣.

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة.

(٣) فقه اللغة ص ٢١ يقول: الشعب السومرى شعب مجهول الأصل ومن المقطوع به أنه غير سامى ولا آرى.

(٤) قصة الجنس البشرى ص ٢١.

(٥) يقصد الكاسيين من ١٥٣٠ ق.م ـ ثم موجة الميتانى وهم الحريون ١٨٠٠ ق.م ـ ١٣٠٠ ق.م ثم الفرس ٥٣٠ ق.م إلى ٣٣٠ ق.م ثم اليونان فى عهد الإسكندر ثم الفرس فى عهد الساسانيين ثم الساميين البابليين والآشوريين.

(٦) مقدمة فى فقه اللغة العربية، ص ٣٣.

يقول : «فإن كانت الأنثروبولوجيا البشرية تصر على وجود جنس مستقل بذاته فى الهلال الخصيب وفى شبه الجزيرة نبع من شبه الجزيرة أو وفد عليها من الخارج من مصدر غير هندى أوربى فلا مناص من افتراض أن هؤلاء الساميين قبلوا اللغات الهندية الأوربية سواء من الأساس السومرى أو من القبائل القوقازية والهندية الأوربية المتعاقبة التى انحدرت إليهم من الكاسيين والميتانى والفرس[1].

وهذا تعصب لايستند إلى دليل أى دليل فهو لا يرضى إلا أن يتكلم الساميون الهندية الأوربية رضوا أو كرهوا ثبت فى رأيه أو لم يثبت وصح ظنه أو لم يصح.

وليس هذا فى الحقيقة طريق البحث العلمى المنصف الذى يريد إبراز الأمور بجدية وموضوعية، فالمسألة ليست إثباتا أو نفيا بقدر ما تعتمد على مصادر البحث والتوثيق وليس معه من ذلك شىء.

ولا ينسى الدكتور لويس أن يشير إلى آثار اليونانية والرومانية والإيرانية فى اللغة العربية، فاليونان منذ عهد الإسكندر الأكبر - والرومان - منذ أولوس جلوس - وبيزنطة عبر قرون قد تركوا فى عرب شبه الجزيرة العربية آثارا حضارية ولغوية هندية أوربية سواء مباشرة أو عن طريق التواصل الحضارى مع أهل الشام عبر ٩٠٠ سنة من ٣٣٠ ق.م وهو بدء فتوحات الإسكندر إلى ٦٢٢م وهو تاريخ الهجرة النبوية[2].

غير أنه يقول: إن تأثيرات الفرس واليونان والرومان وبيزنطة فى اللغة العربية مهما تكن قوية وعميقة فهى تأثيرات حضارية وليست تأثيرات حيوية بيولوجية[3].

ومع هذا التحامل والتعصب فإننا سنناقشه بهدوء وموضوعية آملين أن يجد فيما نقول ما يوضح الحقيقة للباحث والقارئ على سواء.

---

(١) المصدر السابق ص ٣٣، ٣٤.

(٢) المصدر السابق ص ٤١، وانظر أيضا ص ٤٢.

(٣)المصدر السابق ص ٤٢.

فنحن لا ننكر تأثر اللغات السامية ببعض اللغات التى عاصرتها سواء من المجموعة الهندية الأوربية أو الحامية.

فالتشابه قائم بين اللغات السامية وبعض اللغات الحامية كالبربرية والكوشية، مع أن مسافة الخلف بينهما كبيرة وربما لم يتعد التشابه بعض المفردات والقواعد وربما كان ذلك ناشئا عن تأثر بعضها ببعض، وكان بين العبرية والبربرية بعض صلات القربى والتلاقى على سبيل التأثر والتأثير[1] ومع ذلك لا يمكن القطع برأى فيه.

وإذا كان حدث تأثر بين المصرية وبعض اللغات السامية فإن رسائل (تل العمارنة) تفيد أن المؤثر هو اللغات السامية لا العكس.

يقول الدكتور وافى عن البابلية والآشورية: (ولم يقتصر استخدام هذه اللغات على مملكتى بابل وآشور بل امتد نفوذها إلى العصور الذهبية لهاتين المملكتين إلى كثير من الممالك المجاورة لها، فقد عثر فى تل العمارنة ـ عاصمة مصر فى عهد إخناتون ـ على رسائل مدونة باللغة الأكادية يرجع تاريخها إلى أواخر القرن الخامس عشر والنصف الأول من القرن الرابع عشر ق.م (١٤١١ ـ ١٣٥٨ ق.م).

وتشتمل هذه الرسائل على مخابرات دارت بين ملوك مصر فى ذلك العهد (أمنوفيس الثالث وأمنوفيس الرابع وإخناتون) أو بعض الأمراء الشرقيين و خاصة الأمراء الكنعانيون وبعض هذه الرسائل متبادلة بين ملوك مصر وأمراء بابل وآشور، وأكثر هذه الرسائل مبعوث منه إلى مصر وأقلها مبعوث به من مصر[2].

واللغة المصرية القديمة ـ وإن كانت حامية تصنيفا ـ فإن جمهرة من العلماء يرجعونها إلى عائلة اللغات السامية ومنهم :

F. Hommela Frmam A Fmber - A. Kwmal T. W. Thaker. T. Benfey, A. Selne, F. Petrie, H. Brugsch. 7. Pemorgan.

---

(١) د. وافى : فقه اللغة ص ١٩، ٢٠.

(٢) انظر د. وافى : ص ٢٣، ٢٤ وعدد هذه الوثائق أربعمائة وثيقة يوجد من أصولها المنقوشة بالخط المسمارى على لوحات من الصلصال ١٩٤ وثيقة فى متحف برلين و ٨٢ فى المتحف البريطانى و ٥٠ فى متحف القاهرة، وبقية الوثائق مبعثرة فى متاحف خاصة وعامة فى حواضر مختلفة، ومن بينها وثيقتان فى نيويورك. وانظر د. أحمد فخرى ص ١٢٠ وما بعدها.

ويستدلـون على ذلك بأن اللغة المصرية القديمـة اشتركت مع السامـيات فى خصائص عدة كان مـن أوضحها وجود حرف العين بين حروفـها، وشيوع المصدر الثلاثى بين أفعالها، وغلبة الفعل المعتل الآخر فـيها، وكتابة الحروف الساكنة وشبه اللينة فى كلماتها دون حـروف الحركة، واستخـدام حرف الميم ضمن أدوات النفى فيها وفى بقية اللغات السامية، وإضافة تاء التأنيث فى نهاية بعض أسمائها وصفاتها المؤنثة، وتشابه ضمير المتكلم المطلق فيـها مع مثله فى اللغة العربية، هذا بالإضافة إلى استخدام مـا تستخدمه اللغة العـربية الآن من الإضافة المباشرة وغـير المباشرة، وإلحاق الصـفة بالموصوف واستـخدام تمييز الـبعض من الكل، واستخـدام الجملة الفعلية إلى جـانب الجملة الإسميـة، وتأكيد الجملة الإسمـية أحيانا ببـدئها بحرف (إن)، وإضـافة تاء المخـاطب للمـذكر والمؤنث المفـردين فى إحـدى صيغ الفـعل الماضى، وإضافة ميم المكان ومـيم الأداة إلى بعض أسمائها وأفعالهـا لتأليف أسماء مركبة تجرى مجرى الأسماء العادية على غرار المتبع فى اللغة العربية.

ونضيف إلى ذلك أنها كانت تشتمل عـلى نسبة هامة من المفردات والكلمات السامية، وقد أثبت البعض اشتراك أكـثر من عشرات الكلمات بين المصرية القديمة والعـربية مـثل كلمة حـسب ـ خب ـ ختم ـ حـر ـ شد ـ تم ـ تمم ـ نحـر ـ نعى ـ بألفاظهـا العربيـة العادية، كمـا عبروا عن الماء بلفظ (مـو) وهو نفس اللفظ الذى استعـمله الأكاديون واليمنيون القدامى،ومن أقوالـهم (هرية منية) أى يوم المنية كل ذلك وغيره يدلّ على الصلة بين المصرية والسامية.

ويشهـد المؤرخون بأن التـأثير الغـالب للسامـية لا للمـصرية[1] تبعا للـتأثير الحضارى الذى نقلـه الساميون إلى مصـر، فكثير من صور الآلهـة التى عبدت فى مصر لها شبه بما كان فى جزيرة العرب، كاسم الإله (حور) إذ هو غريب على اللغة المصرية ولكنه موجـود فى اللغات السامية، وبعبارة أدق فى اللغـة العربية، حـيث تطـلق العـرب اسـم (حـر) على الصقر المعـروف باسم Faueon Pelerin وما زالت

(١) اقرا فى هذا الصدد بحث الدكتـور مهران فى مجلة كلية اللغة العربيـة بالرياض العدد السابق ص ٣٢١ وما بعدها، وانظر على الخصوص صفحات : ٣٠٥، ٣٠٦، ٣١٢، ٣٢١، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٣٤.

كلمة (حـر) مستعملة إلى الآن فى كثير من بلاد العرب وشمال إفريقيا لهذا الطير[1].

وكذلك عثر على قطعة برونزية من الآثار السبئية محفوظة فى متحف ڤيينا نشرها جرومان تمثل الإله (بس) جالسا بين تيسين وفوق رأسه طائر باسط جناحيه، وهذا الإله نسبه المصريون القدامى إلى بونت وإلى أرض الإله التى هى أصلا اسم لبلاد العرب الجنوبية[2].

وقد ذكر الدكتور مهران أدلة كثيرة على أن الساميين وخاصة العرب كان لهم تأثير كبير على الجانب الإفريقى عن طريق الهجرات اليمنية إلى شرق إفريقية وأن نقوشا وآثارا كثيرة تفيد ذلك[3].

والآرامية امتد نفوذها إلى مصر (فكان للآرامية نفسها فى مصر منزلة لا تقل عن منزلتها فى البلاد الأخرى[4] بل امتد نفوذها فى مصر إلى ما بعد العهد الفارسى بزمن طويل، كما تدل على ذلك الوثائق التى عثر عليها بجزيرة فيلة (أنس الوجود)[5] وتشمل رسائل وعقودا مدونة بالآرامية على البردى والخزف، ويرجع تاريخها إلى القرنين السادس والخامس ق.م [6].

وكان ولا شك تأثير وتأثر بين البابلية والآشورية (الأكدية) ولغة السومريين سكان العراق الأصليين عند هجرتهم إليها والتاريخ يفيد بتغلب الأكدية على لغة السكان الأصليين.

ولا ريب أن احتكاكا آخر حدث بين فرع الآرامية ـ وهى السريانية وبين البونية، وكذلك بين الفينيقية واللاتينية، واللهجة البونية ـ لهجة قرطاجنة ـ كان لها احتكاك باللاتينية على سبيل التأثر والتأثير.

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٠٠.

(٢) المصدر السابق ص ٣٠٦، ٣٠٧.

(٣) المصدر السابق ص ٣٩١ وما بعدها.

(٤) كآسيا الصغرى وفى جميع بلاد العراق وسوريا وفلسطين.

(٥) د. وافى : فقه اللغة ص ٥٤.

(٦) المصدر السابق، ص ٢٢.

ونحن نعترف بأن اللغة العربية الجنوبية والشمالية التقت بأخواتها وتأثرت بها مع ما فيها من مظاهر التأثر باللغات الأخرى.

فاللهجات العربية الجنوبية تأثرت بالآرامية[1].

والآرامية التقت مع العربية عند الفتح العربى وصرعتها العربية[2]، وهناك بعض النقوش التى كتبت بالعربية البائدة والسريانية واليونانية.

وهذا كله خلع بعض الآثار على الأدب العربى[2] لكنه لم يزد على ما كتب علماؤنا الأفاضل السابقون من بعض جوانب التأثير، أما أن تعد اللغات السامية بعامة والعربية بخاصة فرعا من اللغات الهندية الأوربية فهذا ما لا يمكن القول به والدعوة العريضة بأن اللغة العربية تتطابق فى أصولها مع الهندية الأوربية لا يسندها دليل علمى، فالثابت أن أوجه الخلاف بين العربية والساميات بصورة عامة وبين اللغات الهندية الأوربية كثيرة وشاسعة تبعا لما أثبته المحدثون من علماء اللغة وعلى رأسهم فريق من مستشرقى الألمان لما بين الفصيلتين من فروق جوهرية فى المادة اللغوية والقواعد والأساليب.

ونحن لا نستبعد أن تكون الفصيلتان انحدرتا من بقعة واحدة قبل انفصال الشعوب فلما حدث ذلك بعدت كل منهما عن الأصل بتوالى العصور واختلاف البيئات حتى صارت كل منهما فصيلة مستقلة قائمة بذاتها.

وقد ذهب القائلون بالتشابه إلى أن بعض الكلمات تتشابه فى الفصيلتين السامية والهندية الأوربية من حيث المبنى والمعنى ولكن البحث العلمى أثبت أن هذه الألفاظ تنحصر فى مجموعتين :

١ ـ ألفاظ حكائية، ولعلها منحدرة من اللغة الإنسانية الأولى ومن ذلك (لق) يقال فى العربية : لقه أى ضرب عينه براحة يده ويقرب من هذا الفعل (لكه)[3]، وفى الإنجليزية والإغريقية واللاتينية والألمانية والفرنسية كلمة تشبه (لق) فى لفظها ومعناها.

---

(١) المصدر السابق ص ٤، ٥، ٦، ٩. وانظر فى علاقة العرب باليونان والرمان د مهران ص ٤١٣ ـ ٤٢٤ والحرب التى دارت والعلاقات التجارية وغيرها، ودخول المسيحية إلى الحبشة وبلاد العرب ص ٤٢٣.

(٢) د. وافى : فقه اللغة ص ٣٧ وما بعدها.

(٣) المعجم الوسيط ٢/ ٨٣٥، ٨٣٧.

٢ ـ فأما المجموعة الثانية فتشمل الألفاظ المستعارة.

ففى العبرية نجد بعض أسماء تدل على أشياء موطنها الأصلى بابل أو آشور أو مصر أو إيران أو الهند.

مثال ذلك الكلمة Karpas تفيد فى العبرية معنى الكرباس أى القطن وهى بالفارسية «كرباس»، وفى السنسكريتية «كرباسا»، وبالإغريقية كرباسس.

هذا، وهناك كلمات تكاد تتحد لفظا ومعنى فى معظم اللغات مثل كلمة المسك Musk والكافور والعنبر وهى أسماء لأشياء من منتجات الهند ونقلت مع مدلولاتها إلى البلاد الأخرى.

وإذا نظرنا إلى اللغات الهندية الأوربية كالإغريقية ـ مثلا ـ نجد فيها كلمات استعارتها من الساميات؛ لأنها أسماء لأشياء موطنها الأصلى آسيا.

ومن ذلك كلمة Boos أى البوص ـ وهو القصب المعروف الذى كانت تصنع منه الأقلام ـ وهو بالإغريقية «بسوس».

و Livounah وهو اللبان الذى يمضغ وهو بالإغريقية «لبانوس».

ومن المحتمل أن يكون الفينيقيون هم الذين نقلوا هذه الألفاظ من جهة إلى أخرى من آسيا إلى أوربا والعكس.

ولاريب أن الاشتراك فى هذه الألفاظ ونحوها ـ وهى بالطبع محدودة ـ لا يدل على الصلة النسبية بين الفصيلتين السامية والهندية الأوربية أو اتحادهما، وإنما الذى يدل على ذلك الاشتراك فى أمور جوهرية كطرائق الاشتقاق والتصريف وأساليب التعبير وما إليها، وفى عدد كبير من المواد اللغوية التى لا ترجع فى نشأتها إلى المحاكاة أو الاستعارة.

ولا يمكن القول كذلك بالعلاقة بين السامية والحامية لوجود فروق جوهرية فى القواعد وأساليب التعبير، ولعل اختلاط الهكسوس الساميين بالحاميين فى مصر أدى إلى نقل بعض الكلمات وكذلك عن طريق التجارة

والمجاورة الجغرافية وذلك لا يكفى للقول باتحاد الفصيلتين أو تشابههما من جميع الوجوه[1].

وهذا يدعونا إلى أن نبين بعض وجوه الخلاف الجوهرية التى تجعل كلا من الفصيلتين السامية والهندية الأوربية قائمة برأسها، فللساميات خصائصها التى تختلف فيها عن نظيرتها الهندية الأوربية وهى كثيرة نذكر منها :

١ ـ تتميز اللغات السامية ـ فى الجانب الصوتى ـ بغنى ملحوظ فى طائفة الحروف الصامتة، ففيها حروف كثيرة مخرجها من الحنجرة والحلقوم واللهاة، وفيها ما نسميه بالحروف المطبقة التى يصحب نطقها قبض للحنجرة ، فهذه الحروف التى تتميز بها اللغات السامية والتى لا نكاد نعرف لها نظيرا فى اللغات الأوربية يمكن أن تدرج كلها تحت صفة عامة هى أن اللغات السامية أكثر من غيرها رجوعا إلى الوراء بما يمكن أن نسميه مركز الجاذبية Centre of gravity فى نظام النطق[2].

ومن المعروف أن حروف الحلق ولا سيما الحاء والعين نجدها بنطقها السليم فى اللغة العربية والعبرية والآرامية والحبشية، ولكنها تضيع فى الأكدية وتحل محلها الهمزة وذلك بتأثير من السومرية التى لم تكن تعرف حروف الحلق.

وحروف التفخيم أو الإطباق هى الطاء والصاد والقاف والظاء والضاد والخاء، وقد أجمع الباحثون فى مقارنة اللغات على أن القاف والطاء والصاد شائعة فى كل اللغات السامية، أما الظاء فالظاهر أنها من مستحدثات العربية الفصحى فى بعض ما كان فى الأصل ضادا، والضاد بلا شك من خصائص العربية الفصحى ولذا شاعت تسمية العربية بلغة الضاد.

وقد استنتج الباحثون فى اللغة السامية الأم ـ وفى مقدمتهم بروكلمان ورايت وبورشتاين وغيرهم ـ أن العربية فى هذا ناطقة بما كان فى نطق السامية الأم من هذ الأصوات، وأن اختفاء بعضها من بعض اللغات السامية الأخوات طارئ عليها[2].

---

(١) انظر فى هذا : أ. حامد عبد القادر : فقه اللغات السامية فى حديثه عن الفصائل اللغوية.

(٢) موسكاتى : ص ٤٤.

(٣) د. حسن ظاظا : الساميون ولغاتهم ص ١٧ ـ ١٩ بتصرف.

٢ ـ تتكون المواد اللغوية فى الساميات غالبا من أصول ثلاثية الأحرف تسمى (الجذور)، ومن الأصل الثلاثى تشتق الكلمات وتتوالد عن طريق الحركات التى تنوع المعنى مثل (ك ت ب) فهى الجذر الثلاثى ومنه تتولد كلمات كثيرة للمعانى المرادة، فإذا حركت جميعها بفتحات فهى فعل ماض مبنى للمعلوم، وبضمة فكسرة فهى فعل مبنى للمجهول وهكذا.

ويمكن أن يكون التوالد والاشتقاق بإضافة مقاطع حروف فى الصدر أو الوسط أو الآخر وهو ما يسمى بحروف الزيادة ففى الصدر كما فى مكتب واستكتب، وفى الوسط مثل : كاتب وكتاب، وفى الآخر مثل كتبه أو هذه مجتمعة بعضها أو كلها كما فى مكاتب وكتابة ومكتوبات ونحو ذلك[١].

والمعاجم الخاصة باللغات السامية لا ترتب على حسب الكلمات المفردة كمعاجم اللغات الأوربية ولكن على حسب الجذور، فالكلمة «مكتب» لا ترد تحت الميم ولكن تحت الجذر «ك ت ب»[٢].

٣ ـ وتصاغ الأفعال فى الساميات بتغيير الجذر تغييرات ثابتة تعبر عن معانى مشتقة من المعنى الأساسى كشدة الفعل أو تكراره أو بنائه للمجهول أو المطاوعة والمشاركة فى الفعل ويعبر بأبسط صيغ الفعل وهى الماضى لا بالمصدر، فيقال «كتب» مثلا فإذا ترجمناه إلى الإنجليزية دللنا عليه بالمصدر فيقال To write وإن كانت هذه الصيغة تعنى فى الواقع He has written[٣].

٤ ـ وللغات السامية نظام فى تصريف الفعل يختلف اختلافا بينا عما فى اللغات الهندية الأوربية،ففى الساميات للفعل زمنان ، زمن انتهى وزمن لم ينته[٤]؛ فالصيغة الأولى تدل على تمام وقوع الحدث وانقضائه وانقطاعه وهى التى تسمى بصيغة الفعل الماضى، والثانية تدل على استمرار الحدث وعدم تمامه وهى التى تسمى المضارع[٥].

---

(١) موسكاتى : ص ٤٤، ٤٥ ود. حسن ظاظا ص ٢٠، ٢١ بتصرف.

(٢) موسكاتى : ص ٤٥.

(٣) المصدر السابق، ص ٤٦.

(٤) يستثنى من ذلك الأكدية فللفعل فيها ثلاثة أزمنة، د. وافى : فقه اللغة ص ١٧.

(٥) د. حسن ظاظا : الساميون ولغاتهم، ص ٢١.

وهذا الزمن يستنتج من السياق فإذا كان الحدث تاما أو تم أو سيتم أو اعتبره المتكلم تاما، أى إذا كان حقيقة تم وقوعها استعملنا الماضى ونظيره فى اللغة الإنجليزية قد يكون الـ pluperfect أو الـ past أو الـ perfect الذى يشير إلى حدث . I had written, I have already written, I wrote yesterday

وقد يكون نظيره الـ perfect أو الـ present الذى يشير إلى حدث فى المستقبل : I will come when I have written this letter, He will find out when I write to him.

وقد يكون نظيره الـ Futur perfect

Shall have written before then.

ويمكن أن ندرك ذلك من تأملنا فى هذه التعبيرات فى العربية : وصلنى خطابك - إذا وصلتك هذه الرسالة فافعل كذا وكذا - أتى أمر الله فلا تستعجلوه[١].

وإذا اعتبر حدثا لم يتم أو حدثا اعتباريا أو حدثا يراد فعله استعمل المضارع ونظيره فى اللغة الإنجليزية قد يكون فعلا دالا على حدث مستمر :

I am - was - will be writing.

أو عبارة دالة على حدث اعتيادى :

I used to write, I write - wrote - will write every week.

أو عبارة دالة على عمل يراد أو كان يراد فعله :

oing to write . I shall write, I was g[٢]

ويمكن أن ندرك ذلك من تأملنا فى هذه التعبيرات العربية :

لم يحضر فلان - وقوله تعالى : **﴿قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها﴾**[٣].

---

(١) النحل : الآية ١.

(٢) موسكاتى : ٤٦، ٤٧.

(٣) البقرة : الآية ١٤٣.

وقول الشاعر :

قـد أشـــهـد الغـارة الـشـعـواء تحـملنى

جـرداء مـعـروقـة اللـحـيـين سـرحـوب

وقول الآخر :

من يفـــعل الخـيـــر لا يعـــدم جـــوازيه

لا يذهـب العــــــرف بين الله والـناس[1]

٥ ـ الجملة فى الساميات نوعان : اسمية وفعلية، ففى الاسمية يوضع المسند إليه فى الصدر وتكون بقـية الجملة مسندا يخبـرنا بشىء عن ذلك المسند إليه وهذا هو ما يعبر عنه بالمبتدأ والخبر ولا توجد رابطة بينهـما من فعل مساعد أو غيره، كما هى الحال فى مجموعـة اللغات الهندية الأوربية، وفعل الكينونة To be يفهم عادة من السياق فيـقال زيد عاقل نظير Zaid is wise ونجد مـثل ذلك فى بعض اللغات الأوربية.

أما الجملة الفعلية فيوضع فى صـدرها الفعل ثم يتبعه الفاعل، وهى الصورة العادية للتعـبير عن حدث أو مـرحلة فى حكاية، مثل قال زيد لأبيه بتـقديم «قال» على «زيد» بخلاف الوضع فى Zaid said to his father بتقديم الفاعل على الفعل فى الإنجليزية[2]، وتقـديم الفـاعل على الفـعل فى العـربيـة لا يكون إلا لغـرض بلاغى، ففرق كبير فى العربية بين أن نقول حضر محمد ومحمد حضر[3].

٦ ـ تتـبع السامـيات طريقـة سهلة فى تكوين الجـمل وربط بعضـها ببـعض بروابط محدودة المعنى كالفاء التى تفيد التـرتيب والتعقيب، وثم التى تفيد الترتيب مع التراخى، والواو التى تستعمل للربط مطلقا دون قيد.

فاللغات السـامية تفضل وضع الجمل بعضـها إزاء بعض على أن تستنتج من السـياق العـلاقة التى تربـط إحـداها بالأخـرى سواء كانت علاقة شرطيـة أو غائية

---

(١) د. حسن ظاظا : الساميون ولغاتهم، ص ٢١، ٢٢، وانظر له : اللسان والإنسان، ص ١٦٤.

(٢) موسكاتى : ٤٧، ود. حسن ظاظا الساميون ولغاتهم، ص ٢٣ بتصرف.

(٣) انظر كتابنا : علم اللغة بين القديم والحديث، ص ٢٢٦.

أو سببية أو ما أشبه ذلك وهى بذلك تستغنى عن بعض أدوات الوصل التى تتصدر الجمل الفرعية ومن ذلك الجملة الحالية فى مثل قوله تعالى : ﴿قال أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين﴾[1] اى مع أنه فضلكم، وذلك يحتاج إلى كثير من وجوه الربط فى اللغات الهندية الأوربية[2].

٧ ـ للساميين طريقتهم الخاصة فى بناء الكلمات، فالعربية والحبشية من اللغات السامية تستخدمان ما يسمى جمع التكسير إلى جانب الجمع السالم، وهذا الجمع يتم عن طريق التغيير الداخلى ويكون هذا عادة بتغيير الحركات مثل جمع كتاب على كتب وهذه ظاهرة فريدة فى بابها، ومن الأمثلة الطريفة أن الكلمة الإنجليزية inch «بوصة» اقتبسها بعض العرب فى صيغتها المفردة فقالوا : إنش ثم جمعوها على أنش ـ بضم الهمزة والنون ـ وهو جمع طبيعى واضح تماما فى نظر العرب فى حين أننا لا نجد ذلك إلا فى كلمات قليلة فى الإنجليزية مثلا، ففى الإنجليزية صيغ فعلية مثل : sing - sang - sung، واسم مثل song وفيه تصاغ الجموع على نحو مماثل كالجمع men للمفرد man إلا أن ذلك قليل فيها[3].

٨ ـ تنقسم الأسماء والصفات فى الساميات من حيث النوع إلى مذكر ومؤنث فقط ولا ثالث لهما وللمؤنث ـ فى كثير من الحالات علامات تلحق آخره.

أما الفصيلة الهندية الأوربية ففيها ثلاث طوائف لكل منها سلوكه اللغوى الخاص مذكر ومؤنث ونوع ثالث يسمى بالمحايد[4].

٩ ـ الإعراب سامى الأصل تشترك فيه اللغة الأكدية وفى بعضه اللغة الحبشية ونجد آثارا منه فى غيرها كما يقول برجستراسر، ففى الأكدية ـ كالعربية ـ

---

(١) سورة الأعراف، الآية ٤٠.

(٢) موسكاتى ٤٧.

(٣) المصدر السابق، ص ٤٥.

(٤) وهذا ـ كما يقول الأستاذ العقاد ـ وضع عقلى مخطئ لأن التقسيم الصحيح فى الجنس المتميز أنه مذكر ومؤنث وليس هناك جنس ثالث يسمى بالمحايد بل هناك أشياء لا جنس لها أصلا يستعار لها الجنس على سبيل المجاز فتلحق بالمذكر أو المؤنث على حسب المناسبة عند وضعها وليس هناك جنس ثالث ولو على الشذوذ كما يعرض للمذكر المشكل أو للأنثى المشكل فإنها فى حقيقة التقسيم ذكر غير متميز أو أنثى غير متميزة ولا ثالث للجنسين يسمى بالجنس المحايد بينهما : انظر مجلة الأزهر : عدد جمادى الآخرة سنة ١٣٨١، وانظر كتابنا : أبنية العربية فى ضوء علم التشكيل الصوتى، ص ٨٩، ٩٠.

تستخدم علامات الإعراب، فالمفرد يرفع بالضمة وينصب بالفتحة ويجر بالكسرة، والمثنى تقع فى آخره ألف ونون فى حالة الرفع، وفى حالتى النصب والجر ينتهى فى البابلية بياء ونون، وفى الآشورية بحركة إمالة متطورة عن الياء المفتوح ما قبلها والنون.

وجمع المذكر السالم يقع فى آخره واو مد (ضمة طويلة) رفعا، أما فى حالتى النصب والجر فتستعمله البابلية بياء مد (كسرة طويلة) وتستعمله الآشورية بحركة إمالة طويلة كالسابقة.

وجمع المؤنث السالم يرفع بالضمة وينصب ويجر بالكسرة كالعربية. وفى الحبشية ينصب المفعول به ونظائره بالفتحة ويحرك المضاف بالفتحة كذلك وهى حالة غريبة لا توجد فى غيرها من اللغات السامية.

وتظهر بقايا الإعراب كذلك فى الأوجاريتية[1]، وفى النبطية والعبرية، أما فى العربية فيكاد يجمع العلماء على أن الإعراب ظاهرة لغوية اتسمت بها من قديم الزمان ومنذ نشأتها[2].

والمعروف أن العربية أقرب الساميات إلى السامية الأم؛ لأنها عاشت فى أمية العرب محفوظة عن التغيير والتبديل[3].

وهذا يؤكد للباحث المنصف أن الساميات فصيلة لها استقلالها وشخصيتها وجوهرها البعيد عن مجموعة اللغات الهندية الأوربية ولا يمكن أن تعدا فصيلة واحدة.

ومن هذا المنطق فإن اللغة العربية لا يمكن أن تعد فرعا من اللغات الهندية الأوربية.

وبهذا يثبت ما قرره علماؤها من أن لها خصائصها واستقلالها وإذا كانت قد انتفعت باتصالها بغيرها من اللغات فهذا فى حدود القليل الذى لا يخل بشخصيتها

---

(١) من الفرع الكنعانى وهى لغة مدينة أوجاريت شمال اللاذقية وتعرف الآن برأس شمرة، وكانت تقوم فيها مظاهر العمران البشرى فى القرن التاسع عشر ق.م وانتهت حياتها فى القرن الثالث عشر ق.م.

(٢) انظر كتابنا : علم اللغة بين القديم والحديث ص ٢٦٦، وما بعدها.

(٣) د. حسن ظاظا : الساميون ولغاتهم ص ٣٥.

على حد ما ذكر الجواليقى فى كتابه (المعرب)،والشهاب الخفاجى فى كتابه (شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل) وأضرابهما من العلماء الذين أشاروا إلى بعض الألفاظ التى نقلت إلى العربية من اللغات الأخرى بل ربما أفادت العربية أكثر مما استفادت، ويكفى أن تعلم أن نحو نصف ألفاظ اللغة الفارسية مستعار من اللغة العربية وأن نصف ألفاظ اللغة التركية مأخوذ إما من الفارسية أو من العربية[1].

ومن هنا يفسد حكم الدكتور لويس بأن كثرة التفاعلات بين العربية وغيرها من اللغات الأجنبية عنها هى التى أنضجت اللغة العربية إنضاجا عظيما وأكسبتها مرونة كافية وخصوبة أفرغتها فى لهجة قريش وأمكنها بذلك وأهلها أن تكون وعاء لوحى عظيم فى عصر الرسول وأداة صالحة للتعبير الفكرى العميق حتى عصر ابن خلدون، مما أهلها أن تقهر بعض ما جاورها من اللغات تماما، كما قهرت اللغة اللاتينية عديدا من لغات أوربا التى فتحها الرومان حتى نهاية العصور الوسطى وظهور القوميات الحديثة فى بداية الرنيسانس (نحو ١٤٠٠م)[2].

فهذا الحكم - فى رأينا - أصبح غير ذى موضوع، وإن ما بنى عليه يعد غير صحيح على الإطلاق بعد ما أوضحنا من صلات بين العربية وسواها من اللغات وأنها فرع السامية ذات الخصائص المستقلة.

ونضيف فى تفنيد هذا الزعم أن القرشية لم تكتسب الزعامة بين لهجات العربية نتيجة لما دخلها من ألفاظ هندية أوربية أو مصرية قديمة، بل إن الثابت تاريخيا ولغويا أن زعامتها كانت نتيجة عوامل كثيرة هيأت لها سبيل الغلب أهمها :

١ - نفوذهم الدينى :

كان القرشيون يحظون بتقدير العرب لهم لأنهم هم الذين يتولون سدانة البيت الحرام والقيام على شئونه، وكانوا يستضيفون الحجاج ويقومون على سقايتهم[3] وتعليمهم مناسكهم[4]، وبعد حادث أبرهة الأشرم توطد مركز قريش

(١) د. إبراهيم أنيس : دلالة الألفاظ، ص ١٥١.

(٢) مقدمة، ص ٤٢.

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية ١/ ١٢٠، ١٢٥، ١٢٦، ١٣١، والطبرى : تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٢٦٠.

(٤) ابن فارس : الصاحبى ١/ ٣٣.

حتى قالت العرب عنهم : (أهل الله قاتل عنهم فكفاهم مئونة عدوهم)[1]، وهذا كله جعل لقريش سلطانا دينيا يعترف به العرب جميعا[2] حتى قيل عنهم : (قريش أئمة الناس وهداتهم وأهل البيت وصريح ولد إسماعيل وقادة العرب)[3].

٢ ـ نفوذهم التجارى :

انطلق القرشيون فى أنحاء الجزيرة وما حولها من الأقطار فى الشام وفارس والعراق ومصر والحبشة وكلهم ثقة واطمئنان لما لهم من مكانة بين العرب أساسها النفوذ الدينى[4].

وكانت أنشطتهم التجارية كبيرة وواسعة، ففى رواية للطبرى أن إحدى قوافلهم التجارية بلغت خمسمائة وألف بعير ومائة رجل، ولا ريب أن هذه القافلة التجارية الكبيرة كانت تحتاج إلى أدلاء لهم معرفة وخبرة بالصحراء وطرق التجارة وحراس يحمونها من السلب والنهب، وكانت قريش تستخدم فى ذلك رجالا من قبائل العرب المختلفة فى الجزيرة ولا سيما البدو[5].

وقد ازدهرت تجارة قريش ولا سيما بعد انهيار سد مأرب سنة ٤٥٠م وطرد قبيلة خزاعة من مكة.

وكانت لهم سفن تنقل التجارة من الحبشة وإفريقية الشرقية عبر البحر الأحمر وكانت تنقل تجارتها وتجارة اليمن إلى أسواق فلسطين،وتنقل تجارة الشام وحوض البحر المتوسط إلى الحجاز ونجد واليمن[6]، وهكذا تجارة الأقطار الأخرى.

ولا ريب أن ذلك كله جعل لقريش مركزا تجاريا أثروا من ورائه ثروات طائلة ووطد صلاتهم بالقبائل العربية المختلفة.

---

(١) السيرة النبوية ١/ ٥٠ وتاريخ الأمم والملوك ٢/ ١٣٩.

(٢) سيديو : تاريخ العرب العام ص ٥١.

(٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى ٢/ ٣٨، ٨٦، والسيرة النبوية ٤/ ١٥٢.

(٤) تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٢٥٢، ٢٧٧ : ٣٢٨، ٣٢٩، ٣/ ٦٣، ٤/ ٥٦ والطبقات الكبرى ١/ ٤٥، ٤٨، والسيرة النبوية ١/ ١٢٥، ٢/ ٦٩، ١٨٢، ٢٨٠، ٢٨٨، وفتوح البلدان للبلاذرى ١/ ٦٧ ومغازى الواقدى ١/ ١٦، ٢٧.

(٥) السيرة ٢/ ١٨٢.

(٦) الطبقات الكبرى ١/ ٤٣ وموسوعة التاريخ الإسلامى د. أحمد شلبى ص ١٢٦.

وقد نزل القرآن الكريم مشيرا إلى رحلاتهم التجارية صيفا وشتاء قائلا : ﴿لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف﴾.

٣ - نفوذهم السياسى :

لا ريب أن القرشيين فى مكة حظوا باستقرار ونظام[١] فى حياتهم الاجتماعية نتيجة لما تمتعوا به من نفوذ دينى واقتصادى واسع، وقد تهيأ لهم طائفة من الزعماء الذين كانوا يتدخلون لفض النزاعات سواء بين بطون القبيلة المتعددة أو بين المتنازعين من غيرهم، وكانت مكة حرما آمنا من ورد إليه لا يظلم ولا يعتدى عليه، إلى جانب ما كان لقريش من علاقات ودية طيبة مع القبائل المختلفة فى داخل الجزيرة وعلى أطرافها فى الطريق إلى الشام أو العراق، ولعل للنفوذ التجارى واستخدام بعض هذه القبائل فى شئون التجارة أثر بين فى تحقيق السيادة القرشية إلى جانب ما تمتعوا به من نفوذ دينى أشرنا إليه من قبل، وكانت لهم أحلاف كثيرة مع القبائل، كل هذا جعل لهم سيادة سياسية بين العرب جميعا حتى قال أبو بكر الصديق عقب وفاة النبى ﷺ والبحث فيمن يخلفه : «لا تدين العرب إلا لهذا الحى من قريش».

٤ - نفوذهم اللغوى :

ونتيجة لكل ما سبق اتسع نفوذ القرشيين اللغوى فنمت لهجتهم وازدهرت وسادت اللهجات الأخرى فأصبحت لغة عامة للعرب جميعا واستعملتها القبائل المختلفة فى نتاجها الأدبى الرفيع، يقول الدكتور إبراهيم أنيس : «فبيئة مكة قد هيئت لها ظروف وفرص بعضها دينى وبعضها اقتصادى واجتماعى مما ساعد على أن تصبح المركز الذى تطلعت إليه القبائل وشدت إليه الرحال قرونا عدة قبل الإسلام وكان أن نشأت بها لغة مشتركة أسست فى كثير من صفاتها على لهجة مكة ولكنها استمدت أيضا الكثير من صفات اللهجات»[٢].

ومما سهل لها سبيل الغلب أن أهلها بعدوا عن التعصب لها ففتحوا أمامها الأبواب لتستفيد من اللهجات الأخرى مما حسن وعذب، وبهذا استطاعت أن تعبر

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٢٦، والسيرة ١/ ١١٥، ١٢٢، والطبقات الكبرى ١/ ٤١، ٤٢، ٨٢، وغيرها.

(٢) د. أنيس : مستقبل اللغة العربية المشتركة ص ٨.

عن كل حاجات الحياة وفنون الكلام وغنيت بكل الوسائل التى جعلتها مرنة تصلح لكل الأغراض[1].

وسواء كانت لغة قريش وحدها هى اللغة الفصحى أو أضيف إليها اللهجات الأخرى لتكون اللغة المشتركة، فقد أصبحت للعرب جميعا قبل نزول القرآن الكريم لغة يحتذونها فى خطبهم وأشعارهم ونزل بها القرآن الكريم فقوى من شأنها ودعم سلطانها.

وقد عدت تلك اللغة أفصح اللهجات وأنضجها لما بعدت عن الأمور التى تخل بالفصاحة، ولنستمع إلى هذا الحوار الذى دار بين معاوية بن أبى سفيان ورجل من السماط حول أفصح الناس، قال معاوية للرجل : أى الناس أفصح؟ قال : قوم ارتفعوا عن رتة العراق وتياسروا عن كشكشة بكر وتيامنوا عن شنشنة تغلب ليس فيهم غمغمة قضاعة ولا طمطمانية حمير. قال معاوية : من هم؟ قال: قومك يا أمير المؤمنين قريش. قال : صدقت، فممن أنت؟ قال : من جرم، قال الأصمعى : وجرم من فصحاء العرب[2].

وقد عدّ ابن خلدون لغة قريش أفصح وأصرح من غيرها من اللهجات لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبنى كنانة وغطفان وبنى أسد وبنى تميم»[3].

ويوضح ذلك أن ابن جنى يجعل مقياس الفصاحة قائما على صحة السليقة والبعد عن الأعاجم وعدم التأثر بهم، ويتبين هذا من الفصل الذى عقده فى خصائصه بعنوان (باب فى ترك الأخذ عن أهل المدر كما أخذ عن أهل الوبر) يقول : «ولو عُلِمَ أن أهل مدينة باقون على فصاحتهم ولم يعترض شىء من الفساد للغتهم لوجب الأخذ عنهم كما يؤخذ عن أهل الوبر، وكذلك أيضا لو فشا فى أهل الوبر ما شاع فى لغة أهل المدر من اضطراب الألسنة وخبالها وانتقاض عادة الفصاحة وانتشارها لوجب رفض لغتها وترك تلقى ما يرد عنها»[4].

---

(١) انظر كتابنا : العربية خصائصها وسماتها، ص ٨٤، ٨٥. وانظر أيضا : د. وافى : فقه اللغة، ص ١٤٠ وما بعدها.

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ٢٠٧/١ وانظر : درة الغواص فى أوهام الخواص، ص ٢٤٩ ـ ٢٥١.

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٥٢٣.

(٤) ابن جنى : الخصائص ١ / ٢٤٢.

وعلى هذا فليست لهجة معينة أفصح من غيرها إلا بمقدار بعدها عن مظاهر الفساد واللحن،وقد تحقق هذا فى اللغة المشتركة التى كانت لسان العرب جميعا ولا مجال للقول بأن العصبية هى التى جعلتها أفصح من غيرها.

وأما تغلب اللغة العربية على لغات الأمم التى دخلت الإسلام فكان لعوامل دينية ولسماحة الإسلام وإرادة المسلمين من هذه الأمم أن يؤدوا فرائضه بلغته وأن يحظوا بالمكانة فى الدول الإسلامية الجديدة، ولعوامل داخلية فى جوهرها الذى جعل الأجانب يعجبون بها وبطرائقها اللغوية، يقول ابن جنى وقد بهرته العربية بسحرها وجمالها : «لو أحست العجم بلطف صناعة العرب فى هذه اللغة وما فيها من الرقة والدقة لاعتذرت من اعترافها بلغتها، فضلا عن التقديم لها والتنويه منها»[1]، ويقول أيضا : «إنا نسأل علماء العربية ممن أصله أعجمى وقد تدرب بلغته قبل استعرابه عن حال اللغتين فلا يجمع بينهما بل لا يكاد يقبل السؤال عن ذلك لبعده فى نفسه وتقدم لطف العربية فى رأيه وحسه»[2].

وهذه شهادة عالم ثقة أدلى بها ليبين الدوافع التى جعلت المسلمين ينصرفون عن لغاتهم الأصلية ويتجهون إلى العربية يتكلمونها ويتحدثون بها وهذا هو الذى مكّن العربية من أن تصرع لغات البلاد المفتوحة وتقضى عليها.

فالحق أحق أن يتبع، وهو أن تفوق اللغة العربية كان لعوامل ذاتية من داخلها لا من خارجها، وحقا ما قال الأستاذ العقاد : إن للأمم فى تنافسها بالمناقب والمزايا ألوان من المفاخرة بلغاتها يضيق بها نطاق البحث ومعظم هذه المفاخر دعوى لا دليل عليها وحجتها الكبرى أنانية قومية تشبه أنانية الفرد فى حبه لنفسه وإيثاره لصفاته بغير حاجة إلى دليل أو مع القناعة بأيسر دليل، ولكن الفصاحة العربية فى دعوى أهلها مفخرة لا تشبه هذه المفاخر فى جملتها؛ لأن دليلها العلمى حاضر لا يتعسر العلم به والتثبت منه على ناطق بلسان من الألسنة، ولا حاجة له فى هذا الدليل إلى غير النطق وحسن الاستماع»[3].

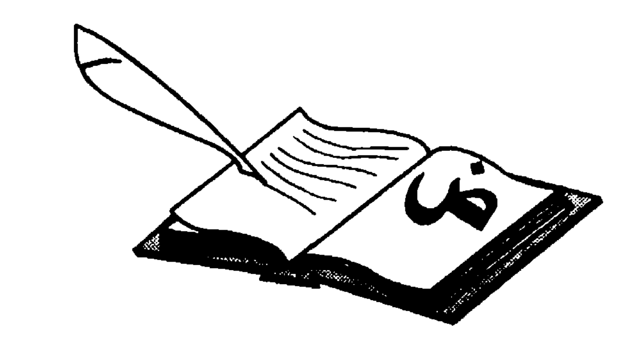
والله الهادى إلى سواء السبيل.

---

(١) المصدر السابق، ٢/ ٥.

(٢) المصدر السابق، ١/ ٢٤٣.

(٣) العقاد : اللغة الشاعرة ص ٥٤، ٥٥.



٢

ض ض ض ض ض ض ض ض ض ض

الباب الثانى

اللغة وإعجاز القرآن

فى الفصل الثانى من كتاب الدكتور لويس وعنوانه «مشكلة اللغة ونظرية اللوجوس»[1] عرض بعض النظريات الغربية وزعم أن لها ارتباطا بالإسلام وتسلل إلى ذلك من خلال قضية إعجاز القرآن وصلته باللغة العربية، واتهم العرب وعلماءهم بالعنصرية، والعصبية.

ولما كانت قضية إعجاز القرآن قضية رئيسية من قضايا البحث الدينى واللغوى على سواء فقد آثرت أن تكون من أولى المباحث التى نعرضها ونبرز المغالطات الكبيرة التى وقع فيها الدكتور عند تعرضه لها ونبرز خفايا توجيهاته الملتوية فيها.

فقد حاول الدكتور لويس أن يفلسف لآراء علماء العرب فى نشأة اللغة وذهب فى هذه الفلسفة مذاهب غريبة تصور ـ فى زعمه ـ مدى التعصب الذى وقع فيه العرب الذين حملوا رسالة الإسلام وحاول الطعن على اللغة العربية من خلال طعنه فى إعجاز القرآن الكريم.

فقد عرض لمشكلة خلق القرآن وآراء المعتزلة وأهل السنة فى ذلك، وحاول ـ دائما ـ أن يلقى التبعة على أهل السنة الذين قالوا بقدم القرآن، وروّج لمذهب المعتزلة القائل بخلق القرآن، وادعى أن الفريق الأكبر من علماء اللغة العربية قال بقدم اللغة العربية رابطا بينها وبين القرآن، فإذا كان القرآن قديما فاللغة العربية قديمة كذلك، وادعى ـ كذلك ـ أن معظم علماء العربية ذهب إلى هذا الرأى، أما المعتزلة الذين تحرروا من جعل القرآن قديما فقد ذهبوا إلى القول بحداثة اللغة العربية.

ومن ثم صوّر ـ كما يرى ـ نظرية غلاة السنة ثم الأشاعرة الشهيرة فى قدم القرآن ووجوده بنصه فى عقل الله، وفى اللوح المحفوظ قبل الخليقة وما انبنى عليها من نظريتهم فى أن اللغة العربية التى نزل بها القرآن قديمة قدم الله، أو على الأقل قدم الخليقة، وأن آدم كان يتكلم العربية فى الجنة[2].

---

(١) من ص ٥١ ـ ٩٥.

(٢) مقدمة فى فقه اللغة العربية، ص ٥٢.

تلك المناظرة الكبرى التى شطرت الفكر الإسلامى نحو ثلاثة قرون أى منذ المائة الأولى بعد موت الرسول ﷺ مباشرة إلى شطرين عظيمين : شطر يرى رأى السنة والأشاعرة وغيرهم بأن الله موجود بذاته وصفاته وبأن الجبر يحكم الوجود الإنسانى . . وبأن القرآن قديم قدم الله أو قدم الخليقة، ومثل القرآن فى القدم اللغة العربية التى نزل بها، وشطر يرى رأى المعتزلة وغيرهم أن الله موجود بذاته فقط أما صفاته فهى غير مساوية لذاته؛ لأنها لو ساوتها لامتنع التوحيد، وانفتح الباب أمام تعدد الآلهة من جديد، وبأن الإنسان مخير لا مسير وإلا لامتنع العدل، وبأن القرآن ومعه اللغة العربية التى نزل بها ـ محدث أو مخلوق وليس قديما[1].

واتفق أكثر الفريقين على إعجاز القرآن ـ وإن كان الفريق الأول مرجعا له إلى المَبْنَى والمعنى، والفريق الثانى اختلف فى وجوه الإعجاز وجعل الصرفة أحدها، وهذا كان يمثل ـ فى زعمه ـ تيارين :

الأول ـ متعصب للعرب والعروبة، والسيادة العربية، **والثانى** ـ كان داعيا للسيادة الإسلامية أو المساواة فى الإسلام[2].

والغلاة من أصحاب النظرية الأولى ربطوا بين إعجاز القرآن وإعجاز اللغة العربية، فهى أشرف لغات الأرض، وأفصحها، وأنضجها، وأعظمها استعدادا للتعبير عن الوحى، وقد كان التعبير الفلسفى عن إعجاز القرآن نظرية قدم القرآن التى تساوت فى علم الكلام بنظرية قدم الكلمة، وملازمتها لعقل الله أو انبثاقها منه قبل الخليقة، وبالتبعية ظهرت نظرية قدم اللغة العربية كلها، حتى قال البعض : إن آدم كان يتكلم العربية فى الجنة، وهى النظرية التى سخر منها المعرى فى رسالة الغفران[3].

وأما المعتزلة فرأيهم أن كلام الله (القرآن الموحى) محدث وليس قديما، فكلام الناس (اللغات) من باب أولى تكون محدثة وليست قديمة بما فى ذلك اللغة العربية، وهذه من النظريات الهامة التى وضعها فقهاء المعتزلة فى تاريخ اللغة العربية[4].

---

(١) المصدر السابق ص ٥٣، وانظر أيضا ص ٦٩.
(٢) المصدر السابق ص ٥٣، ٦٤.
(٣) المصدر السابق، ص ٦٤.
(٤) المصدر السابق، ص ٨٨.

ونرى أن الدكتور لويس ارتكب - فى هذه المزاعم - كثيرا من المغالطات والمخالفات ، ونثر فى تضاعيف كلامه أخطاء علمية وتاريخية ولغوية.

وأولى هذه المغالطات أنه وصل قضية «القول بقدم القرآن» بنظرية «اللوجوس» المسيحية التى تقول بقدم الكلمة، ففى نظره أن فقهاء الإسلام اجتهدوا أن يضعوا نظرية الوحى فى الإسلام على غرار نظرية اللوجوس Logos فى اليونانية المسيحية وهى كلمة الله المرادفة لعقل الله أو للروح القدس أو نظرية الفيربوم Verbum وهى كلمة الله المرادفة للعقل (الإلهى) أو الفيات Fiat أو الخلق الأول بكلمة (كن فيكون) فكان الكون وهى فى نهاية الأمر صورة من صور اللوجوس المرادف لعبارة (روح الله وكلمته)[1].

ولعلى لا أكون مجاوزا للصواب إذا قلت : إن القائلين بقدم القرآن لم يكونوا يقصدون ذلك، وهم يقصدون فى الحقيقة تنزيه الذات الإلهية عن الحدوث لا عن أن يكون هناك إله ثان كما يفهم من بعض من ذكر ذلك.

وكما يقول الفيلسوف ابن رشد : إن الأشعرية خافوا أن تكون ذات الله محلا للحوادث فاعتقدوا أن المتكلم هو الذى يقوم الكلام بذاته وأن الكلام - بالنسبة لله سبحانه - صفة قديمة كالعلم. وهذا يصدق على كلام النفس لا اللفظ[2].

فالكلام - عند أهل السنة - صفة أزلية قديمة قائمة بذاته تعالى، ليست بحرف ولا صوت، منزه عن التقدم والتأخر، والإعراب والبناء ومنزه عن السكوت النفسى بألا يدير فى نفسه الكلام مع القدرة عليه[3].

وعلى هذا فهم يقصدون بقولهم: إن القرآن قديم، المعنى النفسى، أما اللفظ من الحروف والكلمات فلا جدال فى أنهم يعتقدون حدوثها.

ويقول صاحب الجوهرة :

ونزِّه القرآن أى كلامه ... عن الحدوث واحذر انتقامه

(١) المصدر السابق، ص ٨٥، ٨٦، وانظر أيضا ص ٦٩.

(٢) مناهج الأدلة فى عقائد الملة، لابن رشد، ص ١٦٤ بتصرف.

(٣) شرح البيجورى على الجوهرة، ص ٨٤.

قال الشارح : مذهب أهل السنة أن القرآن بمعنى : الكلام النفسى ليس بمخلوق، وأما القرآن بمعنى : اللفظ الذى نقرؤه فهو مخلوق، لكن لا يقال ذلك إلا فى مقام التعليم لأنه ربما أوهم أن القرآن بمعنى كلامه تعالى مخلوق، وربما يتوهم من إطلاق أن القرآن حادث أن الصفة القائمة بذاته تعالى حادثة، ولذا امتنعت الأئمة من القول بخلق القرآن[١].

والمعتزلة اعتقدوا أن الكلام هو ما فعله المتكلم ويقصد به حينئذ اللفظ فقط، ولهذا قال هؤلاء : إن القرآن مخلوق باعتبار حروفه وكلماته الملفوظة، أما المعنى النفسى فهو ـ فى نظرهم ـ كأهل السنة ـ صفة قديمة له تعالى[٢].

فالخلاف بين القائلين بقدم القرآن أو خلقه خلاف لفظى لأن كل فريق منهم ينظر إلى ناحية واحدة[٣]، فأهل السنة والمعتزلة متفقون على أن كلام الله النفسى قديم، وأما حروف القرآن وكلماته المنطوقة فهى حادثة.

وإذًا فإن القائلين بقدم القرآن لم يكونوا يقصدون الازدواجية التى تؤدى إلى وجود قديمين متداخلين على حد نظرية اللوجوس، وإنما يراد منها تنزيه الله سبحانه عن أن يلتصق به شيء محدث، وبهذا يبعد موقف الأشاعرة السنية عما ذهب إليه الدكتور.

وقد ارتكب الدكتور لويس فى سبيل عرض هذه الفكرة خطأ علميا حين وصف أهل السنة بالقول بالجبر[٤] : واستنبط ذلك من عدم حكمهم على مرتكبى الكبائر بالكفر، واستمرار وصفهم بالإيمان لمرتكبيها.

ونقول للدكتور : إنه لم يفهم عقائد السنة فى ذلك، وأن عليه أن يرجع إلى مصادر أهل السنة التى تجعل للعبد كسبا كما يقول صاحب الجوهرة :

وعندنا للعبد كسب كلفا[٥]

---

(١) المصدر السابق، ص ٦٤، ٨٤ بتصرف.

(٢) مناهج الأدلة فى عقائد الملة لابن رشد، ص ١٦٤ بتصرف.

(٣) من كلام الدكتور محمود قاسم فى شرح رأى ابن رشد فى كتابه السابق، ص ٧١.

(٤) انظر كتابه، ص ٥٣، ٦٩.

(٥) شرح البيجورى على الجوهرة، ص ٩٤ ـ ٩٦.

وهذا استنادا إلى آيات القرآن الكريم التى تشير إلى أن للعبد فى أعماله كسبا كقوله تعالى : **﴿أولئك لهم نصيب مما كسبوا﴾**[1] وقوله سبحانه : **﴿لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾**[2] وقوله عز حكمه : **﴿للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن﴾**[3] وقوله جل وعلا : **﴿ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه﴾**[4] وقوله عز من قائل : **﴿يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون﴾**[5]، وقوله جلت قدرته : **﴿ولا تكسب كل نفس إلا عليها﴾**[6].

ثم إن عدم حكمهم بتكفير مرتكبى الجرائم قائم على أصول إسلامية صحيحة، فالإيمان يتعلق بالتصديق بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وكما ينطق القرآن الكريم : **﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾**[7].

أما ربطه نشأة اللغة العربية، وقدمها وحداثتها بالقول بقدم القرآن وحداثته فهذا ربط لا يجد دليلا عليه، وقد ذكرنا اتجاه القول بقدم القرآن وأنه خاص بالمعنى النفسى، وأن الحروف والكلمات المنطوقة التى هى تعبير لغوى حادثة، وإذًا ينتفى ما بناه الدكتور لويس على ذلك من قدم اللغة وينتفى الربط بين الأمرين.

على أن القول بقدم اللغة، وأنها وحى ليس أمرا خاصا بالعرب بل قال به بعض الفلاسفة مثل هيراكليت ودبونالد وأفلاطون[8] والمحافظون من أصحاب الديانات المختلفة[9] واستدلوا له من غير القرآن بالتوراة[8].

ويؤخذ على الدكتور أنه يصم الفكر العربى بالتوقف وأن أكثر علماء العربية على القول بالتوقيف، وكأن مسألة قدم اللغة العربية وامتدادها حتى تصل إلى آدم

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٠٢.

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٨٦.

(٣) سورة النساء : الآية ٣٢.

(٤) سورة النساء : الآية ١١١.

(٥) سورة الأنعام : الآية ٣.

(٦) سورة الأنعام : الآية ١٦٤.

(٧) سورة النساء : الآية ٤٨.

(٨) انظر كتابنا (العربية خصائصها وسماتها)، ص ١٧ وما بعدها.

(٩) انظر كتابنا : (علم اللغة بين القديم والحديث) ص ٧٥.

شغلت الفكر الإسلامي واللغوي العربي إلى حد الجمود عندها، والأمر ليس كذلك.

ولو أن الباحث رجع إلى المصادر الأساسية - كما ذكرت - وقرأها لوجد أن المحققين من علماء اللغة تركوا الخوض في مسألة نشأة اللغة نهائيا فهي بحث لم تتضح أدلته، ولنقرأ معا ما أورده السيوطي في المزهر عن بعض علماء العربية: الصحيح - عندي - أنه لا فائدة لهذه المسألة وهو ما صححه ابن الأنباري وغيره، ولذا قيل: ذكرها في الأصول فضول[1] وهذا هو ما ذهب إليه علماء اللغة المحدثون، يقول الدكتور كمال بشر: إن أكثر ما كتب في هذا الموضوع لم يتجاوز مرحلة التخمين والافتراض[2]، وقد أعرض عنه الباحثون المحدثون من علماء اللغة لأن منهج البحث فيه لا يتفق في شيء مع ما ينبغي أن تكون عليه مناهج البحث في العلوم[3].

وعلماء العربية - في بحث نشأة اللغة - لا يتحدثون عن العربية وحدها وإنما يتحدثون عن اللغات بصورة عامة، وقد حكى السيوطي في المزهر آراء متعددة كلها دائرة بين التوقيف والاصطلاح في جميع اللغات، ونقل ذلك عن المعتزلة وأهل السنة كذلك - قال: ولم أر من صرح عن الأشعري بخلافه والذي أراه أنه إنما تكلم في الوقوع وأنه يجوز صدور اللغة اصطلاحا ولو منع الجواز لنقله عنه القاضي وغيره من محققي كلامه ولم أرهم نقلوه عنه بل لم يذكره القاضي وإمام الحرمين وابن القشيري، وذكر إمام الحرمين الاختلاف في الجواز[4] ثم يقول: والمختار أن العقل يجوّز ذلك كله والقول بتجويز كلا الأمرين هو قول المحققين[5].

وقد ساق حديث العلماء عن ذلك بما يؤكد أنهم يتكلمون عن جميع اللغات وليس عن العربية وحدها، قال: قال الزركشي في البحر: حكى أن التوقيف وقع في الابتداء على لغة واحدة، وما سواها من اللغات وقع التوقيف عليها بعد

---

(١) المزخر ١/ ٢٦.
(٢) د. بشر: قضايا لغوية ص ١١٢.
(٣) د. وافى: علم اللغة ط ١٩٣٨، ص ٥، ٦.
(٤) المزهر ١/ ٢٤.
(٥) المصدر السابق ١/ ٢١، ٢٤.

الطوفان من الله تعالى فى أولاد نوح حين تفرقوا فى أقطار الأرض، والجمهور وأهل التحقيق على أن التوقيف يقع فى لغة واحدة، ثم يجوز أن يكون ما بعدها من اللغات اصطلاحا وأن يكون توقيفا ولا يقطع بأحدهما.

والأقوال دائرة ـ كذلك ـ حول أول لغة، هل هى العربية أو سواها؟ ويذكر أن العربية الباقية ربما كانت اصطلاحا بين جرهم وإسماعيل الذى ورثها عنهم[1].

فأين التعصب أو القول بقدم العربية على وجه الخصوص؟ إن الحديث عام وشامل وعرض لآراء متعددة مبعثها إعمال العقل والفكر كما قال السيوطى وليست هناك أدلة موضوعية لصحة هذا أو ذاك.

على أن وصف العربية بأنها أولى اللغات ليس بدعا من القول فإن شعوبا كثيرة فى العالم حاولت ـ ولا تزال تحاول ـ أن تجعل لغتها أصل اللغات قاطبة، فالعبريون يزعمون أن لغتهم أولى اللغات جميعا، وفى العصر الحديث وقف مسئول تركى فى مؤتمر لغوى عقد سنة ١٩٣٤م ليدعى أن التركية هى الأصل الذى اشتقت منه جميع لغات العالم[2].

بيد أن الدكتور لويس ـ كذلك ـ يصم معظم علماء اللغة العرب بأنهم قالوا بالتوقيف ولا يعرض فى هذا لرأى آخر إلا لابن جنى الذى نقل عنه القول بالمواضعة والاصطلاح ورجوعه عنه إلى القول بالتوقيف، وقد أثبتنا لك بما نقلنا عن السيوطى وما تذكره المصادر المختلفة أن علماء العربية وعلماء الفقه والأصول قالوا بالأمرين معا : التوقيف والاصطلاح ولم يخصوا ذلك بلغة دون أخرى.

ثم إن ابن جنى يقف على رأس القائلين بأحدث الآراء فى نشأة اللغة وهو صدورها عن محاكاة الأصوات، يقول: إن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات كدوى الريح، وحنين الرعد، وخرير الماء، وشحيج الحمار، ونعيق الغراب، وصهيل الفرس، ونزيب الظبى، ونحو ذلك، ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد[3].

---

(١) المصدر السابق ١ / ٢٧، ٢٨.

(٢) د. إبراهيم أنيس : دلالة الألفاظ، ص ١٤.

(٣) ابن جنى : الخصائص ١/٤٦، ٤٧.

وبهذا الرأى ـ أيضا ـ قال الخليل بن أحمد من قبله فقد نقل عنه ابن جنى قوله : «كأنهم توهموا فى صوت الجندب استطالة ومدا فقالوا : صرّ وتوهموا فى صوت البازى تقطيعا فقالوا : صرصر»[1]. وذهب إلى ذلك من المحدثين أحمد فارس الشدياق يقول : إنى رأيت معظم اللغة مأخوذا من حكاية صوت أو صفة[2].

وإذا فلا معنى للقول بأن علماء العربية جمدوا أمام شرف اللغة وقداستها وإنما هم وقفوا مذهولين أمام دقتها وجوهرها الأصيل مفسرين لذلك تفسيرا علميا ولغويا دقيقا.

يقول ابن جنى : «واعلم ـ فيما بعد ـ أننى على تقادم الوقت دائم التنقير والبحث عن هذا الموضع، فأجد الدواعى والخوالج قوية التجاذب لى مختلفة جهات التغول على فكرى، وذلك أننى إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة وجدت فيها من الحكمة والدقة والإرهاف والرقة ما يملك علىّ جانب الفكر حتى يكاد يطمح به أمام غلوة السحر»[3].

وقد نقلنا لك ما قاله الأستاذ العقاد فى أصالة العربية وروعتها وجوهرها الذى يأخذ بالألباب[4].

وننتقل إلى المسلك الثانى المترتب على إعجاز القرآن فيما تصوره الدكتور لويس خاصا باللغة العربية وموقع لهجة قريش فيها وصلتها باللغات الأخرى، وقد بنى الدكتور رأيه على أن أمر اللغة العربية قائم على العصبية والعنصرية وأرجع ذلك إلى عقيدة الإسلام التى تضم فى طياتها نظام العنصرية والطبقية وهو زعم باطل يتنافى مع مبادئ البحث العلمى الموضوعى.

وسنعرض فكرته الخاطئة فى ذلك ثم نناقشه فيها.

لقد حاول الدكتور لويس أن يرسم العصبية المتمثلة فى لهجة قريش لأنهم آل النبى ومنهم نشأ، فنشأ الشرف معهم لهذه القبيلة، وتمشى الشرف وتسرب إلى

---

(١) المصدر السابق ٢/ ١٥٢.
(٢) سر الليال فى القلب والإبدال ص ٢٢.
(٣) ابن جنى : الخصائص ١/ ٤٧.
(٤) انظر ص ٥٤ من هذا البحث.

لهجتهم فجعلت أفصح اللهجات جميعا، وجعلت أساسا للغة التى نزل بها القرآن وتنوسيت جميع اللهجات الأخرى.

بل أكثر من ذلك جعلت اللغة العربية جنسا مستقلا قائما بذاته لا يعروه تأثر باللغات الأخرى، ومن هنا بلغ التعصب مداه حين جاءت آراء علماء اللغة العربية بخلوها من الأعجمي.

وادعى الدكتور لويس أن الفرق الإسلامية كالخوارج والمعتزلة والشيعة كلها كانت ثورات مضادة لهذا الشرف وتلك السيادة التى زعمت للعرب وبخاصة قريش وكان الهدف منها إسقاط قريش من هذه المنزلة وينسحب هذا على العرب ومن وراء ذلك كله على لغتهم.

ركز الدكتور لويس أولا على دعواه الزائفة بوجود العصبية فى الإسلام، فالإسلام كان يضم العرب والمستعربين (الموالى) وبالطبع كان هذا ـ فى زعمه ـ يتضمن أن الإسلام الصحيح فيه طبقات غير طبقات الإيمان والتقوى والعمل الصالح وهذه هى طبقات العرق العربى واللغة العربية، وهو ما لم ينص عليه صراحة فى التاريخ الإسلامى خشية الفتنة ولمخالفته صراحة لجوهر الدين[1].

ثم إن الخوارج والشيعة تمثل ثورة واحتجاجا على سيادة الجنس العربى على الشعوب الإسلامية باسم اللغة والدين بل سيادة بنى قريش على كافة القبائل العربية لمجرد أن النبى كان قرشيا[2].

فالخوارج يرون أن الإمامة أو الخلافة ليست وراثية وإنما تحق لمن تختاره الجماعة أيًا كان ولو كان عبدا أسود وقد قالوا لا حكم إلا لله، وتحت الله يتساوى المؤمنون[3] ودعوة الشيعة كذلك كانت منذ بدايتها مناهضة لحكم قريش وللعصبية العربية[4].

فالشيعة قالت : لا حكم إلا لآل البيت وحصروا حق الملك فى آل بيت الرسول وحده.. لأن آل البيت كانوا وعاء الوحى بالاختيار الإلهى لصفات

---

(١) د. لويس : مقدمة فى فقه اللغة العربية، ص ٥٤.
(٢) المصدر السابق، ص ٥٩.
(٣) المصدر السابق، ص ٥٥.
(٤) المصدر السابق، ص ٥٩.

خاصة فيهم وهو ما لا يمكن أن يقال فى أشراف قريش ولا فى العرب بعامة[1].

ويختص من العرب بنو قريش بدعوى أن النبى عربى قرشى وبدعوى أن القرآن نزل بلغة العرب وبلهجة قريش من دون سائر لهجات العرب[2].

وقد توسع فقهاء اللغة العربية الأوائل وكثير من المتأخرين فى إثبات ما جاء فى الصاحبى لابن فارس من أن لغة العرب أفضل اللغات وأوسعها، وكان عليهم أن يواجهوا مشكلة تعدد لهجات العرب التى كانوا يسمونها لغات فى الموازنة مع لغة قريش التى نزل بها القرآن، فاتفقت كلمتهم على أن لغة قريش كانت أرقى لغات العرب، وجعلوا من لغة قريش معيار الصحة والفصاحة لاشك بسبب نزول القرآن بلغة قريش، وبسبب سيادة بنى قريش ولهجتهم بعد انتصار الإسلام على بقية القبائل العربية ولهجاتها[3].

وهذا الحديث الطويل قصد به الدكتور لويس الغض من شأن اللهجة القرشية ـ بخاصة ـ واللغة العربية ـ بعامة ـ والغض من شأن أصحاب تلك اللهجة التى نزل بها القرآن الكريم والتقليل من أثرها فى تكوين اللغة العربية ومحاولة إرجاع هذا الأثر إلى العصبية للنبى ﷺ وإلى قبيلة قريش لا إلى العوامل الحقيقية فى تفوق هذه اللهجة وهى عوامل كثيرة اجتماعية وسياسية ولغوية. وكأن اللهجات المنزوية المقهورة إنما قهرت ـ فى زعم الدكتور ـ بحد السيف والجبروت والتسلط وغلبة قريش على بقية القبائل بالعصبية دون مراعاة للجانب الاجتماعى أو المساواة بين قبائلها وقبيلة قريش،كما قصد به كذلك وقوع الأعجمى فى اللغة العربية.

والواقع أن هذا كله اتهام باطل لا حقيقة تحته.

وقد ارتكب الدكتور لويس مخالفات تاريخية ولغوية وعلمية نقف لنناقشها ونرد عليها.

---

(١) المصدر السابق ص ٦١.

(٢) المصدر السابق ص ٦٠.

(٣) المصدر السابق ص ٦٧.

فمن المخالفات التى ارتكبها الدكتور اتـهامه الإسلام بأنه اشتمل على طبقات غير طبقات الإيمان تتصل بالعرق واللغة العربية.

والدكتور لويـس يناقض نفسه حين يدعى أن جـوهر الدين الإسلامى يتنافى مع التعـصب على حين يقـرر قبل ذلك أن الإسلام الصـحيح يضم عناصـر العرق العربى واللغة العربية بين مبـادئه والواقع غير ذلك، فقد كان الإسلام ـ ولا يزال ـ ممثلا للاهتـمام بغـير العرب،وكـان صـهيب الرومى وبلال الفـارسى وغيـرهما من الشرف إلى حد كبير ـ فى عصر الرسول ﷺ ـ ثم إن الرسول الكريم هو القائل : «لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى».

ويوحى الدكتـور لويس للقارئ فى كتـابه بأن العنصرية من مبـادئ الإسلام التى لم ينص عليها صراحة خوفا من الفتنة، وهذا لا دليل عليه لا من الواقع ولا من التاريخ، بـل إن الطابع الذى حافظ على الدولة العـربية هو أنها لـم تفرق بين عربى وأعـجمى وجعلتـهم سواء فى نظر الإسلام، قـال تعالى : ﴿يأيهـا الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾[1].

وكما يقول يوهان فك المستشـرق الألمانى: إن الخليفة الثانى عمر بن الخطاب (حكم ١٣هـ/ ٦٣٥م ـ ٢٣ هـ / ٦٤٤م) حـاول أن يـحـفظ شـعـبـه العـربى من التلاشى فى جـماهير الشعـوب المغلوبة التى تفوقهم بـكثرة العدد فحـرم عليهم أن يمتلكوا الضياع فى الأقاليم الجديدة أو أن يتخـذوها لهم وطنا ومقاما، كما جعلهم بمعزل عن المدن الكبيـرة فى البلدان المفتوحة.. فأسكنهم فى معـسكرات من الخيام كانت نواة للمـدن العظمى فى العالم الإسـلامى التى نشأت فى بضع عـشرات من السنين كالبصرة والكوفة والفسطاط وغيرها[2].

وإذا كان الأمويون قد تعصبوا لعروبتهم فقد كان هذا خوفا منهم على الدولة العربيـة أن تنحل وتتلاشى فى المجـتمعـات التى دخلها الإسلام ومـن هنا حفظت العربية من الاضمحلال والانحلال.

---

(١) سورة الحجرات : الآية ١٣.

(٢) يوهان فك : العربية ص ١٩.

وجعل الدكتور لويس الخوارج والشيعة فريقين ثائرين ضد السيادة العربية والعنصر العربى فهو يركز على أن الخوارج كانوا من أهل العراق - ويقصد أن معظمهم من غير العرب -[1].

ولذا فإنهم - فى نظره - أعلنوا الثورة على حكم العرب (بنى أمية) بل حكم العرب ممثلا فى أرستقراطية قريش[2]. وهذا التصور غير صحيح من الناحية التاريخية.

والثابت - كما يقول الدكتور أحمد أمين - أن معظم الخارجين على علىّ كانوا من قبيلة تميم[3]، وكان أكثر من اعتنق مبدأ الخوارج عربا بدوا، وقد انضم إليهم بعض الموالى إعجابا برأيهم الديمقراطى فى الخلافة، ولكن مع هذا لم ينضم إليهم من الموالى إلا قليل؛لأنهم - وأكثرهم بدو - شديدو العصبية لجنسهم يحتقرون الموالى ويزدرونهم.

وكان سبب خروجهم عدم طاعة على - رضى الله عنه - لهم بفسخ الاتفاق بينه وبين معاوية بعد فشل التحكيم الذى تم بينهما[4]، ثم إنهم وضعوا نظريتهم للخلافة بأن تكون باختيار حر من المسلمين وليس بضرورى أن يكون الخليفة قرشيا بل يصح أن يكون من قريش ومن غيرهم، ولو كان عبدا حبشيا. وإذا تم الاختيار كان رئيس المسلمين ويخضع خضوعا تاما لما أمر الله وإلا وجب عزله[5].

---

(١) يريد أنه تجلت فيهم عصبية القوميات المحلية، أما التكوين القبلى لهم فيضم قبائل عربية قليلة الأهمية من حيث المكانة السياسية اندمجت فى الإسلام وخصوصا بعد حرب الردة وأقامت فى الكوفة والبصرة وكانوا أقرب إلى الحضر منهم إلى الأعراب البادين، ولم يتمركزوا فى الجزيرة العربية إلا فى اليمامة واليمن ولم يحفلوا كثيرا بأنسابهم القبلية الأولى بل سلكوا مسلك أهل الحضر، وفى رأيه أن صلبهم كانوا طوائف من الكولون colons أو المستوطنين من المقاتلين فى جيوش المسلمين الذين استوطنوا البصرة والكوفة من تميم وبكر وهمدان ومضر والأزد واليمانية وألفوا الحياة المدنية المستقرة (مقدمة فى فقه اللغة العربية، د. لويس، ص ٥٦، ٦٢)، وهكذا يقول عن الشيعة : إن أغلبهم من الموالى ولعله يرمى من وراء ذلك إلى أن معظمهم ليسوا من العرب، ويزعم أن بعض القبائل العربية التى دخلت فى الخوارج تنصلوا من قوميتهم، وهدفه من استنتاجه هذا أن يصل إلى ما يريد من خروجهم على التعصب للحكم العربى.

(٢) مقدمة، ص ٥٦.

(٣) فجر الإسلام، ص ٢٥٦.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٦١، ٢٦٢.

(٥) المصدر السابق، ص ٢٥٧، ٢٥٩.

وهذا ـ كما ينطبق على قريش ـ ينطبق على غيرها، فأين الخروج على الحكم العـربى فى ذلك؟ وهذا لا صلة له ـ إذن ـ بالثـورة على التـعصب كـمـا يتصـور الدكتور لويس.

وقد زعم أن الشيعة ثارت كذلك على العصبية للجنس العربى، والواقع ليس كذلك ففكرة الشـيعة ـ كما يقول الـدكتور أحمد أمين ـ ظهـرت فى صورة الدعوة لعلى بن أبى طالب كما يدل عليه التاريـخ وتتلخص فى ألا نص على الخليفة فترك الأمـر لإعـمـال الرأى، فـالأنصـار أداهم رأيهم إلى أنهم أولى بهـا والمهـاجـرون كذلك[1].

وبالعكس، كان الشيعة يرون أن تتركز الخلافة فى أعلى فرع من قريش وهم علىّ وأهله، وليس فى ذلك ثورة عليهم أو تعصب ضدهم كما يزعم الدكتور، بل هذا تمسك بهم وانتصار لهم بل هو قمة التحمس للقرشيين فى أخص فروعهم وهو علىّ وقرابته.

ويحاول الدكتـور لويس ـ وهو على غير صواب ـ أن يتهم العـرب بالتعصب متمثلا فى قـريش، فالنبى منهم، والقرآن نزل بلغة العرب ولا سيمـا لهجة قريش، وكـأن ذلك ـ فى رأيه ـ يدل على أن الفضل فـى الإسلام وكـتابه واللغـة العربيـة للعرب عامة، ولقريش خاصة.

واتهم علماء العربية ـ كذلك ـ بالتعصـب للقرشية التى نزل بها القرآن، فهى عندهم أشرف لغات الأرض قاطبة وأشرف لهجات العرب جميعا وهى معيار الصحة والفصاحة تبعا لسيادة قريش ولهجتهم.

ونقول : إن وجود النبى فى الأمة العربيـة أمر جعلهم ـ بلا شك ـ أصحاب شرف وفخـر، وامتد هذا الشرف إلى الأمة الإسـلامية كلها بحـمل رسالة الإسلام التى صححـت مسار الحياة الإنسـانية وليس هذا تعصبـا بل بيان لحقيـقة الأمة التى تنشر دين الله وشريـعة الحق والعدل، فهى ـ من هذا الجانب ـ مـفضلة على الأمم الضالة الملحدة التى لا تعرف الله وحقوق الناس ولا تقيم العدل ولذا امتدح القرآن الكريم الأمة الإسـلامية فى إطارها العـام ولم يخص العرب وحدهم حـين قال :

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٦٦.

﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾[1].

أما أن العنصرية امتدت إلى سيادة قريش على غيرها وسيادة لهجتها على سائر اللهجات واللغات الأخرى فهو غير وارد لا عن العرب ولا عن علماء العربية، وما قاله الدكتور لويس محض افتراء، فسيادة قريش ولهجتها لم تكن بعد الإسلام ـ كما تصور ـ بل من قبله، وحقائق التاريخ ترشد إلى ذلك، وقد جاء الإسلام فوجد اللغة العامة ـ متمثلة فى معظم المادة اللغوية القرشية ـ فنزل بها وكان هذا مسايرة للواقع اللغوى الشائع فى البيئة العربية آنذاك.

وعلماء العربية تكلموا عن واقع موجود ولم يكونوا متحاملين أو قائلين بشىء لا تؤيده الحقائق العلمية والآثار.

وعلماء العربية تكلموا عن واقع موجود ولم يكونوا متحاملين أو قائلين بشىء لا تؤيده الحقائق العلمية والآثار.

وإذا كان الدكتور لويس قد اتهم أحمد بن فارس بالتعصب ـ ومن بعده ومن قبله علماء العربية الآخرين ـ حين عقد بابا فى كتابه الصاحبى بعنوان (باب القول فى أن لغة العرب أفضل اللغات وأوسعها)[2] فإن الباحث المنصف يرى أن أحمد ابن فارس لم يكن متعصبا فى هذا الباب الذى عقده بل كان بصدد بيان ما امتازت به العربية من غيرها من اللغات الأخرى ولم يرد تفضيلا عصبيا ممقوتا.

والرجل ـ لأنه فارسى الأصل ـ يوازن بين العربية والفارسية التى يعرفها، فيقرر امتياز العربية بوقوع الألفاظ المترادفة فيها، ذلك لأنها تهيىء للمتكلم كثيرا من نواحى الإبانة والإيضاح بما لا يتيسر فى اللغات التى تخلو من الترادف، فللسيف والأسد والفرس ألفاظ مترادفة فى اللغة العربية على حين أن الفارسية لا تعبر عن ذلك إلا باسم واحد، يقول ابن فارس : لو احتجنا إلى أن نعبر عن السيف وأوصافه باللغة الفارسية لما أمكننا ذلك إلا باسم واحد، ونحن نذكر للسيف بالعربية صفات كثيرة، ومعلوم أن العجم لا تعرف للأسد اسما غير واحد، وفى

(١) آل عمران، الآية ١١٠.
(٢) ص ١٦، وما بعدها.

لغة العرب أكثر من خمسمائة اسم، وهكذا وغيرهما من الأشياء المسماة بالأسماء المترادفة، فأين هذا من ذاك؟

كما يقرر امتياز اللغة العربية ببعض مظاهر البلاغة ووجوهها كالاستعارة والكناية والتمثيل والقلب والتقديم والتأخير وغيرها من السنن الذى يقع فى القرآن وكلام العرب شعرا ونثرا وذكر لذلك أمثلة.

كما يقرر أن العربية لا تجمع بين الساكنين وقد تجتمع فى لغة العجم ثلاثة سواكن[1]، وهذا دون شك بيان لبعض المزايا التى اختصت بها لغة العرب ولا عيب فى ذلك ولا تعصب على الإطلاق.

ولهذه المزايا قرر ابن فارس أن ترجمة القرآن أمر جد عسير إذ لا يمكن أن تحمل ألفاظ اللغات الأخرى المعانى التى تتضمنها التعبيرات القرآنية ذات المعانى الجامعة، فيقرر أنه لا يقدر أحد من التراجم على أن ينقل القرآن إلى شىء من الألسنة،كما نقل الإنجيل عن السريانية إلى الحبشية والرومية وترجمت التوراة والزبور وسائر كتب الله عز وجل بالعربية لأن العجم لم تتسع فى المجاز اتساع العرب[2].

«ولا وجه لمن يجيز قراءة القرآن فى صلاته بالفارسية؛ لأن الفارسية ترجمة غير معجزة، وإنما أمر الله جل ثناؤه بقراءة القرآن العربى المعجز»[3].

وهذه شهادة من أحمد بن فارس الذى لم يكن شعوبيا فى دعوته بل جهر بالحقيقة التى تقول : إن مزايا العربية تجعل ترجمة نص القرآن غير صحيحة؛ لأنها تفوّت كثيرا من المعانى التى لا يمكن أن يعبر عنها اللفظ غير العربى.

وهذا يدحض فرية الدكتور لويس فى نقله إجازة ترجمة القرآن فهو بهذا يفتح مجالا فاسدا من مجالات دعاواه الباطلة.

وحينما قال ابن فارس : إن القرآن نزل بلهجة قريش لم يكن ذلك تعصبا لأنهم أتباع النبى وذووه، أو بسبب نزول القرآن بها لأن القرشية من قبل نزول القرآن الكريم كانت قد انتشرت بين العرب وأصبحت لغة عامة لأسباب أخرى كثيرة اجتماعية ودينية وسياسية وتجارية لخصها ابن فارس حين قال :

---

(١) انظر الصاحبى، ص ١٦ ـ ٢٥.

(٢) المصدر السابق، ص ١٧.

(٣) المصدر السابق، ص ٤٧.

أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالهم أن قريشا أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغة، فقريش قطان الحرم وجيران البيت الحرام وولاته، فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج ويتحاكمون إلى قريش فى أمورهم، وكانت قريش تعلمهم مناسكهم وتحكم بينهم، ولم تزل العرب تعرف لقريش فضلها عليهم وتسميها أهل الله؛ لأنهم الصريح من ولد إسماعيل عليه السلام لم تشبهم شائبة ولم تنقلهم عن مناسكهم ناقلة، فضيلة من الله جل ثناؤه لهم وتشريفا إذ جعلهم رهط نبيه الأدنين وعترته الصالحين».

فنفهم من هذا النص أن قريشا سادت العرب لعدة أمور :

١ ـ أنهم قطَّان الحرم وسدنة البيت يلجأ إليهم سائر العرب لتعلم المناسك، وهذه السمة الدينية أكسبتهم تقدير العرب واحترامهم، وحققت لهم الزعامة الدينية، وهذا قبل الإسلام بكثير.

٢ ـ ونتيجة الزعامة الدينية وعوامل أخرى ـ كالتجارة والأسواق ـ أصبح لقريش زعامة سياسية على العرب ولا شك أن ذلك جعل غيرهم من القبائل يقلدهم فى لغتهم، فمن عادة المعجب أن يقلد من يعجب به،ومن عادة الطبقات الاجتماعية أن تخضع لصاحب السلطان الأقوى فى كل شىء وتحاول تقليده[1] مما جعل كثيرا من القبائل تترك كثيرا من مظاهر لهجاتها وتلجأ إلى محاكاة القبيلة ذات السيادة الطبيعية.

٣ ـ ثم أضاف ابن فارس إلى ذلك أن القرشيين أنفسهم مع ما لهم من زعامتين دينية وسياسية كانوا غير متعصبين للهجتهم فجعلوها تستفيد من لهجات إخوانهم العرب بمادة لغوية تحقق لها الوفاء الكامل بحاجات المجتمع المتحضر الذى اتسع ليشمل قبائل العرب بأسرها فى مناطق الجزيرة الواسعة.

وكان للقرشيين اختيار وذوق رفيع فبعدوا عن كل شوائب اللهجات التى تحول بينها وبين الفصاحة مما يعكر صفوها أو يشينها يقول :

---

(١) انظر كتابنا (علم اللغة بين القديم والحديث)، ص ١٧٦ وما بعدها.

وكانت قريش - مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها - إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم فاجتمع ماتخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلائقهم التى طبعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب[١].

وهذا دون ريب جعل للقرشية سيادة على غيرها من اللهجات أفادها بالحسن الجيد وزحزح عنها القبيح الرديء حتى استوت فى صورة عامة سيطرت على اللهجات الأخرى وجعلتها تنزوى، ويقتصر تداولها على المجتمعات والبيئات الخاصة، أما فى المجتمع العام فقد سيطرت لغة مشتركة معظم مادتها قرشى وبعضها من اللهجات الأخرى، ولما جاء الإسلام وجد العربية مستوية على سوقها فى إطار لغوى عام فنزل بها كتابه القرآن الكريم، ولم يكن ذلك تعصبا للهجة قريش على الإطلاق، وقد تهيأت لها - فوق الأسباب المشار إليها - قوة وسعة وهيبة وسلطان حينما حالفها التوفيق بنزول القرآن الكريم بها حيث اختار الله نبيه من رهط قريش.

وهذا هو ما ذهب إليه ابن فارس وسائر علماء اللغة.

والذى يدل على أن القرشية ضمت إليها بعض مظاهر اللهجات الأخرى ولم تثر عليها ثورة تحكم واستبداد أن القرآن اشتمل على عناصر من لهجات أخرى غير القرشية وقد أشار ابن فارس إلى ذلك، فذكر أن فى القرآن ما جاء بلهجات اليمن كالأرائك فى قوله تعالى : **﴿متكئين فيها على الأرائك﴾**[٢]، فالأريكة - بلغة أهل اليمن - الحجلة فيها سرير (والحجلة مثل القبة وحجلة العروس معروفة وهى بيت يزين بالثياب والأسرة والستور)[٣] وكذلك (المعاذير) فى قوله تعالى : **﴿ولو ألقى معاذيره﴾**[٤] هى الستور وأهل اليمن يسمون الستر المعذار[٥].

وبعد هذا البيان نرى أن علماء العربية لم يقصدوا بمدح القرشية أنها أشرف لغات الأرض قاطبة على سبيل التعصب ضد غيرها وإنما كان من باب بيان فضائل العربية ومزاياها.

---

(١) الصاحبى ص ٣٣، ٣٤، وانظر ص ٥٢ وما بعدها من هذا الكتاب.
(٢) سورة الإنسان الآية ١٣.
(٣) الصاحبى ص ٤٢ الأصل والتعليق.
(٤) سورة القيامة الآية ١٥.
(٥) الصاحبى ص ٤٢.

بقى هنا دعوى فى غاية الخطورة والخبث، وهى اتهـام العرب وعلماء العربية بالقول بعدم وقوع الأعجمى فى العربية والقرآن تعصبا وعنصرية.

إن الدكتـور لويس يجعل العـصبـية والعنصـرية مدخلا للطعن عـلى القرآن واللغة ويكيل التهم من هذه الزاوية التى سنخرجه منها وقد وضح زيفه وضلاله.

وفى مجـال زعمـه التعصب للعـربية بالقـول بخلوها من الأعجـمى ذكر أن «دعاة السيادة العربية ـ كما يقول ـ كانوا حريصين أشد الحرص على إثبات نقاء لغة القرآن من كل كلمة أعجمية، أما الشيعـوبيون فقد حرصوا على أن يثبتوا أن القرآن قد داخلتـه ألفاظ أعجميـة عديدة، ثم امتد البـحث من لغة القرآن إلى فقـه اللغة بصفة عامة»[1].

وفى زعمـه أن الإحساس العـربى قد تطرف عند العـرب وبعض المستـعربين بشرف اللغة العربية وعلوها عن غيرها من اللغات بعلة نزول القرآن الكريم بها إلى حد أنهم كـانوا ينظرون إلى وجود الألفاظ الأجنبـية فى اللغة العـربية نظرهم إلى شيء نجس ينبغى أن تتنزه عنه اللغة العربية أو عـورة ينبغى الاعتذار عنها، وقد ظل فقهاء اللغة العربية قرونا لا يعـترفون بدخيل الكلام فى اللغة العربية إلا ما ورد منه فى القرآن، لاضطرارهم إلى ذلك[2].

وقد عـرض لآراء العلماء الـعرب القائلـين بعدم وقوع الأعـجمى فى الـلغة العربية والقائلين به وذكر من الفريق الأول أبا عبيدة[3] والإمام الشافعى[4] وبين أن رأيهما بعدم وقوع الأعجمى فى اللغة العربية ينقل ـ فى زعمه ـ القداسة من القرآن إلى اللغة العربية، واتهم قول الشافعى بسـعة العربية وإمكان اتفاق لغتين فى بعض الألفاظ بأنه مـوقف دعاة العنصرية العـربية الذين غالوا فى تصـورهم لقدم الجنس العـربى والحضـارة العربيـة بما ينافى حقـائق التاريخ ونسـوا أن العرب لم يظـهروا كـجنس من أجناس الشـرق الأوسط ولم يبرز لهم ذكـر فى تاريخ المنطقـة إلا فى

(١) مقدمة فى فقه اللغة العربية، ص ٦٥.

(٢) المصدر السابق ص ٩١، ٩٢.

(٣) المصدر السابق ص ٦٥.

(٤) المصدر السابق ص ٩٢.

الألف الأولى قبل الميلاد بل نسوا أن العربية لم تدخل عصر التدوين إلا فى القرن الرابع الميلادى، ونقد فى هذا الصدد رأى الأستاذ المحقق أحمد شاكر بأن العرب أمة من أقدم الأمم ولغتها من أقدم اللغات وجودا كانت قبل إبراهيم، وإسماعيل وقبل الكلدانية والعبرية والسريانية وغيرها بل الفارسية وقد ذهب منها الشىء الكثير بذهاب مدنيتهم الأولى قبل التاريخ، وأن بعض الألفاظ التى يظن أنها دخيلة على العربية ربما كانت منها ثم فقد أصلها[١].

وبنى على ذلك أن نظرية التعصب للغة العربية بجعلها لا تقبل الألفاظ الدخيلة هو السبب فى دخول العربية فى مأزق شطرها إلى لغتين : لغة الكتابة المقدسة ولغة الكلام الدارجة ولو أننا أخذنا بمبدأ التعريب، والامتصاص والتمثيل اللغوى السائد فى جميع اللغات لتغيرت حال معاجمنا بل لجرت قوانين الصيرورة على النحو العربى والصرف العربى بما يقرب اللغة الفصحى من اللغة العامية[٢].

وهذه كلها دعاوى زائفة، فالقول بعدم وقوع الأعجمى فى القرآن ليس ناشئا عن نظرية عنصرية، وليس القول بوقوع الأعجمى فى القرآن خاصا بالشعوبيين من غير العرب بل قال به جمع غفير من العلماء العرب والصحابة وصدر الأمة منهم ابن عباس ومجاهد وعكرمة وأبو عبيد القاسم بن سلام وغيرهم من جلة العلماء وكبار الباحثين قديما وحديثا[٣].

وحجة هؤلاء الذين قالوا بوقوع المعرب فى القرآن الكريم :

١ ـ ما أخرجه ابن جرير بسند صحيح عن أبى ميسرة التابعى الجليل قال : فى القرآن من كل لسان.

٢ ـ أنه حوى علوم الأولين والآخرين ونبأ كل شىء فلابد أن تقع فيه الإشارة إلى أنواع اللغات والألسن ليتم إحاطته بكل شىء.

٣ ـ من خصائص القرآن على سائر كتب الله المنزلة أنها نزلت بلغة القوم الذين أنزلت عليهم لم ينزل فيها شىء بلغة غيرهم، والقرآن احتوى على جميع لغات (لهجات) العرب وأنزل فيه بلغات غيرهم من الروم والفرس والحبشة شىء كثير.

---

(١) المعرب للجواليقى : ص ١٣، ومقدمة فى فقه اللغة العربية، ص ٩٤.

(٢) مقدمة فى فقه اللغة العربية، ص ٧٩.

(٣) السيوطى: الإتقان ١/ ١٣٦، وانظر : د. نجا : فقه اللغة ٤/ ٨٠، ود. وافى : فقه اللغة ص ٢٠١، ود. تمام حسان : اللغة بين المعيارية والوصفية ص ٧١ وغيرها.

٤ ـ النبى ـ ﷺ ـ مرسل إلى كل أمة وقد قال تعالى : ﴿**وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه**﴾[١]. فلابد أن يكون فى الكتاب المبعوث به من لسان كل قوم وإن كان أصله بلغة قومه هو.

٥ ـ وقوع الأعلام الأعجمية فى القرآن[٢] :

وأجابوا عن قوله تعالى : ﴿**قرآنا عربيا**﴾[٣] بأن الكلمات اليسيرة بغير العربية لا تخرجه عن كونه عربيا وذلك لا يغض من شأن القرآن ولا من اللغة العربية بل يبين قدرة العرب على تمثل الألفاظ الأجنبية وطواعية لغتهم لهم فى ذلك حتى ليصبح اللفظ الأجنبى فى موقعه أفصح من نظيره العربى،فلو حاولنا أن نرفع لفظ (إستبرق) من قوله تعالى : ﴿**متكئين على فرش بطائنها من إستبرق**﴾[٤] لنضع مكانه كلمة (حرير) مثلا لما وقع اللفظ الثانى موقع الأول من الفصاحة والبلاغة[٥].

أما الإمام الشافعى وأبو عبيدة فلهما وجهتهما التى قبلها علم اللغة الحديث فمبدأ الأخذ والاستعارة معترف به بين اللغات، وتحديد المستعار فى أية لغة ـ غير الأعلام ـ أمر يحتاج إلى مشقة وعناء، فالحكم بقدم لغة وحداثة أخرى وخاصة فى مجال اللغات العريقة جد عسير، كما أن الحكم بالأخذ يحتاج إلى الكثير من المقدمات العلمية الضرورية[٦].

والبحث عن أقدم لغة إنسانية أمر لم يتضح بعد على وجه التحديد، وكما أن الساميات يباح لها أن تأخذ من غيرها فكذلك لا يوجد ما يمنع من أن اللغات الأخرى المجاورة قد اقتبست منها بعض مفرداتها، فمن المحتمل أن «اللغات السامية وجاراتها تبادلت ألفاظا فى عصور متطاولة قبل الإسلام فدخل فى الفارسية ـ مثلا ـ ألفاظ سامية، فرب لفظ فارسى يظن أصلا للفظ عربى وهو فى الحقيقة لفظ

---

(١) سورة إبراهيم، الآية ٤.

(٢) السيوطى :الإتقان ١/ ١٣٦ والجواليقى : المعرب ص ٥.

(٣) فى كثير من آيات القرآن : انظر مثلا : يوسف الآية ٢.

(٤) سورة الرحمن : الآية ٥٤.

(٥) الإتقان ١/ ١٣٦.

(٦) د. عبد الصبور شاهين : القراءات القرآنية فى ضوء علم اللغة الحديث ص ٣٣١.

سامى تسرب إلى الفارسية فى العصور القديمة، وقد بعد بالباحثين عن الصواب ظنهم أن العربية لم تهب اللغات الأخرى من ألفاظها إلا فى العصور الإسلامية»[1].

ومحاولة البحث فى الألفاظ ونسبتها إلى بيئة أصلية محل الزلل فى كثير من الأحيان فقد يتصور الباحث أن كلمة من الكلمات أصلها إنجليزى ثم يتضح فيما بعد أن لها أصلا آخر، كما حدث أن شابا يابانيا أراد أن يستقصى الكلمات الإنجليزية التى دخلت اليابانية ثم اتضح له فى آخر الأمر أن تلك الألفاظ التى ظنها يابانية الأصل أخذها الإنجليز ثم عادت مرة ثانية إلى اليابانية التى هى أصلها[2].

ومن هنا يبدو أن الباحث لا يستطيع الجزم بحال اللفظ فالاحتمالات كثيرة متشعبة، فإذا كان الحكم بنقل اللفظ من لغة إلى غيرها محتملا فمن الجائز كذلك أن تكون الأخرى هى التى منحت ذلك اللفظ للأولى ومن المحتمل أيضا أن يكون اللفظ مشتركا بين جميعها؛ ذلك لأن التاريخ اللغوى غامض يحتاج إلى بحث واستدلال على جوانبه المختلفة، ولذلك رأينا المحدثين يقومون ببحوث مقارنة بين مختلف اللغات والفصائل فهم يتتبعون الأصول اللغوية فى نموها وانتقالها مع الفتوح والهجرات وتسلسل هذه الحركات التاريخية واللغوية[3].

وعلى هذا فحكم الشافعى وأبى عبيدة بنى على اعتبار احتمال اشتراك لغتين أو أكثر فى لفظ واحد ولاسيما مع سعة اللغة العربية ونشوء مشكلات عدم معرفة الأصول اللغوية.

وقد تبين عن طريق فهم الساميات خطأ بعض القائلين بالتعريب فى نسبة لفظ (دست) الذى قالوا : إنه معرب عن الفارسية وأصله فيها (دشت) بالشين فحولت إلى سين فى العربية - ومثله - كثير - وقد استعارته الفارسية من السامية فى عصر متوغل فى القدم ثم عاد إلى العربية على أنه فارسى، وهذا هو ما يفسر لنا قلب الشين فى الكلمة الفارسية إلى سين فى العربية، لأننا نعلم من المقارنات

---

(1) مقدمة المعرب للدكتور عبد الوهاب عزام ص ٤.

(2) د. إبراهيم أنيس: من أسرار اللغة ط ٣ ص ١٠٨.

(3) د. شاهين : القراءات القرآنية ص ٣٢٣.

السامية أن معظم الكلمات العبرية المشتملة على شين ويكون لها نظائر عربية نلحظ أن النظير العربى يشتمل على سين مكان الشين فى الكلمة العبرية(١).

ويمكن أن نجد بعض الكلمات التى تنسب إلى لغة سامية وأخرى أجنبية، فكلمة (سريا) منسوبة إلى السريانية والنبطية واليونانية(٢) وكلمة (ابلعى) منسوبة إلى الحبشية والهندية(٣).

وهذا ما دافع به الإمام الشافعى فى رسالته، ودفاعه يتلخص فى نقطتين :

١ ـ لسان العرب واسع المذهب فلعل اللفظ المقول بأعجميته كان عربيا ولكنه لا يعلم عربيته إلا بعض العرب ممن بلغهم علمه، والقرآن ذاته يدل على أنه خال من الأعجمى.

٢ ـ أن ما جاء من الأعجمى موافقا للعربى يعد من باب توافق اللغات(٤).

وعلى نحو من هذا التوافق بين اللغات وعلم بعض العرب للكلمات دافع أبو عبيدة معاصر الشافعى فقال :

وقد يوافق اللفظ اللفظ ويقاربه ومعناهما واحد أحدهما بالعربية والآخر بالفارسية أو غيرها، فمن ذلك الإستبرق بالعربية هو الغليظ من الديباج وبالفارسية هو إستبره إلخ(٥).

وعلى هذا فاتهام الدكتور لويس للإمام الشافعى وأبى عبيدة بأنهما من دعاة العنصرية اتهام زائف لا أساس له من الصحة، وقد ثبت أن نظرية الإمامين العربيين المسلمين مبنية على أسس علمية وطيدة وليست لها علاقة بالتعصب أو الهوى أو صفة القداسة كما يزعم الدكتور.

ومع كل ذلك فإن علماء العربية لم يزعموا لأنفسهم التعصب ضد دخول الألفاظ الأعجمية فى القرآن الكريم، وهذا ابن فارس فى كتابه الصاحبى فى الباب

---

(١) د. أنيس : من أسرار اللغة ص ١١٤، ١١٥، وإسرائيل ولفنسون : تاريخ اللغات السامية ص ٢٠، ود. وافي : فقه اللغة ص ١٨.

(٢) أبو حاتم الرازى : الزينة فى الكلمات الإسلامية والعربية جـ ١ ص ١١٧، ١١٨.

(٣) المصدر السابق ١/ ١٢٧.

(٤) الرسالة للإمام الشافعى ط ١٣١٠هـ، ص ١٨، ١٩، وط ١٣٥٨ هـ ص ٤٢ ـ ٤٨.

(٥) أبو حاتم الرازى : الزينة ١/ ١٣٧، ١٣٨، وذكر الجواليقى فى المعرب ص ١٥ أنه فى الفارسية : إستفره أو إستروه.

الذى عقده بعنوان : (باب القول فى اللغة التى نزل بها القرآن وأنه ليس فى كتاب الله جل ثناؤه شىء بغير لغة العرب)[1] يعرض آراء العلماء فى قضية وقوع المعرب فى القرآن سواء منهم المانعون من الوقوع أو القائلون به، وإنه لفى غاية الأسلوب العالى والبحث الموضوعى حين صرح بأن اختلاف الرأى أمر يرد فى كل بحث علمى، وأنه لا مانع من الاختلاف فذلك شىء طبيعى، قال أحمد بن فارس : ليس كل من خالف قائلا فى مقالته فقد نسبه إلى الجهل، وذلك أن الصدر الأول اختلفوا فى تأويل آى القرآن فخالف بعضهم بعضا، ثم خلف من بعدهم خلف فأخذ بعضهم بقولٍ وأخذ بعضهم بقولٍ حسب اجتهادهم وما دلتهم الدلالة عليه[2].

وهذه الآراء التى قالوا بها مبنية على أسس وأدلة قوية لكل منهم وليست دعاوى مفتراة كالتى يحاولها الدكتور لويس.

وعلى هذا فاتهامه فقهاء اللغة العربية بالتعصب اتهام غير موضوعى، بل إنهم قالوا بوقوع المعرب فى اللغة العربية وعقدوا له أبوابا فى كتبهم مثل ابن جنى الذى عقد بابا فى كتابه الخصائص عنوانه : (ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب)[3]، وذكر فيه بعض طرائق التعريب، وهناك كتب المعربات كالمعرَّب للجواليقى وشفاء الغليل للشهاب الخفاجى وغيرها مما ألف العلماء فى ذلك كثير.

واتهام الدكتور لويس للعربية بأنها لغة حديثة ـ لأن العرب أحدث من غيرهم ـ اتهام لا يجد الدليل، فقد بنى رأيه على أن العرب موجة قادمة إلى الجزيرة من خارجها وأنهم قدموا من القوقاز وأرض الرافدين[4]، مع أن حقائق التاريخ تخالفه وتنفى ما يقول، فالجزيرة العربية هى مهد الساميين باعتراف المحققين من الباحثين والمؤرخين، ومن المسلم به أن العرب هم الطائفة السامية الوحيدة التى لم تغادر الجزيرة منذ قرون سحيقة قبل الإسلام بل قبل الميلاد وظلت فى الجزيرة ممثلة للساميين الأولين.

---

(١) الصاحبى ص ٤١ وما بعدها.

(٢) المصدر السابق ص ٤٦.

(٣) انظر الخصائص ١/ ٣٥٧ وانظر : المنصف له أيضا ١/ ١٨٢.

(٤) انظر كتابه ص ٣١ وما بعدها.

فقول العلامة الأستاذ أحمد شاكر : إن العربية من أقدم اللغات والعرب من أقدم الأمم قول سليم تدعمه المكتشفات العلمية والبحوث الجيولوجية والآثار، وقد تحدثنا من قبل عن ذلك بالتفصيل[1].

ومع هذا فالعربية - كغيرها - تتبادل ألفاظا من لغات أخرى تبعا لضرورة الاتصال الحضارى بين الأمم ولا يعد ذلك عيبا ينال منها أو ينتقص من قدرها.

وقد حاول الدكتور لويس أن ينفر من هذا الاتجاه فادّعى أن العرب يعتبرون اللفظ المعرب نجاسة تلحق باللغة، وهذا التعبير لم يوفق فيه صاحبه؛ لأن الكلمة الأجنبية التى تحتاجها اللغة، عن طريق نقل اسم معين لمخترع معين مثلا - إذا لم يوجد فى اللغة العربية ما يعبر به عنه - هذه الكلمة الأعجمية تعد داخلة فى نطاق لغة العرب وجزءا لا يتجزأ منها، ولا يعد ذلك عيبا، بل ربما كان اللفظ بعد تعريبه أحسن موقعا من نظيره العربى فلا يعد نجاسة كما زعم، ولذا فإنه بالتعريب يدخل فى كلام العرب وما قيس على كلام العرب فهو من كلامهم كما قال ابن جنى.

والذى يمنعه علماء العربية المحققون أن يفتح الباب على مصراعيه للدخيل كما يريد الدكتور لويس فإن ذلك من شأنه أن يفسد اللغة ويقضى على خصائصها وسماتها، وقد حاول علماء العربية أن ينبهوا على عدم الإكثار من الدخيل، أما استعماله عند الضرورة فهذا شيء لا عيب فيه.

ودعوى الدكتور لويس أن هذه المحافظة شطرت العربية إلى شطرين فصيح ودارج دعوى غير صحيحة، بل بالعكس فطبيعة الانضباط وعدم التهاون هى التى حفظت لنا لغة القرآن سليمة حتى الآن.

والتعليل العلمى والتاريخى لهذا الانشطار راجع إلى اختلاط العرب بغيرهم من الأمم التى دخلت فى حوزة الإسلام، واستعمال العربية فى هذه المجتمعات فدخلت فى صراع مع لغاتها الأصلية وخرجت على إثره منتصرة عليها لكنها تأثرت بها ونالها الخلل - على المستوى الشعبى - مما أفقدها بعض جوانب صحة العبارة وبعض الجوانب الصوتية والمفردات وقضى على الإعراب الذى كان أصلا من أصولها.

---

(١) انظر حديثنا عن موطن العرب فى الفصل السابق.

ومع ذلك استمرت العربية الفصحى منذ بدأ الإسلام حتى الآن تنطق بطريقة تقرب - إن لم نقل تماثل - ما كان ينطق به أسـلافنا وتفهم فى جميع الأوساط على المستوى الشعبى أو الرسمى وهذا جعل صلاتنا بتراثنا الإسلامى والحضارى مستمرة وستظل كذلك إن شاء الله.

ومن هنا طولب العـربى بأن يستعـمل الألفاظ والعبـارات التى يستـمدها من العربية أصلا، ولا يلجأ إلى المعرب إلا للضرورة.

وإن فتح الباب على مصراعيـه لكل دخيل من شأنه أن يقوض صرح اللغة، ولا يمكن أن تقارن العربية فى ذلك بأية لغة أجنبية فللعربية طابع متميز.

فقد احتفظت - والحمد لله - وستظل - بإذن الله - تحـتفظ بطابعها كما كانت منذ أكثر من ستة عشر قرنا.

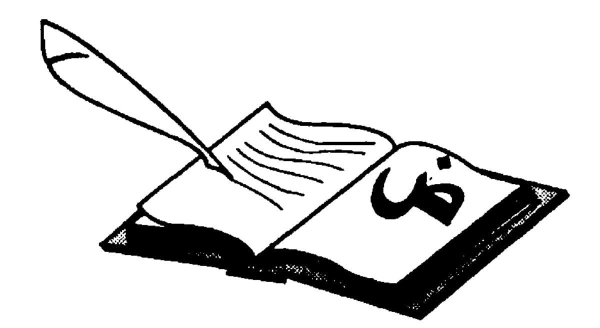
ولو فتح الـباب للدخيل كـالأجنبيـات لانماعت وتلاشت، ونحن نلاحظ أن الإنجليزية التى يتحدث عنها الدكتور تتـغير كل مائة سنة تقريبا؛ ولذا فإن من يرجع إلى الإنجليزية التى كتب بها شكسـبير لا يفهم منها إلا القليل[1]؛ فإذا رجع إلى عهد تشوسر لم يستطع أن يفهم أو يعى ما يقوله هذا الشاعر الكبير[2].

أمـا تراث العربيـة فمـوصول الأواصـر لبقـاء معظم الألفـاظ والتعـبيـرات مستعملا، وقـد فتحت العربية طرقا كثيرة كالاشتقـاق والمجاز والقياس وغيرها من الوسائل لنمو العربية ومجاراتها للحضارة والعلوم.

---

(١) على الرغم من أنه ليس بين العصر الحديث وبين شكسبير أكثر من أربعة قرون.

(٢) د. إبراهيم أنيس : طرق تنمية الألفاظ فى اللغة، من ص ٩ : ١١.



٣

ض
ض
ض
ض
ض
ض
ض
ض
ض
ض

الباب الثالث

فى فقه اللغة المقارن

تمهيد فى (علم اللغة) و (فقه اللغة) المقارنين:

يقترب مصطلح (علم اللغة) من مصطلح (فـقه اللغة) عند العرب والفرنجة، فعلماؤنا القدامى كانوا لا يفرقون بين المصطلحين، فهما عندهم بمعنى واحد داخل أساسا فى (علوم اللغة العـربية)، لكنهما يختلفان عن مصـطلحات العلوم العربية الأخرى من نحو وصرف وبلاغة وأدب بمعناها التعليمى.

فكلا هذين المصطلحين يعنى : علم الكلام بمعنى معرفته وفهمه، إلا أنه فى الثانى (فقه اللغة) فهم عميق وبحث دقيق.

وتابع محدثو العـرب القدماء فى ذلك فقالوا : «وأما بحوث عـلم اللغة فقد درس المؤلفون من العرب بعضـها تحت أسماء مختلفة، أشهـرها اسم (فقه اللغة)، هذه التسمـية هى خير ما يوضع لهذه الـبحوث، فإن (فقه اللغـة) هو كل ما يتصل بفلسفته، وفهمه، والوقوف على ما يسير عليه من قوانين».

وعند الفرنجة نجد الربـط واضـحـا بين المصـطـلحين، فالأول (عـلم اللغة) ـ عندهم ـ هو : Linguistique science du langage.

بمعنى (العلم المختص بالكلام أو اللغة).

والثانى : (فـقه اللغـة) ـ عندهم ـ هو : Philologie والمركب من كلمـتين إغريقيتين، الأولى Philos ومعناها(صديق)، والثانية Logos ومعناها : الكلام أو الخطبة.

فـالمعنى العـام هو : حب الكلام للتـعـمق فى مـعـرفـة قواعـده وأصـوله وتاريخه[1].

والمسـتشـرقون الـذين قامـوا بالتدريـس فى الجامـعات المصـرية اسـتعـملوا المصطلحـين (علم اللغة) و (فـقه اللغـة) متـقاربى المعنى، فـقد كـانوا كلهم، أو معظمهم من العلماء المعنيين بالدراسات السامية المقارنة، وهذه الدراسات ـ كما هو معروف ـ دراسات فيلولوجية بالدرجة الأولى[2].

---

(١) دراسات فى فقه اللغة د. صبحى الصالح ص ٣، ٤.

(٢) دراسات فى علم اللغة د. كمال بشر ص ١٢.

وهى دراسات - فى الأعم الأغلب - تقوم على بحث العلاقات التاريخية بين العربية وسائر اللغات السامية، أو دراسة المفردات على أساس تاريخى، أو ما قارب ذلك، ونمَّى هذا الاتجاه جيل من أساتذة معهد اللغات الشرقية بجامعة القاهرة[1].

بل إن الأستاذ جويدى - الذى كان أستاذا لفقه اللغة العربية فى كلية الآداب بالجامعة المصرية سنة ١٩٢٦م - يذكر أن كلمة Philology يصعب تفسيرها، وترجمتها إلى العربية، وأن بعضهم جعلها تشمل ذلك، وتشمل معه الحياة العقلية بكل وجوهها، فتشمل تاريخ اللغات، والمقارنة بينها، وعلم الأدب بمعناه الواسع، فيدخل تاريخ الآداب، وتاريخ العلوم دينية أو فلسفية أو لغوية، فهو علم واسع الدائرة، وعلى (الفيلولوج) - إذا حاول أن يدرس درجة التمدن عند شعب ما - أن يدرس كل العلاقات، والحوادث السياسية، والتاريخية لغوية ودينية وأدبية وغيرها، وذلك باب واسع عسير جعل الأستاذ جويدى نفسه يقول : إن معرفة كل ذلك صعب، ولا يمكن لباحث أن يجيد كل أجزائه»[2].

ولكن الدكتور كمال بشر يعدُّ (فقه اللغة) بمفهومه القديم والحديث حلقة من حلقات الدروس فى (علم اللغة) بناء على التأثر بالدراسات الغربية التى اعتمدت تقسيم الدراسات إلى نوعين :

أ) نوع خاص بدراسة لغة معينة، أو طائفة متشابهة من اللغات، وقد أطلقوا عليه اسم (فقه اللغة).

ب) نوع عام يشمل دراسة ظواهر اللغات جميعا لاستخلاص مبادئ وأحكام عامة تنطبق عليها، وقد أطلقوا عليه اسم (علم اللغة).

ويرى - ونحن نتابعه فى هذا الرأى - أنه لا مانع من الاحتفاظ بالمصطلح (فقه اللغة) لارتباطه بتاريخ طويل، وتقليد ممتد عبر القرون فى الدرس اللغوى العربى السامى بوجه عام[3].

---

(١) علم اللغة د. محمود السعران ص ٢٢.

(٢) النثر الفنى فى القرن الرابع د. زكى مبارك ص ٣٧ - ٤٠ بتصرف.

(٣) دراسات فى علم اللغة - القسم الثانى - ص ٤٩.

ويطلق بعض اللغويين العرب مصطلح (فـقه اللغة المقارن) بمعنى (علم اللغة المقارن)[1].

ولا نرى بأسا فى استعمال المصطلح (فقه اللغة المقارن) سواء أكان ذلك فيما يختص بالعـربية والساميات أم يـشملها وغيرها مـن اللغات الأخرى ما دمنا نعـتقد تقارب المـصطلحين، ولأنه أوثق صلة بمعـالجة أمـور ترتبط ـ على نحو أسـاسى ـ بالعربية وأخواتها السامـيات، وهو فى رأينا مصطلح واضح بخلاف نظيره الأوربى Philology فإنه متعدد المعانى، كما ذكر ذلك جويدى تبعا لاستعماله فى الدراسات الأوربية بمعان شتى[2].

(١) مثل الدكتـور السيد يعقوب بـكر فى كتابه : دراسات فى فقـه اللغة العربية وهو يشـتمل على دراسات فى العربية فى ضوء علم اللغات السامية المقارن.

(٢) انظر رأيا آخر للدكتور محمود فهمى حجازى فى كتابه أسس علم اللغة العربية ص ٣٧

أولا : المنهج المقارن[١]

تعريفه وبيان ما يجرى فيه من اللغات :

هو هذا المنهج الذى يقوم على البحث فى لغتين أو أكثر بالكشف عن الأصول المشتركة بينهما.

أو هو المنهج الذى يدرس الظواهر الصوتية والصرفية والنحوية، والمعجمية فى اللغات المنتمية إلى أسرة لغوية واحدة أو فرع من أفرع الأسرة اللغوية الواحدة[٢].

وهو يجرى فى اللغات القديمة معتمدا على المنهج التاريخى، كما يجرى فى اللغات الحديثة ويكشف عن وجوه الصلة والشبه بين لغتين أو أكثر ليرجعها إلى أصل عام واحد يسمى باللغة الأم التى تفرعت منها هذه اللغات، كما يمكن معرفة عدم المشابهة بين اللغات فلا تنتمى إلى أسرة لغوية واحدة.

وهذا يقتضى البحث فى الأصوات ومقابلاتها الفنولوجية وفى المفردات والتراكيب النحوية الأساسية[٣].

وبدراسة الكلمات التى تحتوى على فونيمات معينة نكشف عن وجود تقابل فنولوجى بين مجموعة اللغات المدروسة كمجموعة اللغات (السنسكريتية واليونانية،

---

(١) تعنى كلمة «المقارن» ـ فى معاجم اللغة العربية ـ «المصاحب» جاء فى لسان العرب «مادة قارن» «قارن الشىء بالشىء مقارنة وقرانا قرنه به وجعله مصاحبا له. وقارن الشىء الشىء اقترن به وصاحبه».
فالمقارن ـ على هذا ـ المصاحب وهذا يقتضى المعاصرة الزمنية للشيئين المتصاحبين أو المقترن أحدهما بالآخر، وهذا المدلول لا يتفق هو والموازنة المعروفة فى كتب اللغة والأدب، والصحيح أن يقال: «الأدب الموازن أو علم اللغة الموازن».
ففى القاموس المحيط مادة «وزن» «وازنه بمعنى عادله وقابله وحاذاه» وذلك دون نظر إلى الفارق الزمنى، ومن هنا وردت عدة مؤلفات فى الأدب العربى مستعملة كلمة «الموازنة» مثل كتاب «الموازنة بين أبى تمام والبحترى» للآمدى، وكتاب «الوساطة بين المتنبى وخصومه» للجرجانى، وفيها تعقد الموازنة بين طرفين لبيان ما قال أحدهما فى أحد الموضوعات وما قال الآخر فيه نفسه وإظهار ما جدد كل منهما فى هذا الموضوع وما أخذه الأول عن الثانى وما قصر فيه أحدهما عن الآخر ولم يلحظ فى ذلك الفارق الزمنى أو تأثيره من تغيير وتبديل نتيجة للتطور التاريخى.
ولما كانت الموازنات اللغوية والنقدية تتم بين أطراف غير متزامنة، وفى ظروف مختلفة اعتبرت كلمة «المقارن» غير صحيحة فى هذا المجال وأن التسمية «الأدب المقارن» أو «علم اللغة المقارن» تسمية مغلوطة وصوابها «الأدب الموازن»، «علم اللغة الموازن» لكن ما قيل أنه خطأ قد أصبح شائعا معروفا متداولا بين الباحثين ولشهرته أطلق واستعمل. انظر : فقه اللغة المقارن للدكتور إبراهيم السامرائى ص ١٨٣، ١٨٤.

(٢) أسس علم اللغة ص ٣٦ د. فهمى حجازى، وانظر : أسس علم اللغة لماريوباى ص ١٦٨.

(٣) اسس علم اللغة لماريوباى ص ١٧٠.

واللاتينية والسلافية القديمة، والكلتية القديمة)، فعلى حين نجد أن بعضها يشتمل على صوت الـ «p» فى أول الكلمة نجد بعضها الآخر يضع مكانه صوت الـ «f» وبعضا آخر صوت الـ «h» وأحيانا لا نجد لهذا الصوت مقابلا فى بعض ثالث.

وعلى هذا النمط من الدراسة والبحث وضعت جداول توضح التقابلات الفنولوجية بين اللغات تؤدى إلى أنه إذا ظهر صوت «p» فى أول الكلمة فى لفظ فى السنسكريتية واليونانية واللاتينية والسلافية فسيظهر فى شكل «f» فى الجرمانية، وفى شكل «h» فى الأرمينية وسيسقط تماما فى اللغة الكلتية.

وهذا يوضح العلاقة بين هذه اللغات ويعطى صورة عن الأم الأولى، وعلى هذا يمكن أخذ عينات من المفردات اللغوية، وأخرى من الفونيمات التى تأخذ دورا بارزا فى الكلمات المتقابلة فى مختلف اللغات، وعينات من التركيبات النحوية، وبخاصة المتطابق منها، ومنها نتصور اللغة الأم، ولو بصورة تقريبية - على الأقل بمظاهرها وصيغها[1] وندرك الصلة بين مجموعة اللغات الهندية الأوربية (الإنجليزية - الألمانية - الإسكندنافية - اللغات الرومانية - السلافية - اللغات الفارسية - الهندية الشمالية - اليونانية - الألبانية - الأرمينية، ولغات أخرى تعرضت للانقراض منذ آماد بعيدة).

ومع البحث الدقيق أمكن تقسيمها - فيما بينها - إلى مجموعتين على أساس الاختلاف الصوتى بينها، كما قسمت أقساما أخرى على أساس من هذا البحث. وهذه المجموعة لاقت علاجا كبيرا واستخلصت لها نتائج دقيقة بل أكثر دقة من غيرها.

كما يمكن بالدراسة المقارنة استبعاد عدد آخر من المجموعة مثل الفنلندية والتركية والعربية والصينية واليابانية وعدد آخر من اللغات، وهذه اللغات تكون مجموعات أخرى لغوية يمكن تطبيق القوانين المقارنة عليها، وهذه نتيجة هامة من نتائج البحث المقارن، ويمكن على هذا الأساس تصنيف كثير من لغات العالم الهامة قديمها وحديثها إلى عائلات[2]، ويمكن عن طريق المنهج المقارن معرفة كيف

(١) المصدر السابق ص ١٧٠.

(٢) المصدر السابق ص ١٧١.

تباعدت لغتان قريبتان أو أكثر فى مراحل تاريخية بأخذ عينات من المفردات لبيان المشترك منها فى اللفظ والمعنى والمختلف ومقدار كل منهما على سبيل الإحصاء، ويمكن معرفة الزمن الذى اختلفت فيه وإن كان هذا غير دقيق.

وهذا اللون من الدراسة ينبغى الحذر فيه لأن به صعوبات كثيرة فى اختيار العينات واستبعاد ما يمكن إبعاده منها ومعرفة القدر من الدلالة المشتركة أو المختلفة والجوانب الحضارية التى اجتازتها كل واحدة من اللغتين وقت الاتصال ووقت الانفصال، ومدى تمثيل معانى الكلمات لهذه الحضارة أو تلك.

ولابد فى تلك الدراسة من استقصاء سبل البحث المقارن بين هاتين اللغتين من النواحى الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية، فيمكن أن نصل إلى درجات الاختلاف التى أدت إلى انشعاب لغة عن أخرى، ويمكن تحديد علاقة الحاضر بالماضى من الفرعين اللغويين الحديثين، وهى دراسة تطبيقية تتعرض للصواب والخطأ وتعتمد على استنتاجات اللغوى وفهمه الدقيق[1].

وكان كشف اللغة السنسكريتية على يد الأستاذ دانيال جونز فاتحة الدراسة المقارنة التى مكنت العلماء فى القرن التاسع عشر من بحث وجوه الشبه بين مجموعة اللغات الهندية والأوربية فعرف كثير من أوجه الشبه وصلات القربى بين اللغات الهندية والإيرانية وبين اللغات الإغريقية واللاتينية والجرمانية، كما أمكن انتقال البحث من تلك المجموعات إلى غيرها من اللغات الأخرى التى تتشابه فيما بينها، فطبق على مجموعة اللغات السامية التى لا يزال العلماء يبحثون عن الأصول التى تشترك فيها وترجعها إلى أم واحدة، ثم امتد هذا البحث المقارن إلى جميع اللغات الإنسانية.

وقد أمكن بمعرفة أوجه التشابه والاختلاف إيجاد طوائف لغوية تنتمى إلى عائلة واحدة، وتدل هذه التقسيمات التى أجراها الباحثون على انتماء كل طائفة

---

(١) المصدر السابق ص ١٧٨ - ١٨٠.

ورجوعها إلى أصل واحد نشأت عنه وتفرعت منه فى عصور تاريخية متقدمة، وقد أدت هذه البحوث إلى نشأة فروع للدراسات اللغوية المقارنة فى اللغات:

١ـ البحث المقارن فى اللغات الهندية الأوربية :

هذا يتعلق ببحث الصلة والتشابه بين اللغات التى تنتشر فى الهند وأوربا وإيران، ببيان السمات المشتركة بينها، وهى تضم أصنافا شتى من اللغات كاللغات الجرمانية واللغات الرومانية واللغات السلافية، ولكثرتها وتشعبها رأى العلماء اختصاص الدراسة المقارنة بكل فرع على حدة :

لذا انقسمت الدراسة فى هذه الطائفة إلى أقسام :

(أ) البحث المقارن فى اللغات الجرمانية :

ويقوم على العمل فى حقل اللغات التى تنضوى تحت هذا الإطار كاللغة الإنجليزية واللغة الألمانية واللغة الدنيمركية وما إلى ذلك، كما يتناول لهجات هذه اللغات ونحوها.

(ب) البحث المقارن فى اللغات الرومانية :

ويشمل ما تتضمنه من لغات قديمة كاللغة اللاتينية وما تفرع منها من لغات حديثة كالأسبانية والإيطالية والفرنسية واللهجات المتفرعة منها ليقارن الحديث بالقديم من هذه اللغات وبما شاع من لهجات دارجة أو شعبية.

(جـ) البحث المقارن فى اللغات السلافية :

ويشمل ما تتضمنه من لغات عديدة منها اللغة الروسية والتشيكية والسلوفاكية والبولندية، وكذلك اللغات الأكرانية والصربية والبلغارية وغيرها.

٢ـ البحث فى العائلة الصينية التبتية :

وتضم معها لغات لها صلة بها كالتيلاندية والبورمية والتبتية وما دخل بعض اللغات من ألفاظها كاليابانية والكورية، وهى عائلة قديمة من اللغات ذات حضارة عريقة تماثل نظيراتها الهندية الأوربية ومع أن لغتها المكتوبة تتصل بالصور العقلية أكثر من صلتها بالأصوات المتكلمة أمكن بدراستها ودراسة معاجم اللغات المتصلة بها التوصل إلى نتائج لغوية لها دلالة خاصة تؤدى إلى معرفة اللغة الأم.

٣ـ البحث المقارن فى مجموعة اللغات الأورالية والألطائية :

وتضم لغات متأخرة نسبيا كاللغات القوقارية ولغات إندونيسيا والفلبين ومدغشقر وسامو ونيوزيلاندة وهاواى.

٤ـ البحث فى مجموعات أخرى:

كالعائلة الدرافية ـ فى جنوب الهند ـ والعائلة الهندية الأمريكية، ولم يصل العلماء بشأنهما وشأن غيرهما من بعض لغات زنوج إفريقية ولغات المواطنين الأستراليين الأصليين إلى نتائج(١).

٥ـ البحث المقارن فى اللغات السامية :

تضم هذه الطائفة مجموعة اللغات العربية بفرعيها الشمالى والجنوبى، والآرامية، والأكدية، والعبرية، والأجريتية، والفينيقية، والحبشية(٢).

---

(١) أسس علم اللغة لماريوباى ص ١٧٥، ١٧٦، وأسس علم اللغة للدكتور محمود فهمى حجازى ص ٦٤، وانظر فصائل أخرى فى كتابنا : علم اللغة بين القديم والحديث ص ٣١.

(٢) تنتمى الفينيقية والعبرية والأجريتية إلى اللغات الكنعانية وهى من اللغات السامية الشمالية والغربية والأجريتية مقرها شمال الشام وتعد أقدم لغة وصلتنا من لغات الفرع الكنعانى الشمالى، وتنسب إلى مدينة «عتيقة» تسمى (اجريت) اكتشفت سنة ١٩٢٩م (راس شمراء على الساحل السورى) وكشفت فى طائفة من النقوش، وتحمل سمات قديمة كثيرة؛ لأنها دونت سنة ١٤٠٠ ق.م (اسس علم اللغة د. فهمى حجازى ص ١٥٨).

واللغة الفينيقية لغة ساحل فلسطين وسورية ولبنان، وكان للفينيقيين مواطن فى مناطق من جزر البحر المتوسط ووجدت لها نقوش فى رسائل تل العمارنة ـ بصعيد مصر ـ وفى حوض البحر المتوسط وعلى الساحل الأوربى جنوبى أسبانيا وفى امتدادها فى المغرب تسمى (اللغة البونية) على الساحل التونسى (حوالى القرن التاسع ق.م).

والآرامية من اللغات الشمالية الغربية وهى ـ كما قسمها نولدكه :

١ ـ الآرامية القديمة، وهى آرامية العهد القديم وآرامية التلمود البابلى (حتى سنة ٧٠٠ ق. م).

٢ ـ الآرامية الرسمية أو آرامية الدول (من ٧٠٠ ـ ٢٠٠ ق. م).

٣ ـ الآرامية المتوسطة من (٢٠٠ ق.م ـ ٢٠٠ ب. م).

٤ ـ الآرامية المتأخرة، وهى التى كانت تستعمل فى مناطق معلولة وكردستان والقوقاز.

٥ ـ الآرامية الحديثة، وهى ما استخدم بعد ذلك إلى الآن.

والأكدية من اللغات الشمالية الشرقية فى العراق وتنسب إلى أكد وهى أول مدينة سكنها الساميون الوافدون فى شمال بابل تمييزا لها عن السومرية فى جنوب العراق وتشمل فرعين :

١ ـ البابلية (قديمة من ٢٠٠٠ ـ ١٥٠٠ ق.م)، (متوسطة من ١٥٠٠ ـ ١٠٠٠ ق.م)، (متأخرة أو حديثة من ١٠٠٠ ـ ٦٠٠ ق.م).

٢ ـ الأشورية مثل البابلية تماما (قديمة ومتوسطة وحديثة).

ومع أن هذه البحوث لاقت رواجا كبيرا فى الهندية الأوربية ووصلت إلى نتائج أكثر دقة من غيرها نرى أن البحوث التى جرت فى الساميات لم تقل شأنا وسلوكا عن الهندية الأوربية، فالمسجلات اللغوية السامية ترجع إلى زمن أسبق من اللغات الهندية الأوربية. وقد لعبت دورا مهما فى الحضارة الإنسانية، وأن فقه اللغة السامى والحامى ـ بدافع من الاهتمام التاريخى العام ـ قد أصبح من الناحية العملية على قدم المساواة فى الأهمية مع فقه اللغات الهندية الأوربية.

وكانت مجموعة اللغات الحامية فى وقت ما تنتشر فى كل إفريقية الشمالية وكانت تتكلم فى ليبيا ونوميديا إلى أن حل محلها ـ جزئيا ـ لغات سامية وفدت ـ أولا ـ على أيدى الفينيقيين (فينيقيى قرطاجنة) ومؤخرا على أيدى العرب[١].

ثانيا: نشأة البحث المقارن فى اللغات السامية

لا شك أن بعض علماء العربية من المتقدمين كانوا على معرفة بلغاتهم الأصلية وبعض اللغات الأخرى من حولهم مما جعل لذلك أثرا كبيرا فى دراساتهم اللغوية.

من هؤلاء سيبويه الذى يشير فى كتابه إلى لغته الأصلية الفارسية، ويعقد بعض الأبواب فى هذه اللغة كالباب الذى عقده بعنوان : (باب اطراد الإبدال فى الفارسية)[٢] وشارح كتابه السيرافى أيضا من أصل فارسى[٣].

كذلك أبو على الفارسى كان ـ بلا ريب ـ يعرف الفارسية وتلميذه ابن جنى ـ الذى تتلمذ عليه أربعين سنة ـ كان على معرفة بهذه اللغة، ويتبين ذلك من محاوراته مع أستاذه الفارسى، وما ضمنه كتبه كالخصائص (باب فى أن ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب)، و (باب القول على أصل اللغة أإلهام هى أم اصطلاح) إلى جانب معرفته بلغته الأصلية الرومية، ولغات أخرى.

---

(١) ماريوباى ص ١٧٤.

(٢) ٢ / ٢٤٢.

(٣) انظر أحسن التقاسيم للمقدسى ط ليدن ١٩٠٠ ص ١٣٦.

وأثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن على كان على معرفة باللغة الحبشية واللغة التركية والفارسية، وقد وصلنا بعض مؤلفاته فى نحو الحبشية والنحو التركى ونحو الفارسية[1].

وكذلك أبوالفرج بن العبرى[2] جمع بين الثقافتين العربية والعبرية وألف بعض الكتب بالسريانية والعربية[3].

والمطالع لآثار ابن حزم وما كتب عنه يرى أنه كان على معرفة بالسريانية والعبرية إلى جانب العربية[4].

فهؤلاء وغيرهم من علماء العربية والمؤلفين فيها كانوا على دراية بغير العربية فمكنهم ذلك من المقارنة بينها وبين بعض أخواتها الساميات أو الأجنبيات عنها كالفارسية والرومية والتركية، وهذا ونحوه أدى إلى اكتشاف أوجه التشابه والاختلاف بين ما هو من أصل واحد وما هو من أصول أخرى كالفارسية والتركية مما ينتمى إلى مجموعة اللغات الهندية الأوربية أو غيرها وهى بعيدة عن أصول العربية واللغات السامية المشابهة لها.

ومن هنا يمكن أن نقول : إن المقارنات فى اللغات السامية كانت أسبق ظهورا من نظيراتها فى اللغات الهندية الأوربية وغيرها.

فقد تنبه علماء الشرق إلى مثل هذه المقارنات فى المجموعة السامية فحكموا بانتماء أفرادها (الأكدية[5] والآرامية والعبرية والعربية واليمنية القديمة والحبشية إلخ) إلى فصيلة واحدة.

وقد اكتشفت هذه العلاقات بين بعض هذه اللغات على يد بعض الباحثين الأوربيين فعرفت ـ منذ القرن العاشر الميلادى ـ وجوه الشبه بين العربية والعبرية إلى جانب علماء العرب الذين أدركوا هذه العلاقات ممن أشرنا إليهم من قبل.

---

(١) ت ٧٤٥ هـ من كتبه : نور الغبش فى لسان الحبش، والإدراك للسان الأتراك، وزهر الملك فى نحو الترك، ومنطق الخرس فى لسان الفرس. انظر بغية الوعاة للسيوطى ١/ ٢٨٣.

(٢) ت ١٢٨٦هـ.

(٣) يستعمل مصطلح السريانية ـ غالبا ـ بمعنى اللغة الآرامية؛ لأن السريانية هى الأثر الباقى حتى الآن من الآرامية القديمة.

(٤) انظر الإحكام فى أصول الأحكام لابن حزم بمراجعة أحمد شاكر، ط القاهرة، ففيه بعض المقارنات بين هذه اللغات المذكورة فى الأصوات والصيغ.

(٥) بفرعيها البابلى والآشورى.

وفى القرن السادس عشر استعان بعض علماء اللاهوت بمعرفتهم بالعربية فى فهم النص العبرى للعهد القديم وكذلك ما كتب منه باللغة الآرامية[1]، وقد أدى هذا إلى الموازنة بين العربية والعبرية والآرامية وإبراز أوجه التشابه.

وفى القرن السابع عشر اكتشفوا قرابة الحبشية والعربية بدراسة اللغة الجعزية[2] ومعرفة صلتها بالعربية.

ولم يمض أكثر من نصف هذا القرن حتى أدرك المستشرقون صلات القرابة بين معظم أفراد هذه الفصيلة السامية، وذلك قبل أن يكتشف الأوربيون رجوع أفراد المجموعة الهندية الأوربية إلى فصيلة واحدة على الوضع الذى اتضح فيما بعد[3].

وفى أواخر القرن الثامن عشر جاء عالمان ألمانيان هما شلوتزر وإيكهورن فأطلقوا على هذه المجموعة اسم اللغات السامية بناء على ما ورد فى سفر التكوين من التوراة بتقسيم الشعوب نسبة إلى أبناء سام وحام ويافث[4].

ومع تقدم البحوث اللغوية المتعلقة باللغات الهندية الأوربية فى القرن التاسع عشر وإرجاعها إلى فصيلة واحدة زادت المعرفة باللغات السامية وتقدم البحث فيها بالاعتماد على البحث التاريخى واكتشاف الآثار اللغوية فى عديد من النقوش التى عثروا عليها، ومنها ما يتعلق بالعربية الجنوبية والفينيقية والأكدية.

وقد تمكن اللغوى الألمانى جيزينيس Gesenius [5] من كشف الرموز التى قام عليها خط المسند فى بعض النقوش اليمنية وكانت له عنايته بالعبرية والآرامية وألف فى النحو والمعجم العبرى مما فتح المجال للتوصل إلى جوانب دقيقة فى الموازنات السامية.

ثم برزت اتجاهات لبعض الأوربيين ـ كذلك ـ فى دراسة لهجات سامية حديثة للعربية والآرامية والحبشية مما فتح الطريق أمام معرفة أوضح لهذه اللغات

---

(١) كتبت بها صفحات قليلة من بعض الأسفار.

(٢) الحبشية القديمة.

(٣) فقه اللغة للدكتور وافى ص ٣، ٤.

(٤) والواقع أن تسمية الشعوب فى هذا السفر لم تقم على أساس سليم إذ نظر فيها إلى الصلة اليهودية فمن حسنت صلته بهم جعلوه من الساميين ومن عاداهم لم يجعلوه منهم فنجد أن مؤلف هذا السفر جعل كنعان من غير أولاد سام، والحقيقة أن اللغات الكنعانية سامية الأصل وجعل (عيلام) من أولاد سام مع أن العيلامية ـ كما أثبت البحث اللغوى الحديث ـ لا تنتمى إلى اللغات السامية.

(٥) ١٨٧٦ ـ ١٨٤٢م.

فلم يكد ينتصف القرن التاسع عشر حتى كانت اللغات السامية ـ بفروعها المتعددة ـ فى صورة معروفة تماما فى ضوء المنهج المقارن الذى اتبع فى بحثها بحثا علميا منهجيا.

وقد لقيت الساميات دراسات مقارنة متعددة على يد جماعة من المستشرقين منهم رايت فى كتابه (النحو المقارن فى اللغات السامية)، وإدوارد هنكس فيما كتبه عن اللغة الأكدية، وكذلك بروكلمان فى كتابه (الأساس فى نحو اللغات السامية المقارن)(١) وتحدث فيه عن نظام العربية ولهجاتها وبعض الظواهر اللغوية فى اللغات السامية الأخرى، ثم اختصره باسم (علم اللغات السامية)، وكذلك هوميل وهاليفى وهفنر فى دراستهم لنحو العربية الجنوبية(٢).

وألف برجستراسر كتابه «التطور النحوى» فى العربية، وكتب أوليرى مؤلفا صغيرا فى نحو اللغات السامية سنة ١٩٣٣م.

وألف موسكاتى وسبيتالر وأولندروف وولغرام وفون سودن كتاب «المدخل لنحو اللغات السامية المقارن» وهو من أحدث ما كتب فى مجال المقارنات السامية.

وكتب بعض المحدثين من علماء العرب بعض المقارنات بين العربية وبعض أخواتها مثل (فقه اللغة المقارن) للدكتور إبراهيم السامرائى، و(فقه اللغات السامية) للأستاذ حامد عبد القادر، و(النحو المقارن) للدكتور يعقوب بكر، و(المدخل) للأستاذ عبد المجيد عابدين، و(بين العربية ولهجاتها) والعبرية للدكتور محمد بحر

---

(١) كتب الجزء الأول منه سنة ١٩٠٨.

(٢) من خلال النقوش ولهفنر كتاب فى ذلك.

العربية فى ضوء المقارنات اللغوية

١ ـ وحدة الأصل بين مجموعة اللغات السامية ومجموعة اللغات الهندية الأوربية :

بادئ ذى بدء نقول : إن الدكتور لويس يتبنى فكرة بعض المستشرقين الأوربيين الذين حاولوا إرجاع كلمات العربية والساميات إلى الأصول الهندية الأوربية، فقد أمسك بزمام الكلمات العربية وحاول ـ ما أمكنته المحاولة ـ أن يربطها بالهندية الأوربية بطرق أطلق عليها اسم القوانين الفونطيقية سالكا طريق الحدس والتخمين الذى لا أساس له من الصحة، ثم حمل حملة شعواء على علماء العربية من العرب وغيرهم متهما إياهم بالعصبية والعنصرية لا لشىء إلا لأنهم يؤكدون أصل العربية الخالص فلا يرضيه أن تسلم لها مفرداتها وتراكيبها، بل الذى يعجبه أن تكون كلماتها كلها راجعة إلى اللغات الهندية الأوربية.

ومن يقل بغير ذلك فهو فى رأيه عنصرى متعصب.

فقد وقف فى كتابه «مقدمة فى فقه اللغة العربية» جزءا كبيرا (من الفصل الرابع إلى الفصل الثانى عشر) لتفسير عدد ضخم من كلمات اللغة العربية على أساس أن يربطها بالأصل الهندى الأوربى أو غيره من الأصول اللغوية الأخرى غير السامية.

والدكتور لويس ـ تبعا للمستشرقين ـ يجعل الكلمات المتباعدة الحروف ترجع إلى أصل واحد محاولا التماسه التماسا متكلفا لا تؤيده قوانين علم الأصوات الحديث، ولقد نسى أو تناسى القوانين السامية لتبادل الأصوات فى العربية أو الساميات إذ يقوم التبادل على أساس التقارب بين الفونيمات (الوحدات الصوتية)، وإن علماء العربية حين يجدون الكلمات متقاربة الحروف مخرجا وصفة يحكمون بالإبدال، وحين يجدون البعد الصوتى بين الحروف يجعلون الكلمات راجعة إلى لغات مختلفة أو لهجات مختلفة لا يحكمون بتطور بعضها عن بعض.

كما اتخذ الدكتور لويس ـ تبعا لبعض المستشرقين أيضا ـ أن يفسر نشأة الكلمات العربية من الأصل الهندى الأوربى وفق نظرية الثنائية اللغوية مع أن هذه النظرية لم تثبت بوضوح فى الأبنية اللغوية حتى الآن مما يجعل محاولته للتفسير محاولة غير علمية إذ لا دليل عليها فلا يقبل حكمه على الكلمات بأنها من أصول هندية أوربية.

وسنضرب أمثلة لتحليله بعض الكلمات العربية ـ حسب زعمه ـ ثم نفند ما يتعارض مع ما سماه الفونطيقية.

ففى مجال الصوامت ـ الحلقية وغيرها ـ يذكر كلمات كثيرة منها ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ ما يلى :

١ ـ كلمة «حبل» العربية وكلمة «كابل» Cable فى اللغات الأوربية هما صيغتان من نفس الكلمة خرجتا من «كلد»، أى أن أصلهما «كدل» ثم خرجت منهما «كابل» cable و«حبل»، و«كابل» فى صورتها الهندية الأوربية الموجودة فى صلب اللغة العربية، والدليل على ذلك فعل «كبَّل» «تكبيلا» بمعنى قيد أو ربط الحبل «قانون تبادل السقف حلقيات الشفوية»[١].

٢ ـ كلمة «خبز» فى العربية نجد جذرها من كبسنيس Kepsnis اللتوانية بمعنى «مطهو»، والجذر الهندى الأوربى Keps وهو يبدأ بالكاف K التى هى صورة من الجيم المعطشة[٢].

٣ ـ «راحة اليد» يقول : وفى تقديرى أن راحة اليد فى العربية من جذر Wrist الهندية الأوربية فى مجموعة لغوية خاصة تنطق الحاء مكان السين[٣].

وفى مجال الصوامت والصوائت (الحروف الساكنة والحركات) يدعى أن ألف «حاج» فى العربية بدل من اللام أو الواو فى حلج أو حوج، وهى ترجع إلى «خوج» فى المصرية القديمة والواو تحولت إلى لام، وقد ظهرت هذه اللام من الواو أو الياء الأصلية فى بعض الصيغ الهندية الأوربية كما فى الإنجليزية والألمانية واختفت فى بعضها الآخر فحلت المدة محل الواو أو الياء فى قلب الكلمة كما فى العربية واليونانية[٤].

وعلى أساس من نظريته عرض ما قدمناه ليفيد رجوع الكلمات (حبل) و(خبز) و(راحة اليد) و (حاج) إلى اللغات الهندية الأوربية غير أننا نرى أن القوانين الصوتية واللغوية تأبى ما زعمه؛ إذ الحاء والخاء لا تتبادل مع الكاف، فالمخارج مختلفة لأن الحلقيات لا تتبادل مع اللسانيات، وزعمه أن ألف حاج مبدلة من اللام أو الواو يعارضه جذر المادة المضعف فى العربية (حجَّ) وأن قواعد صياغة اسم الفاعل أو الفعل المزيد على فاعل يقتضى وجود ألف زائدة فى حاج دلالة

---

(١) ص ٢٠٠، ٢٠١.

(٢) ص ١٩٧.

(٣) ص ٢٧٠.

(٤) ص ١٦٧، ١٦٨.

على الحدث وصاحبه أو المفاعلة كما يقول النحاة العرب ولا علاقة لهذه الألف بلام أو واو حسب الزعم الذى ذهب إليه وبهذا تبطل دعوى ربط هذه الكلمات بالأصول الهندية الأوربية التى ذكرها.

ومما فسره على أساس الثنائية كلمة «خوارج» التى ذهب فيها مذهبا غريبا ليربطها بالأصل الهندى الأوربى يقول : (ومن الناحية السيمانطيقية يبدو فى الظاهر أن «خوارج» من خرج (على القانون أو الدين إلخ) ولكن كل هذه الصيغ لا صلة لها بفعل خرج يخرج فى العربية وإنما جذرها يعنى السقوط أو الاعتداء من (خر) بمعنى سقط أو اعتدى أو شاغب ويعنى الإجرام (جرم Grime) بمعنى السقوط أيضا، فهى تنتمى إلى جذر (خر) و(خرو) فى المصرية القديمة والكلمة الهندية الأوربية بمعنى Grime جرم «جريمة»[1].

ونرى أن ما نفاه الدكتور لويس من رجوع كلمة (خوارج) إلى الخروج على القانون والدين هو الحق.إذ إن المادة فى اللغة العربية تدور حول معنى عام واحد هو مجاوزة الأمر الذى أُلف والكلمات المأخوذة من الأصل الواحد تدخل فى إطار المعنى اللغوى العام وتلك ميزة للعربية على ما سواها، أما ما ادعاه من وصلها بالجريمة أو الاعتداء أو السقوط فلا صلة للمادة اللغوية العربية به من قريب أو بعيد وربطها بالجذر الثنائى (خر) ومعناه السقوط لا دليل عليه.

وهذا الذى ذهب إليه الدكتور لويس ليس من عنده بل هو رأى سادته المستشرقين، فبعضهم لحظ الشبه لا بين العربية واللغات الأوربية فحسب بل بين الساميات والآريات كافة ومنهن السنسكريتية أى الهندية القديمة، بل إن منهم من طابقوا جميع الكلمات الأصيلة فى اللغات السامية مع نظيراتها فى اللغات الآرية فوجدوا أن معظم جذورها الثنائية مشتركة بين الطائفتين، أما الكلمات التى لم يجدوا لها جذرا ثنائيا مشتركا فقد صاغوا لها جذرا ملائما افترضوا أنه كان موجودا فى غابر الدهر ثم اندثر»[2].

وقد عد المستشرقون ذلك راجعا إلى الأصل البعيد للغات الإنسانية أيام كانت البشرية فى مكان واحد تتكلم لغة واحدة انشعبت إلى سامية وحامية وآرية وقد انقرضت اللغة الأم وبقيت آثارها فى هذه الجذور الثنائية.

---

(١) ص ١٦٢، ١٦٣.

(٢) مغامرات لغوية لعبد الحق فاضل ص ١٨٦.

والواقع أن المؤرخين لا يعرفون إلا قليلا جدا من أحقاب التاريخ القديم وحضاراته ولذا ينبغى تفسير هذا التشابه فى ضوء العلاقات البشرية التى تمت فى العصور المتعاقبة تبعا لتبادل المنافع والمصالح.

وقد يظن ـ كما يزعم الدكتور لويس ـ أن الإغريق واللاتين الرومان كانوا هم أهل الحضارة حين كان العرب بدوا بدائيين، لكن تبين قدم حضارة الساميين والأكديين والآشوريين والفينيقيين والآراميين والحميريين والعرب بصورة عامة.

والدليل على سبق الحضارة العربية للحضارات الهندية الأوربية ما يعرفه التاريخ من خصب الجزيرة العربية قديما وتوافر النبات والحيوان فيها قبل أحد عشر ألف سنة أيام أن كان الجليد يغطى شمال أوربا ولم تكن صالحة لحياة الإنسان أو الحيوان عليها، فلما أشرقت الشمس على أوربا وأقفرت الجزيرة نزح الساميون ـ كما هو معروف فى هجراتهم القديمة ـ شمالا إلى الشام والعراق،وشرقا إلى إيران وما وراءها، وغربا إلى مصر وما وراءها، وبعضهم اتجه إلى أوربا وإلى الهند ملاحة عبر الخليج العربى أو مسيرة عبر بلاد فارس وكان ذلك فى عصور سحيقة قبل الميلاد منذ ستة وثلاثين قرنا، والمعتقد أن الساميين ـ ومنهم العرب ـ كانوا حينئذ على درجة من الحيوية وكانت لغتهم حيوية كذلك فطغت على اللغة أو اللغات المحلية فى الجهات التى هاجروا إليها كما طغت حضارتهم[٢]. وتثبت حقائق التاريخ قدم حضارة الساميين، ومعروف أن حضارة أرض الرافدين كانت معروفة فى حين كان العالم فى مناطق أخرى فى سبات عميق. ونظرية المثلث القائم الزاوية قد اكتشفت فى أرض الرافدين مكتوبة بالبابلية على رقم من الطين قبل عهد إقليدس بسبعة عشر قرنا أى منذ أربعة آلاف سنة، وشريعة حمورابى البابلى كانت معروفة قبل الشرائع والحضارات الأخرى بآلاف السنين.

وعلى هذا فقد استفادت لغات الشرق والغرب من اللغات السامية ونموذجها العربية قبل الإسلام وقبل التاريخ،وفى المعجمات الأجنبية ما يعرفه المعجمون الأجانب وكثير من اللغويين العرب من الكلمات المستفادة من العربية.

---

(١) مغامرات لغوية لعبد الحق فاضل ص ١٨٦.

(٢) المصدر السابق ص ١٨٨، ١٩٠، ١٩٩.

والدليل على استفادة اللغات الآرية من العربية أن هذه الكلمات المستفادة لها أصول وفروع فى العربية على حين أنها فروع بلا أصول فى اللغات الآرية.

ومن الكلمات الأصيلة فى العربية التى أخذتها اللغات الآرية (الأداء والتأدية) والفعل منها (أدى) وهى تدل على معنى العطاء وهى فى الفارسية (داد) أى أعطى، وفى اللاتينية Addo و datio و dono، ومنها فى الإيطالية dato ومن صورها فى الفرنسية donner، وdonation وdate وللكلمة فى كل هذه اللغات اشتقاقات أخرى ولها فى الإنجليزية أيضا بعض الصور منها الكلمتان الفرنسيتان الأخيرتان أعنى date و donation.

ويدل على أن العربية هى المعطية والآرية هى الآخذة كثرة الأصول والاشتقاقات العربية المتصلة بهذا الجذر اللغوى، فالعرب اشتقوا من (اليد) التى هى أداة العطاء (أيّد تأييدا)، وصاغوا الفعل (ودى يدى وديا ودية) و(أدى) بمعنى أعطى باليد وقالوا ـ مع بعض التغيير ـ : أهدى والهدية ، و(أندى) بمعنى أعطى، والندى : السخاء، ثم آتى، ومن هذا التحليل نرى أن شجرة النسب فى العربية لهذه الكلمات كاملة.

وقد انتقلت الكلمة إلى اللغة الآرية بأن انتقل فعل الأمر (د) من (ودى) إلى الفارسية فهو فعل الأمر عند الفرس وصاغوا منه الماضى (داد) والمصدر (دادن)، ومن الفعل (أيّد) تسرب إلى الفرنسية والإنجليزية معنى did بالمعنى العربى نفسه أى المساعدة، والفعل (أدّى) أخذه اللاتين فنطقوه addo بالمعنى نفسه، ومن الفعل (ندانو) الأكدى أو ما يقاربه صاغوا الفعل dono بمعنى أهدى، ومن اللاتينية أخذت اللغات الأوربية الحديثة وزادت فى التوليد والاشتقاق.

ويجعل الدكتور لويس بعض الكلمات العربية مستعارة من اللغات الحامية كاللغة المصرية القديمة التى استمدت أصولها ـ أساسا ـ من الهندية الأوربية.

وأخطر ما ينطوى عليه الكتاب مهاجمة عقيدة التوحيد الخالص التى هى عماد الإسلام وجَعْلُها تقوم على مبدأ التثليث كالمسيحية، وفى هذا الفكر المنحل أقحم النصوص القرآنية الواضحة وحاول أن يثنيها عن القصد المستقيم، ففى الفصل السادس من كتابه (أسماء الأعداد)[1] عقد مقارنة بين كلمة (خمت)

---

(١) مقدمة ٢٩٥.

المصرية القديمة وكلمة (صمد) العربية، وزعم أن كلا منهما مساوية للأخرى فى الدلالة والمعنى وفقا لقوانين الفونطيقا.

يقول : «وطبقا لقوانين الفونطيقا (خمت) المصرية = (صمد) العربية (قانون خ الحامية = س السامية) فإذا كان الأمر كذلك كان معنى الصمدية (الثالوث) أو (الثلاثة) وكان معنى الصمدية بناء التوحيد على قبول نظرية الانبثاق Transubstantiation ورفض مساواة المسيح لله فى الجوهر Consubstantion فى أهم مدرستين للاهوت المسيحى نبعتا من الفكر البيزنطى.

ويزعم أن كلمة (صمد) فى العربية - وهى من الأسماء الحسنى - كلمة محيرة؛ لأنها مادة جامدة لم تشتق من فعل ولم يشتق منها فعل، ولا صلة لها بالهومونيم (صمد) - (يصمد)، وهى مورفولوجيا ثابتة : الاسم فيها هو الصفة والصفة هى الاسم، وهى غامضة المعنى نادرة الاستعمال، وأشهر استعمال لها فى الصمدية، ولهذا ربط المفسرون معناها دائما بتوكيد التوحيد وإنكار التثليث فى مفهوم الصمدانية[1].

وهذه التصورات مجرد أوهام لا تجد الدليل العلمى، فمن الناحية الفونطيقية لا يجوز التبادل بين (الخاء) و(الصاد) - فى اصطلاحات علم الأصوات الحديث - فالإبدال لابد أن يقوم على قرب مخارج الأصوات لا على تباعدها، فالخاء تتبادل مع أصوات قريبة منها، وهى أصوات الحلق أو ما يجاورها، أما الصاد فلها مجموعة مناسبة تتبادل معها كالسين والزاى، وقد عهدنا التطور بين الحروف المتقاربة فيقول العربى فى (مدح). (مده)، وفى (أن) : (عن)، وفى (جدث) (جدف) - فى اللهجات القديمة - وفى (قال) : (جال) و (آل) فى اللهجات الحديثة.

والأصوات التى يبدلها الأجانب من أصوات اللغة العربية - حين ينطقون كلمات عربية - يراعى فيها هذا المبدأ المهم، فالإنجليزى يقول : Aly فى (على)، واليونانى يقول (مخمد) فى (محمد)[2].

---

(١) المصدر السابق ص ٣٠٦.

(٢) د. إبراهيم نجا : اللهجات العربية ص ٢١.

وإذا لم يكن الإبدال ممكنا فإن كل واحدة من الكلمتين تكون خاصة بجماعة بأعيانهم.

ويجب أن نقول : إن اختلاف الوحدات الصوتية (الفونيمات) يؤدى إلى اختلاف المعنى اختلافا جوهريا وإن كان فى الفونيمات المتشابهة، أو ذات المجموعة الواحدة، مثل : (زال ـ سال ـ صال) وعلى هذا لا نستطيع أن نسلم زعم الدكتور لويس باتصال المعنى بين (خمت) و (صمد).

ونذكّر الدكتور بأن ما ادعاه من أن (صمد) ليست مشتقة من الفعل (صمد ـ يصمد) ادعاء خاطئ، فعلماء العربية الموثوق بهم قد ذكروا هذا الاشتقاق بوضوح كامل.

ففى معجمات اللغة : صمده يصمده صمدا، وصمد إليه كلاهما قصده، وأصمد إليه الأمر : أسنده، والصمد ـ بالتحريك ـ مأخوذ منه، وهو السيد المطاع الذى لا يقضى دونه أمر، وقيل : الذى يصمد إليه فى الحوائج أى : يقصد[1] والصمد من صفاته تعالى وتقدس؛ لأنه أصمدت إليه الأمور فلم يقصد فيها غيره، وذكر ابن الأنبارى أن هذا المعنى متفق عليه من أهل اللغة حيث قال قبل ذكره : وقال أهل اللغة أجمعون لا اختلاف بينهم فى ذلك : الصمد عند العرب : السيد الذى ليس فوقه أحد يصمد إليه الناس فى حوائجهم وأمورهم، وتذكر معجمات اللغة للفظ (الصمد) معانى أخرى تدور حول هذا المعنى.

ولا ريب أن هذا الرأى الذى نقلته من المعجمات يؤكد أن اللفظ ليس نادر الاستعمال، وليس غامض المعنى، وليس فيه أية إشارة إلى الثالوث أو مبدأ التثليث الذى يزعمه الدكتور لويس.

وعلماء التفسير لم يتطرق إلى ذهنهم معنى التثليث إطلاقا، بل إن الكلمة (الصمد) فى تفسيرهم لم تخرج عن المعانى اللغوية المشار إليها، وقد ذكر الإمام القرطبى المفسر ذلك فى تفسيره (سورة الإخلاص) ناقلا المعانى التى ذكرها أرباب المعجمات، ونسبها إلى ابن عباس ـ رواية عن الضحاك وعلى وأبى وائل وسفيان

---

(١) الزاهر لابن الأنبارى ١/ ١٧٩ ولسان العرب ٤/ ٢٤٦.

والسدى والحسن بن الفضل ومقاتل، ثم عقب القرطبى على ذلك كله بقوله : الصحيح منها ما شهد له الاشتقاق، وهو القول الأول ذكره الخطابى[1].

وليس بعد هذا بيان فى أن المعانى كلها تدور حول معنى الذى يُصمد إليه فى الحاجات، وهو المعنى الواضح فى جميع ما أدلى به علماء اللغة وعلماء التفسير، ولا علاقة مطلقا بمعنى التثليث، ولم يكن لفظ (الصمد) محيرا للمفسرين أو اللغويين كما زعم الدكتور.

وعلى ذلك يبطل الزعم بأن العربية استمدت من اللغات الهندية الأوربية أصول كلماتها، وينفى ما راح يروجه الدكتور لويس عوض مما سماه «الافتراض الكبير» الذى أسس عليه كتابه « ألا وهو» أن المجموعة السامية ونموذجها اللغة العربية، والمجموعة الحامية ونموذجها اللغة المصرية القديمة ليستا مجموعتين مستقلتين بذاتهما، وإنما هما فرعان أساسيان فى تلك الشجرة السامقة التى خرجت منها المجموعة الهندية الأوربية»[2].

وبعد :

فأمر الربط بين ألفاظ العربية وألفاظ اللغات الأخرى لا ينبغى أن يتم على تلك الصورة التى تخرج من نطاق المنهج العلمى إذا كانت أهدافه خبيثة على نحو ما رأينا.

ونسأل الله تعالى الهداية والتوفيق.

---

(١) تفسير القرطبى (الجامع لأحكام القرآن) ط الشعب ص ٧٣٣٥.

(٢) مقدمة ص ١٤٦.

٢ ـ وحدة الأصل بين اللغات السامية :

(أ) فى مجال الأصوات :

حروف الهجاء السامية تسعة وعشرون حرفا وأيد ذلك بروكلمان(١)، ويرى بعض المستشرقين مثل موسكاتى أنها مكونة من سبعة وعشرين حرفا لأن الواو والياء أنصاف حركات وليسا من الصوامت(٢).

والعربية ـ بشطريها الشمالى والجنوبى ـ تضم رموزا كتابية لبعض الأصوات القديمة التى اعتراها التطور فى بعض اللغات السامية فاختلطت بما يشبهها أو يماثلها فى المخرج والصفة.

وفى الحبشية ستة وعشرون رمزا تفرعت منها رموز أخرى للحروف بلغت اثنين وثمانين ومائة رمز مما يدل على أن العربية تمثل اللغة الأم(٣).

ويذكر بروكلمان أن اللغة السامية الأم عرفت ثلاث حركات قصيرة فحسب هى الفتحة والضمة والكسرة، وثلاث حركات طويلة أخرى هى الألف والواو والياء المديات(٤) كما تعرف ذلك العربية الفصحى.

وتستعمل الواو والياء والألف دالات على الحركات فى النقوش القديمة والمخطوطات السامية فى آخر الكلمة، ولكنها لم تستخدم دالة على الحركات فى وسط الكلمة إلا فى حالات قليلة، وجاءت الإمالة فى لهجة بعض العرب معبرة عما كان فى السامية الأم، كما استمر ذلك فى العبرية والحبشية فلها فيها رمز خاص(٥)، وهذا دليل آخر لقدم العربية.

ويتنوع الشكل الكتابى للألف فى الأوجاريتية، وتختلف كتابتها بين اللغات العربية الجنوبية والحبشية، والفينيقية والآرامية، ولكن الأكدية دونت بالخط المسمارى وهو يتبع نظام المقاطع والحركة تصاحب الحرف فى المقطع.

---

(١) انظر : Semitische. sprichwiasanachaft, pp. 53 - 54.

(٢) والراجح أن عدة الحروف تسعة وعشرون حرفا، وهى الحروف الفنولوجية، فالياء والواو ـ إذا لم تكونا مديتين بأن تتحركا أو تكون قبل كل واحدة منهما حركة غير مجانسة لها ـ تصبحان حرفين صامتين كغيرهما من الصوامت التى تكون الحروف الأصلية فى الصيغ اللغوية، كما تُعَد الهمزة وألف المد حرفين مستقلين وهذه الحروف يزيد عددها تبعا لتنوع الصور النطقية لكل حرف (عائلة الفونيم). انظر كتابنا : (تجويد القرآن الكريم من منظور علم الأصوات اللغوية) وكتابنا : (أصوات اللغة العربية).

(٣) التطور النحوى ص ٥.

(٤) بروكلمان I.p, 44.

(٥) التطور النحوى ص ٣٤.

وإن المُراجع للمدون من الحروف العربية وطريقة نطقها فى كتب اللغة ككتاب العين للخليل وكتاب سيبويه وما تلاهما يدرك أنها لم تتغير على ألسنة الناطقين بالعربية الآن اللهم إلا فى القليل من الأصوات التى اعتراها بعض التغير ولذا يمكن أن نقول : إن المثقف بالعربية الآن يقارب نطقة - إن لم نقل يماثل - ما كان ينطق على لسان العرب القدماء.

ونستطيع من هذا أن ندرك أن العربية احتفظت بخصائص قديمة ترجع إلى الأم السامية.

ولكن الأصوات التى تشتمل عليها العبرية قد تغيرت على لسان اليهود الناطقين بها[1]، كما تغيرت أصوات الآرامية على لسان المستعملين لها من المسيحيين فى الشام والعراق.

واللغة الحبشية الجعزية قد تغيرت كذلك أصواتها على لسان أبنائها فى الحبشة، وقد بقيت بعض أصواتها مستخدمة فى جوانب دينية ولم تعد مستعملة وسيلة تفاهم فى هذه المجتمعات بل اعتراها التغير منذ آماد طويلة.

ولكن - فى مجال البحث العلمى - يمكن التعرف على الطرائق التى كانت مستعملة فى نطق الأصوات القديمة فى هذه اللغات بالرجوع إلى النقوش المكتوبة بها لما تحويه من حفظ للصوائت والصوامت بين رموزها الكتابية.

ولكن يبقى أن النطق الممثل للغات السامية هو نطق العربية الذى تتابع حيًّا جيلا بعد جيل.

ويمكن النظر فيما اعترى اللغات الأخرى من تغيرات أبعدتها عن أصلها اللغوى القديم، فالمقارنة بين العربية وأخواتها الساميات تكشف عن وجود جوانب من الالتقاء والافتراق فى مجال الأصوات كما ذكر برجستراسر وغيره من المستشرقين.

فهناك أصوات مشتركة بين هذه اللغات لم يحدث فيها تغيير كمجموعة حروف النون واللام والراء فما زالت تحتفظ بها اللغات العربية والأكدية والآرامية والعبرية والحبشية بقطع النظر عما يمكن أن يحدث للراء واللام من تفخيم أو ترقيق فى السياق الكلامى فهذا الذى ما زالت العربية تحتفظ به منطوقا يخفى إدراكه فى بقية اللغات السامية التى لم تعد مستعملة الآن لدى شعوبها.

---

(١) من اليهود الشرقيين.

وهناك أصوات موجودة فى بعض اللغات السامية دون بعضها الآخر كأصوات الحلق، ومن المعروف أن حروف الحلق ـ ولا سيما الحاء والعين ـ نجدها بنطقها السليم فى العربية والعبرية والآرامية والحبشية، ولكنها ضاعت من الأكدية وحلت محلها الهمزة وذلك بتأثير من السومرية التى لم تكن تعرف حروف الحلق.

وحروف التفخيم أو الإطباق هى : الطاء والصاد والقاف والظاء والضاد والخاء، وقد أجمع الباحثون فى مقارنة اللغات على أن القاف والطاء والصاد شائعة فى كل اللغات السامية، أما الظاء فالظاهر أنها من مستحدثات العربية الفصحى فى بعض ما كان فى الأصل ضادا، والضاد ـ ولا شك ـ من خصائص العربية الفصحى، ولذا شاعت تسمية العربية بلغة الضاد.

وقد استنتج الباحثون عن اللغة السامية الأم ـ وفى مقدمتهم بروكلمان ورايت وبورشتاين وغيرهم ـ أن العربية فى هذا ناطقة بما كان فى نطق السامية الأم من هذه الأصوات وأن اختفاء بعضها من بعض اللغات السامية الأخوات طارئ عليها[١].

وهناك أصوات مشتركة تغيرت فى بعض اللغات السامية منها صوت الباء فى العبرية فهى تنطق باء كأختها العربية فى أول الكلام مثل bit (بيت) لكن إذا سبقت بحركة وكانت غير مشددة نطقت فى العبرية مماثلة للصوت الإنجليزى (V) فى مثل Aavar (عبر) و ketav (كتب).

ويرى بعض علماء المقارنات السامية أن صوت (p) المهموس كان بين الأصوات السامية قديما وقد بقى على هذا النطق فى اللغات السامية الشمالية مثل الأكدية والسريانية والعبرية فى حين تحول نطقه إلى صوت الفاء فى العربية والحبشية.

فكلمة (فم) العربية فى الأكدية pu وفى السريانية pom وفى العبرية pe[٢].

والكاف ـ فى العبرية تنطق كالكاف العربية فى أول الكلام ـ كما سبق ـ فإذا تقدمتها حركة وكانت غير مشددة أشبهت فى نطقها صوت الخاء فى العربية مثل :

---

(١) انظر : الساميون ولغاتهم ص ١٧ ـ ١٩ بتصرف، وانظر كتابنا : العربية خصائصها وسماتها ط ٣ ص ١٠١، وانظر ص ٤٤ من هذا الكتاب.

(٢) انظر فى ذلك :

Brocklmann : Granndriss I,pp 129 - 130.

ويشير بروكلمان إلى وجود ما يخالف هذا النطق الفائى فى الحبشية.

Mlakheen (ملوك) وتشارك اللغة الآرامية فى ذلك اللغة العبرية، والتغير فى نطق هذه الأصوات ونحوها دليل على ما دخل العبرية والآرامية من تطور اختلف بهما فى هذه الصور النطقية عما كانتا عليه من نطق سامى أصيل احتفظت به العربية مما يؤكد أن النطق العربى الأصيل هو الممثل للنطق السامى القديم.

وبناء على ذلك نرى أن العربية وإن كانت متأخرة نسبيا فى تدوينها عن بعض أخواتها الأخريات فإن العربية ما زالت ممثلة للأم السامية؛ لأنها تحتفظ بكثير من خصائصها اللغوية على حين تغيرت فى أخواتها تبعا لعوامل الزمن والمؤثرات الاجتماعية ولفقدان التكلم بها[١].

وهذا النوع الذى اعتراه التغير يضم أصواتا اختلف نطقها فى لغتين أو أكثر من لغات هذه المجموعة السامية.

وبعض هذا التغير خاضع لقواعد ونظم تجعله مطردا فى تطوره واختلافه.

ونضرب أمثلة لذلك فى بعض الحروف:

الثاء:

يأخذ هذا الصوت صورا نطقية متعددة حين يقع فى كلمات مشتركة[٢] بين العربية والعبرية والآرامية والأكدية.

فبالمقارنة بينها يتبين أن هذا الصوت ينطق ثاء فى العربية الشمالية،وسينا فى العربية الجنوبية والحبشية، وينطق تاء فى الآرامية،وشينا فى العبرية والأكدية :

فكلمة (ثوم) العربية نجدها فى العربية الجنوبية والحبشية (سومت) Somat، وفى الآرامية (توما) Tuma،وفى العبرية (شوم) Sum، وفى الأكدية (شومو) Sumu.

ولا ريب أن الثاء هى الصورة الصوتية الأقدم ويمثل النطق فى اللغات السامية الأخرى ـ بالسين أو التاء أو الشين ـ تطورا صوتيا حادثا لم يكن من قبل فى السامية الأم.

---

(١) دونت الأكدية سنة ٢٥٠٠ ق.م تقريبا، والأجريتية سنة ١٤٠٠ ق.م ودونت العربية بعد ذلك.

(٢) صنع برجستراسر قائمة بالكلمات الأساسية المشتركة بين هذه اللغات.

وتطور الثاء إلى التاء والسين أو الشين أمر مقبول من الناحية الصوتية، إذ تشترك الثاء مع التاء والسين في الخروج من طرف اللسان مع اللثة والأسنان والشين من مخرج مجاور هو وسط اللسان إلى جانب اشتراكها في بعض الصفات كالهمس والرخاوة والاستفال والانفتاح مما يجعل الانتقال بينها سائغا.

ولهذا الانتقال والتغير نظائر فيما تطورت إليه الأصوات واللهجات الدارجة العربية في مصر والشام، فالثاء تحولت إلى تاء في هذه اللهجات في الكلمات العربية التي تشتمل عليها.

فالثاء هي الأصل السامي القديم تطور في بعض اللغات السامية على هذه الصورة المشار إليها.

الضاد:

وصف سيبويه الضاد العربية في كتابه وصفا دقيقا فهي من أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس إلا أنك إن شئت تكلفتها من الجانب الأيمن أو من الجانب الأيسر أو من كلا الجانبين[1].

والضاد - بهذا الوصف - كانت إحدى خصائص لهجة قريش ولم يكن في إمكان سكان البلاد المفتوحة أن ينطقوا بها بل استعصت على ألسنة بعض القبائل العربية نفسها - وهي - بهذا الوصف كما يقول الأستاذ برجستراسر - حرف غريب جدا غير موجود حسب ما يعرف في لغة من اللغات إلا العربية ولذلك كانوا يكنون عن العرب بالناطقين بالضاد ويسمون لغتهم لغة الضاد[2].

وقد بعد هذا النطق على ألسنة المثقفين بالعربية وعلى الألسنة الدارجة[3] وإن كنا لا نزال نسمعها على لسان بعض القراء المجيدين وفي بعض اللهجات العربية الحديثة[4].

وقد ورد نطقها ظاء في بعض المواقع الكلامية كما في قراءة **﴿وما هو على الغيب بضنين﴾** بالظاء مكان الضاد التي رسمت بها في كل المصاحف.

---

(١) الكتاب ٢/ ٤٠٥، وسر الصناعة ١/ ٥٢.

(٢) التطور النحوي ص ١٠.

(٣) انظر كتابنا: أصوات اللغة العربية ط٢ ص ١٨٩، ١٩٠.

(٤) انظر بحثا لنا بعنوان: «الأصوات اللغوية في لهجة صنعاء وصلتها بالعربية الفصحى» في مجلة كلية اللغة العربية في الرياض - العدد السابع.

ويرى بعض الباحثين المحدثين مثل برجستراسـر أنها كانت تشبه فى مخرجها مخـرج اللام الذى هو ـ أيضا ـ من حـافة اللســان كمـا فى نطق أهل حضـرموت والأندلسيين وقد استبدل بها الأسبان (ld) فى مثل كلمة القاضى تنطقalcalde [1].

وبمقارنة الـعربية فى نطـق الضاد بأخواتهـا الساميات في المنطقـة الشمـاليةِ كالعبرية والأكدية والآرامية تبين اختلاف نطقها فيها عنها فى العربية.

ففى العبرية والأكدية تنطق كالصاد وفى الآرامية تنطق كالعين.

ومن أمثلة ذلك كلمة أرض ard فهى بالضاد في العربية الشـمالية ومثلها فى العربيـة الجنوبية، وتنطق فى العـبرية (إرص) eres، وفى الأكـدية ersetu، وفى الآرامية (أرع) ara.

ويبدو أن ما أثر عن العربية فى نطق الـضاد يمثل النطق السامى الأقدم الذى كان فى السامية الأم وإن كان نطقها فيها غـير معروف لنا بصورة دقيقة لفقدان هذا الصوت من العربية على لسان الناطقين الآن.

وتطور الضاد إلى الصاد قد يكون أمرا مقـبولا لقرب المخرجين، أما تطورها إلى العين فهو أمر مختلف لا نستطيع تفسيره فى ضوء القوانين الصوتية المعروفة إذ لا تقارب بينهما على الإطلاق[2].

(ب) فى مجال المفردات والصيغ :

توجد صيغ كثيرة للأفعال فى العربية مثل فَعَلَ وفَعَّلَ[3] وأفْعَلَ وفاعَلَ وافتعل وتفعَّل وتفاعل واستفعل.

ويذكر برجستراسـر أن كلا من الأكدية والعبرية تستعمل سـبعة أوزان للفعل مـشيـرا إلى بعض الصـيغ الناشـئة من تشـديد العـين والفاء والنـون فى التفـعل والانفعـال فى الأكدية، ويرى أن الأكدية والعـبرية وغيرهمـا من اللغات السامـية

---

(١) التطور النحوى ص ١٠.

(٢) انظر فى ذلك قائمة الألفاظ المشتركة للغات السامية من عمل برجستراسر :

Bergstrasser, Einfuhrung. S. 182 - 192, Brockelmann, Grundriss. L. 125 - 136.

وانظر أسس علم اللغة د. حجازى ص ٢٠٠ وغيرها.

(٣) بتخفيف العين وتشديدها مفتوحة.

تحتفظ أكثر من العربية بأصول الأبنية القديمة ومعانيها ولذلك فهى ـ فى رأيه ـ أكثر من العربية احتفاظا بهذه الخصائص السامية الأصلية.

وإذا كانت الأفعال فى العربيــة تدل على زمنين أحدهما انقضى وهو الماضى والثانى لم ينقض ـ وهو الحــال والاستقبال ـ فـإن الدلالة الزمنية غير مــحددة فلا ندرى الماضى القريب أو البـعيد وكذلك الحـال والاستقبـال لا ندرى فيهمـا تحديد الزمن المقصود إجراء الفعل فيه قريبا أو بعيدا وإن كان ذلك يظهر من خلال السياق اللغوى.

وتدل إشارات قليلة إلى الحــدث المستمر فى الماضى باســتعمال الفــعل (كان) فى العربية ونظائره فى اللغات الســامية الأخرى مثل hua ـ فى السريــانية ـ و haya (هايا) فى العبــرية بمعنى (كان)، ففى العــربية نقول : (كان يكتب) وفى الســريانية ktav - hu بمعنى (كان كتب) أى كان يكتب، وغالبا ما تحذف الهاء من الفعل (كان) فى السريانية[١].

وفى بعض الأفـعال التى تلحق بـالرباعى الأصول مـثل : سرهفت الصــبى سرهافا[٢] وسلقى وسقلب ونحوها قال النحاة العرب بعدم زيادة السين.

ويذكر بعض الــباحثــين أن السين فى هذا النوع من الأفــعال وأشــباهه زائدة وأنها على وزن (سَفْعَلَ)، لمقابلة هذا الفعل للوزن (شَفْعَلَ) فى الآرامية وأن أصل الصيغة فى سرهف هو (رهف)، وكذلك بعض الأســماء التى تشبهه مثل سلهب، فالسين زائدة وليست كما يظن بعض النحاة العرب أن أصله (س ل ب) وأن السين أصلية[٣].

ويرى هؤلاء الباحثون أن هذا الوزن دخيل من الآرامية على العربية[٤].

ويذكر رايت أن صيغة تفعَّل شائعة فى العربية لكن سفعل نادر[٥].

ونحن لا نعتــقد أن الوزن دخيل على العــربية بل أصيل فــيها لقدم العــربية وقربها من الأم السامية.

---

(١) التطور النحوى ص ٥٨.

(٢) احسنت غذاءه وبذلت جـهدا فى تربيته. انظر الكتاب ٤/ ٨٥، وسـر الصناعة ١/ ٢١٠ ـ ٢١٣ ومثله بعض الأسماء مثل سلهب بمعنى الطويل.

(٣) انظر بعض المعاجم اللغوية كالأساس للزمخشرى ص ٣٠٦.

(٤) بين العربية ولهجاتها والعبرية للدكتور بحر ص ١٢٠.

(٥) انظر :

Wright : Lectures pp. 204 - 205.

ثم إن علماء العـربية جعلوه من الملحق بالرباعى وكـأن ذلك إشارة إلى زيادة السين فى مـرحلة متقـدمة من اللغة، ولما كـانت القواعد العـربية تفيـد أن الحرف الأصلى وشبهه هو الذى يـبقى فى تصاريف الكلمة فقد عولـوا على الأصالة لبقاء السين فى كل التصرفات، وبعض النحاة ـ كـالزمخشرى ـ حاول أن يعرف الأصول الثلاثة قبل زيادة حرف رابع عليها فادعى أن سلهب أصلها (س ل ب) فوضعها فى معجمه فى هذه المادة.

ولكن كشف اللغات السامية عـن الأصل أفادنا معرفة الحرف الذى زيد على الثلاثى متأخرا قبل أن يصير بمنزلة الحرف الأصلى.

وفى بعض كلمات العـربية صور من القلب اللغـوى الذى يقوم على حلول بعض الحروف فى الكلمـة محل بعض، ونرى آثاره فى التـقليبات المتنوعـة للمواد اللغوية.

وللمقارنات السامية فى القلب اللغوى نتائج مفيدة :

ففى العربية ـ مثلا ـ يوجد الفعل (آب) ومقلوبه (باء) بمعنى رجع.

لكن نلحظ وجود صيـغة واحدة هى (باء) فى الأكدية والحبشـية والآرامية، وبناء على هذا يمكن اسـتنتاج أن اسم النبى (أيوب) عـربى وليس آراميـا بناء على عدم وجود الصيغة (آب) التى اشتق منها فى الآرامية[1].

وصيغة (افتعل) تأتى فيها التاء تالية للفاء فى العربية ولكنها فى الآرامية تتقدم على الفاء فيـما يشتمل من المواد على حـرف من حروف الصفيـر مثل اتصّدم فى العامية وهى فى العربية اصطدم[2].

ونلاحظ فى اللغـات السامـية كلمـات تشتـرك فى مادتهـا اللغوية وتخـتلف معانيـها بالتخصيص أو التـعميم أو الانتقال، ويحـتاج الكشف عن التطور المعنوى فيها إلى معرفة المعنى الأصلى فى السامية الأم.

ومن ذلك كلمـة (لحم) فمـعناها مـعروف فـى العربيـة لكنهـا فى العبـرية والفينيقية والأكدية بمعنى الطعام أو الخبز.

---

(١) الفكر الدينى الإسرائيلى للدكتور حسن ظاظا ص ٥٥، ٥٦.
(٢) بروكلمان .I, p. 152

و(اللبن) معروف فى العربية، وفى العبرية تستعمل للذهاب والانتقال من مكان إلى مكان غيره.

و(أبى) بمعنى امتنع يقابله فى العبرية Ava بمعنى أراد أو رضى[1].

وكلمة (أهل) بمعنى الأسرة عامة أو الزوجة خاصة فى العربية يقابلها فى العبرية Ohel والأصل واحد لكن الكلمة العبرية بمعنى الخيمة وهى تدل على تطور المعنى على سبيل المجاز وعلاقته المحلية أو الحالية[2].

ويشير بعض الباحثين إلى اقتباس العربية بعض المعانى من أخواتها الساميات، فيذكر برجستراسر من ذلك كلمة (سلام) فهى فى العربية بمعنى الصحة والصلح، ولها معنى دينى فى الآرامية المرادفة shlaamaa فاستمدت منها العربية هذا المعنى الدينى.

ولكننا نرى أن الإسلام لم يقتبس من هذه المعانى الدينية الآرامية، وإنما جاء المعنى الإسلامى من باب تغير الدلالة للألفاظ الإسلامية.

كما يذكر برجستراسر كلمة (صومعة)، فهى فى العربية بمعنى البرج، والبناء المرتفع، ولكن استعمالها بمعنى بيت الراهب أخذته العربية من الحبشية التى تستعملها Soomaa[3].

ونرى أن ذلك المعنى الأخير ربما استمدته العربية من اللغات السامية الأخوات، أو من الأصل السامى لهذه الكلمة.

(فالمعجم الاشتقاقى للغات السامية، وأية دراسة للمقابلات السامية من ناحية المفردات تبحث الكلمات التى انحدرت من أصل اشتقاقى واحد، ثم تبحث مدى الاتفاق أو الاختلاف الدلالى بعد ذلك)[4].

---

(١) انظر تاريخ اللغات السامية لإسرائيل ولفنسون وقد ذكر فى نهاية الكتاب كلمات كثيرة متحدة المعنى منها ١١٠ كلمة متحدة فى العربية والأكدية والعبرية والآرامية ولهجات العربية الجنوبية ولغة الحبشة : انظر ص ٢٨٣ ـ ٢٩٤ وانظر أسس علم اللغة للدكتور محمود فهمى حجازى ص ١٥١.

(٢) حجازى ص ٢١٤. ويقال فى العربية : بنى الرجل بأهله ـ وأصله : بنى الرجل على أهله خباء ـ وذلك أن المعرس كان يبنى لزوجه خباء (خيمة)، ثم حذف المفعول به وتنوسى، فحلت الباء مكان (على).

انظر كتابنا : العربية خصائصها وسماتها.

(٣) التطور النحوى ص ١٥٢.

(٤) أسس علم اللغة د. حجازى ص ٢١٥.

(جـ) النحت والتركيب :

النحت : انتزاع بعض الحروف من كلمتين فأكثر وتكوين كلمة منها لتفيد المعنى على سبيل الاختصار.

وذلك مثل (عبشمى) فى (عبد شمس) فقد أخذ المتكلم من الكلمة الأولى - وهى (عبد) - العين والباء وأضاف إليهما من الكلمة الثانية - (شمس) - الشين والميم، وكوَّن كلمة جديدة ثم نسب إليها.

ومثل (مرقسى) فى (امرئ القيس) فقد أخذ من الكلمة الأولى - (امرئ) - الميم والراء وأضاف إليهما من الكلمة الثانية - (القيس) - القاف والسين، فتكونت كلمة واحدة ثم نسب إليها.

وهذه العملية التوليدية ليست على سبيل النتاج والتوالد وإنما تتم عن طريق اللصق.

التركيب : مزج كلمة بأخرى أو أكثر دون حذف شىء من الحروف الأصلية.

وهذا المزج قد يؤدى إلى حدوث نوع من التغيير فى الصيغة أو الهيئة أو المعنى، فمثال ما حدث فيه تغيير فى الصيغة والمعنى (شقحطب)[٣] على وزن سفرجل فهو مأخوذ من (شق) (حطب).

ومثال ما حدث فيه تغيير فى المعنى دون الصيغة (مهما) فهى مركبة من (مه) بمعنى اكفف، و(ما) الزائدة دون حدوث نوع من التغيير فى الصيغة أو الهيئة.

وقد لا يؤدى الامتزاج إلى شىء من التغيير أصلا لا فى الصيغة ولا فى المعنى مثل (حَبَقُرّ)[٢] وهو مركب من (حَبًّ) و (قُرّ).

والأصل أن يُحدث مزج الكلمتين أو الكلمات معنى جديدا وأن يصبح لهما حكم جديد كما يقول القدماء من علماء العربية، (فإن الشيئين إذا خُلطا حدث لهما حكم ومعنى لم يكن لهما قبل أن يمتزجا)[٣].

وفائدة التركيب إفادة المعنى بإيجاز.

---

(١) هو الكبش ذو قرنين منكرين، وقيل : الكبش الذى له أربعة قرون. المزهر ١/ ٤٨٢، ٤٨٣، واللسان ١/ ٤٨٨.

(٢) اسم للبرد - بفتح الراء - وحبّ : اسم للبَرَد. وهو حب الغمام - القُرُّ : البرد - بسكون الراء.

(٣) سر الصناعة ١/ ٣٠٥.

والفرق بين النحت والتـركيب أن المركبـات لم يحذف من حروفهـا الأصلية شىء بخلاف المنحـوتات التى لا تسمى كـذلك إلا بحذف بعض الحـروف الأصلية منها[1].

وجعل علماء اللغـة المركبات قسمـا من أقسام النحت لمجرد أن الكلمـتين قد امتزجت إحـداهما بالأخرى فحدث نوع من التغـيير فى الصيغة أو الهـيئة، وذلك كاف عندهم فى إطلاق اسم النحت عليها.

بيد أن الدقة العلمية تقتضى التفريق بين النوعين على ما شرحنا.

وقد ظهر مبدأ التركيب فى اللغة العربية واضحا فى كتابات الخليل وابن جنى وابن فارس، وذهب إليـه الكوفيون فى كلمات كـثيرة كان البصـريون يرون القول ببساطتها.

ويبدو من المقارنات اللغـوية بين العـربية وأخواتها الساميـات صحة ما ذهب إليه القائلون بالتركيب، فأصول بعض الكلمات المشتقة قد خفيت على بعض النحاة لعدم الاطلاع على أخـوات العربية من السـاميات كـالعبرية والسـريانية وغيـرهما، وترتب على ذلك عدم مـعرفة المعانى التى تـدل عليها هذه الكلمات لعـدم الإحاطة بالأصول اللغوية التى أخذت منها.

وبمعرفة أصول هذه الكلمات ودراستها تنجلى حقيقة اشتقاقها وتتضح معانيها المرادة والجذور التى تنتمى إليها.

وهذا النوع الذى يقوم على مجرد اللصق ـ فـقط ـ موجود بكثرة فى اللغات الهندية الأوربية مثل Thank فى الإنجليزية ـ فـيقال : Thank ful (بمعنى شاكر أو شكور) و Un thank ful (بمعنى غيـر شاكر أو غـير شكور) و Un thank fulnes بمعنى (عدم شكر).

وفى التركـية : (إو) : منزل فيقـال (إودن) : خارج المنزل،(إولر) : منازل، (إولردن) : خارج المنازل، والتركية من مجموعة اللغات الطورانية، ومثلها اليابانية وبعض لغات الأمم البدائية.

والنحت والتركـيب من طرق نمو اللغة، وينظر البـاحثون إليـهما على أنهـما قديما الاستعمال فى اللغات البشرية، ويكثر استعمالهما فى اللغات الهندية الأوربية ـ قديمها وحـديثـها ـ فكثير من كلماتها مأخـوذ من أصـلين أو أكثر، على حين أن ما أخذ من أصل واحد يعد قليلا أو نادرا.

---

(١) مدرسة الكوفة ص ٢٠٩.

والنحت والتركيب يؤديان إلى الزيادة فى الكلمات وإطالتها بضم جزء أو أكثر من كلمة إلى أجزاء من كلمة أخرى أو إلى كلمة برأسها، أو ضم كلمة إلى أخرى فتتجه الكلمات إلى الطول.

وبالنظر إلى التقصير فيعبر بالكلمة المنحوتة أو المركبة عن معانى الكلمات التى أخذت منها عند النحت أو التركيب للاختزال والاختصار.

ولتعوّد الإنسان على السهولة والاختصار فى الجهد العضلى اكْتُفِىَ أحيانا بنطق بعض مقاطع الكلمات على سبيل الاختصار.

ويبدو هذا واضحا فى لغة الأطفال إذ يكتفى الطفل بجزء من بنية الكلمة ـ آخرها أو أولها أو أوضح ما يسمعه منها ـ فيقول فى مكتبة : تبة، وفى كتاب : تاب، وفى ماء: م وهكذا، ويظهر ذلك واضحا فى نطق أسماء الأعلام مثل مود فى محمود ومثل Bert = Herbert or albert.

كما يبدو ميل الكبار إلى الاختزال أيضا وقد كثر هذا فى الإنجليزية مثل : Photo = Photograph.

ومن هنا نشأت طائفة من الألفاظ القصيرة فى اللغة الإنجليزية.

وبناء على النظريتين السابقتين (الإطالة والاختصار) وجدنا رأيين للعلماء فى نشأة الألفاظ فى اللغات.

فبعض الباحثين يرى أن الكلمات كانت قصيرة ثم أطيلت بتطور الزمن، فالكلمات كانت على مقطع واحد حكاية لأصوات الطبيعة ثم فئمت بزياة حرف أو حرفين أو أكثر.

وبعض الباحثين يرى عكس ذلك وهو أن الكلمات كانت طويلة ثم قصرت على مر الأيام ويدل لذلك لغات الأمم البدائية فأكثر كلماتها متعددة المقاطع وهذه الكلمات فى رأيهم تمثل مرحلة قديمة من مراحل التطور اللغوى فى العالم(١).

والحكم بالإطالة أو التقصير فى نشأة الكلمات يحتاج إلى برهان علمى تاريخى، ولعل الناطقين باللغات سلكوا طريقى النحت والتركيب للاختصار وربما للإطالة كما هى آراء علماء العربية كابن جنى وابن فارس وغيرهما(٢).

---

(١) من أسرار اللغة ط ٣ ص ٧٦ ـ ٧٨.

(٢) هذا على ما يرى ابن فارس من نحت ما فوق الثلاثى من الرباعى والخماسى المجردين ومن أمثلة ذلك : بلخص من بخص ولخص وهناك أمثلة للنحت مثل بابأت وقوّفت ذكرها ابن جنى للنحت بعضها يطيل الكلمة وبعضها يختصرها. انظر المقاييس ١/ ٣٢٨، ٣٣١ وغيرها، وانظر الخصائص ١/ ٢٧٦، ٢٧٧، ٣/ ٢٢٨، ٢٢٩، ولسان العرب ١/ ٢٥، ٢٦.

حرف الهجـاء :

الباء :

يقول فندريس : «الأدوات النحوية التى تستعملها اللغات ليست إلا بقايا من كلمات مستقلة قـديمة أفرغت من معناها الحقيقى واستعملـت مجرد موضحات أى مجرد رموز»[(١)].

ويذكر المحدثون أن دراسـة بعض الحروف العربية دراسة مقـارنة فى العربية وأخواتها الساميات تثبت أنها بقايا كلمات كانت مستعملة.

فالبـاء العربية لها مـعان كثـيرة منها الظرفيـة والسببيـة والتعليل والاستـعانة والتعدية والإلصاق والمصـاحبة والتبعيض والمجاوزة والقـسم والتوكيد وبمعنى على وبمعنى إلى[(٢)].

فالباء بقـية كلمة (بيت) إذ إن أصلها (بيت) فى العبرية والسـريانية ثم جاءت (بى) فى الكلدانية ثم الباء فى العربية[(٣)].

كما وردت الباء بمعنى (فى البيت) فى التلمود والترجوم[(٤)].

والقول باختصار الباء من كلمة (بيت) مـبنى على أن الباء تفيد معنى الظرفية فحسب فى اللغات السامية أخوات العربيـة، وقد استعملت لمعان أخرى فى العربية بعد تطورها على طريق النحت.

وقد تمادى الأستاذ جورجى زيدان فـذكر حروفا أخرى كثيرة مـدعيا أنها بقايا كلمات أخذت منها فـ (است) فى استفعل بقية (سطا) فى السريانية قلبت الطاء تاء وهى بمعنى (مال)، فمعنى استفعل مال إلى الفعل، وهكذا فنون التوكيد بقية لفظة بمعنى (هلم) أو (ليت) حـفظت فى سائر اللغـات السامـية إلا العـربية وغـير ذلك كثير[(٥)].

---

(١) اللغة ص ٢١٦.

(٢) الأشمونى بحاشية الصبان ٢/ ٢١٩.

(٣) تاريخ آداب العرب لمصطفى الرافعى ١/ ١٨٥.

(٤) الفلسفة اللغوية ص ٥١.

(٥) المصدر السابق ص ٧٠ ـ ٧٥.

ومع أن جورجى زيدان قد بالغ فى نحت الأدوات والحروف إلا أن الحقيقة التى يثبتها البحث الحديث هى تحققه فى بعضها.

لن :

يرى الخليل ـ وتبعه الكسائى ـ أن «لن» مأخوذة من (لا وأن) حذفت الهمزة تخفيفا فالتقى ساكنان ألف (لا) ونون (أن) فحذفت ألف (لا) لالتقاء الساكنين فاتصلت اللام بالنون وأصبح لهما معنى جديد لم يكن من قبل فـ (لا) للنفى و(أن) حرف يفيد الاستقبال، فأصبحت (لن) تفيد نفى المستقبل.

قال سيبويه : فأما الخليل فزعم أنها لا أن ولكنهم حذفوا لكثرته فى كلامهم كما قالوا: ويْلُمِّه يريدون وى لأمه وكما قالوا : يومئذ،وجعلت بمنزلة حرف واحد، كما جعلوا هلاَّ بمنزلة حرف واحد فإنما هى هل و لا.

وذهب الفراء إلى أن أصلها (لا) فأبدلت الألف نونا ومثلها لم فأصلها لا أيضا فأبدلت الألف ميما.

ويرى جمهور البصريين أنها بسيطة لا مركبة وهو مذهب سيبويه.

قال سيبويه : ليس فى (لن) زيادة وليست من كلمتين ولكنها بمنزلة شىء على حرفين ليست فيه زيادة وأنها فى حروف النصب بمنزلة (لم) فى حروف الجزم فى أنه ليس واحد من الحرفين زائدا ولو كانت على ما يقوله الخليل لما قلت : أما زيدا فلن أضرب،لأن هذا اسم وللفعل صلة فكأنه قال : أما زيدا فلا الضرب له[1].

وقال ابن يعيش فى شرح المفصل :

كان الخليل يذهب فى إحدى الروايتين عنه إلى أن الأصل فى لن (لا أن) ثم خففت لكثرة الاستعمال، كما قالوا : أيش والأصل : أى شىء فخففت، وهو قول يضعف إذ لا دليل يدل عليه،والحرف إذا كان مجموعه يدل على معنى فإذا لم يدل دليل على التركيب وجب أن يعتقد فيه الإفراد إذ التركيب على خلاف الأصل، ورد سيبويه هذه المقالة لجواز تقدم معموله عليه ولو كانت مركبة من (لا وأن) لكان ذلك ممتنعا كامتناع : زيدا لا أن أضرب[2].

---

(١) الكتاب ٣/ ٥.

(٢) شرح المفصل ٧/ ١٥، ١٦.

ويجاب عن الخليل بأنهما لما ركبا زال حكمهما عن حال الإفراد ولذلك صح تقديم معمموله عليه فتقول زيدا لن أضرب بتقديم زيد على (لن) ومع كونه من صلة (أن) لا يضر إذ بعد التركيب نشأ حكم جديد لم يكن من قبل.

ويدل لذلك ما تدل عليه (لو) من امتناع شيء لامتناع غيره فى مثل لو جاء محمد لأكرمته وما تدل عليه (لا) هو النفى أو النهى فحال تركيبها فى (لولا) ينشأ حكم جديد إذ يصبح معناهما معا : امتناع شيء لوجود غيره مثل **﴿لولا أنتم لكنا مؤمنين﴾**[1].

وقال بتركُّبها المستشرق الألمانى برجستراسر فهو يرى أن أصل النفى فى العربية يكون بـ (لا) و(ما) وأن العربية قد اشتقت من (لا) أدوات منها ليس ولن ولم، وقال : لن مركبة من لا وأن، ولم ربما كانت مركبة من (لا) و (ما) الزائدة[2].

ليس:

يرى جمهور البصريين أنها بسيطة لا مركبة فهى عند ابن السراج حرف بمنزلة (ما) وإلى ذلك ذهب أبو على الفارسى وغيره[3].

قال سيبويه : زعم بعضهم أن ليس تجعل كما وذلك قليل لا يكاد يعرف فهذا يجوز أن يكون منه ليس خلق الله أشعر منه وليس قالها زيد، قال حميد بن أرقط :

فأصبحوا والنوى عالِي مُعَرَّسِهِمْ

وليس كلَّ النوى يلقى المساكين[4]

وليس بمنزلة ما فى دلالتها على نفى الحاضر وأنت إذا قلت : ليس زيد قائما الآن فقد أدت ليس المعنى الذى يكون فى المضارع بلفظ الماضى واستغنى عن زيادة حرف مضارعة فيها ولا تقول : ليس زيد قائما غدا؛ لأنها لا تكون إلا لنفى الحاضر لا غير ولا يُنْفَى بها المستقبل، وقد أجازه أبو العباس المبرد وابن درستويه.

---

(١) سر الصناعة ١/ ٣٠٤، ٣٠٥ بتصرف.

(٢) التطور النحوى للغة العربية ص ١١١.

(٣) المغنى لابن هشام حرف اللام ١/ ٢٩٣ وحاشية الخضرى ١/ ١١٢.

(٤) لم يلقوا إلا القليل من النوى فى التمر لحرصهم ، و المعرس : المنزل الذى ينزله المسافر آخر الليل. الكتاب ٤/ ٧٠، ١٤٧.

ويرى جمهور النحويين أنها فعل ماض يدخل على جملة ابتدائية فينفيها فى الحال مثل زيد قائم تقول : ليس زيد قائما.

والأصل فى ليس : ليس - بكسر الياء - على زنة حَرِج وصَعِد؛ذلك لأن الأفعال الثلاثية على ثلاثة أضرب، فعل كضرب وقتل وفعل كعلم وسلم وفعل كظرف وشرف وليس فيها ما هو على زنة فعل بسكون العين، وكان قياسه أن تقلب الياء فيه ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها على حد باع وسار إلا أنهم لما لم يريدوا تصرف الكلمة أبقوها على حالها ثم خففوها بالإسكان على حد قولهم فى كتف كتْف - بسكون التاء - أو فى فخِذ فخْذ - بسكون الخاء - وألزموها التخفيف لعدم تصرفها ولزوم حالة واحدة[1].

ولم تقدر فعل - بالفتح - لأنه لا يخفف ولا فعل بالضم لأنه لم يوجد فى يائى العين.

وقد ذكر ابن يعيش أدلة فعليتها ورد على القائلين بحرفيتها[2].

ويرى الخليل أن ليس مركبة من (لا) و (أيس) فطرحت الهمزة وألصقت اللام بالياء[3] وهو قول الفراء أيضا، والدليل على ذلك قول العرب : ائتنى به من حيث أيس وليس، أى من حيث هو ولا هو فأيس يعنى الوجود وليس يعنى عدم الوجود.

والنظر فى اللغات السامية يدل على هذا، فالمادة (يش) Yesh فى العبرية - بإبدال السين شينا وفقا لقانون التبادل الصوتى بين العربية والعبرية - تفيد معنى الوجود، والمادة (أيت) Ait فى الآرامية - بإبدال السين تاء - تفيد الوجود أيضا وقد ركبت (لا) فى العربية مع هذه المادة التى تفيد الوجود[4].

فـ «ليس» مركبة من (لا) النافية والفعل «أيس» القديم المهمل فى اللغات السامية ويقابل فى العبرية الفعل يش Yesh بمعنى يوجد ولا نظير للصيغة المنحوتة العربية فى العبرية وإنما له نظير فى الأكدية ففيها Lashahu أى ليس بمعنى (لا يوجد) ونظيره فى السريانية (الآرامية) هو Layt بمعنى ليس وهو مركب من

---

(١) المغنى ١/ ٢٩٣.

(٢) شرح المفصل ٧/ ١١١، ١١٢ بتصرف.

(٣) لسان العرب (مادة ليس).

(٤) التطور النحوى ص ١١١.

لا النافية والفعل Ait بمعنى يوجد الذى أبدلت فيه السين تاء فأشبهت صيغة فعل النفى «ليس» السريانية أداة النفى (لات) فى العربية[١].

ولكن برجستراسر يرى أن حلول السين محل التاء نقض لقوانين الأصوات السامية، فالمعروف أن السين العربية لا يقابلها فى اللغات السامية الشمالية إلا السين أو الشين ولا تقابلها التاء فى الآرامية والعبرية والأكدية، وهذا الحل المخالف لسنة التطور الصوتى لابد له ـ كما يقول برجستراسر ـ من سبب ولا يعرفه[٢].

ولكن ـ كما يقول الدكتور المخزومى ـ يبدو ألا مشكلة هناك فإن Lait التى تحدث عنها على أنها تقابل ليس فى العربية لها من الأدوات العربية ما يقابلها وما تتطابق حروفه مع حروفها وهى لات التى تعمل فى العربية عمل ليس ولكنها اختصت بنفى الحين كما فى قوله تعالى : ﴿ولات حين مناص﴾[٣].

لات :

ولابد للباحث فى ليس أن يعرض لـ (لات) وهى أداة من أدوات النفى ألحقت بليس وعملت عملها بشروط.

وقد علل النحويون التاء فى هذه الأداة فقال جماعة: إنها للتأنيث وقال آخرون : إنها للمبالغة[٤] وفاتهم أنها مركبة ولم يفطنوا إلى تركبها وهى لا تختلف عن ليس وربما كانت (لا أيت) La - Ait فصارت فى العربية (لا أيت) ثم أصبحت بالنحت (لات).

ويرى برجستراسر أن (لات) حرف نفى وليست فعلا من أخوات كان، يقول: لات حين مناص يقابل هذه العبارة فى العبرية Leat hasf hammigne. أى لات حين جمع المال، فلات يقابلها هنا Lo المطابق لـ (لا) بدون التاء والعبارة فى العبرية من أشباه الجملة كنفى الجنس فى العربية فيحتمل أن تكون لات حرف نفى ولا تكون فعلا من أخوات كان، فلات حين شبه جملة لا جملة[٥].

---

(١) التطور النحوى ص ١١١.

(٢) المصدر السابق ص ١١٠ بتصرف.

(٣) مدرسة الكوفة ص ٢١٨، ٢١٩.

(٤) شرح ابن عقيل.

(٥) التطور النحوى ص ١١٥.

وما قلناه فى تحليلها وصلتها بالفعل ليس يبين أن مـاقاله برجستراسر احتمال ضعيف[1].

وقد صار اللفظان بعد التركيب فى حكم جديد لم يكن لهما من قبل.

الضمائر :

يرى البصريون أن الضمير (أنا) أصله (أن) والألف زائدة لبيان الحركة[2].

ويرى الكوفيون أن (أنا) كلها ضمير والألف ليست زائدة؛ لأنها تثبت وصلا ووقفا فهى من نفس الكلمة.

وتؤيد الدراسات المقارنة رأى الكوفيين فى أصالة الألف تبعا لنظائر (أنا) فى العربية من الضمائر فى اللغات السامية الأخرى.

ففـى جدول الدكـتور ولفنسـون ما يدل على أن الضـمـير (أنا) فى اللغـات السامـيـة هو الهمزة والنون والألف وما يقـابلها من واو أو ياء، ففى الحبـشية ana وفى الآرامية ena (eno)، وفى السبئيـة والمعينية ana، وفى العـبرية anoki, ani، وفى البابلية والآشورية anaku [3].

وفى الضمـير (أنت) يرى البصـريون أنها ـ كلهـا ـ ليست هى الضمـير وإنما الضمير هو (أن) ـ بسكون النون ـ والتاء حـرف لمجرد الخطاب وليست للضمير ولا موضع لهـا من الإعراب وليست (أن) عـمادا للتـاء وفتحة الـتاء تكون فى خطاب المذكر والكسرة فى خطاب المؤنث.

ويرى الكوفيون أنها بسيطة لا مركبة، ويرى ابن كيسان أن الضمير هو التاء.

ويفسر برجسـتراسر ما تركبت منه أنت وأخواتهـا فيقول : الظاهر أن (أنت) مركبة من (أن) التى يحـتمل أن تكون من أدوات الإشارة ومن (Ta) الموجودة فى صيغة المخاطب من مضارع الفعل الماضى من نحو ذهبتِ وقعدت[4].

وليس الأستـاذ برجستـراسر هو أول من قال بـتركُّبـها فقـد ذهب إليه بعض علمائنا القـدامى كأبى الحسن بن كيـسان فقد قـال : (إن الضمير المرفـوع هو التاء المتصرفة فكانت مرفوعة متصلة فلما أرادوا انفصالها دعموها لتستقل لفظا)[5].

---

(١) مدرسة الكوفة ص ١١٩.

(٢) حاشية الخضرى ص ٥٦، ٥٧، وانظر الإنصاف المسألة ٩٨ ص ٦٩٥ وما بعدها.

(٣) تاريخ اللغات السامية ص ٩.

(٤) التطور النحوى ص ٤٦ ـ ٤٨.

(٥) حاشية الصبان ١/ ١١٤، وهمع الهوامع ١/ ٦٠.

(د) فى مجال القواعد :

التذكير والتأنيث

الملاحظ أن اللغات تختلف فى تقسيمها للأسماء من حيث التذكير، والتأنيث، وعلامات كل منهما.

فبعض اللغات تقسم الأسماء إلى مذكر، ومؤنث، ـ كاللغة العربية ـ ولا ثالث لهما.

أما الفصيلة الهندية الأوربية فقد جاءت بثلاث طوائف من الأسماء لكل منها سلوكه اللغوى الخاص :

أسماء للمؤنث، وأسماء للمذكر، وأسماء لما هو محايد[1].

وقد سلكت اللغات الحامية مسلكا غريبا بهذا الصدد إذ قسمت الأسماء إلى طائفتين : الأولى تتضمن أسماء الأشخاص وما يدل على أشياء ضخمة ذات أثر واضح، وأخيرا تلك التى رأوها تعبر عن المذكر، أما الطائفة الأخرى فتشمل أسماء الأشياء الصغيرة القليلة الأهمية ومعها تلك التى تعبر عن المؤنث[2].

وتختلف اللغات ـ أيضا ـ فى العلامات الخاصة بكل من المذكر والمؤنث، فالمتكلم بلغات (البانتو) ـ فى جنوب إفريقية ـ يراعى فى صيغ الأسماء التفرقة بين الحى والجماد، ولغة التوش Tush ـ إحدى لغات القوقاز ـ تتخذ أنواعا مختلفة من اللواحق يتصل بعضها بالأسماء حين التأنيث الحقيقى، وأخرى حين التذكير الحقيقى، وثالثة تتصل بغير العاقل حيا كان أو جمادا.

---

(١) وهذا ـ كما يقول الأستاذ العقاد ـ وضع عقلى مخطئ؛ لأن التقسيم الصحيح فى الجنس المتميز أنه مذكر ومؤنث وليس هناك جنس ثالث متميز يسمى بالمحايد بل هناك أشياء لا جنس لها أصلا يستعار لها الجنس على سبيل المجاز، فتلحق بالمذكر أو بالمؤنث على حسب المناسبة عند وصفها، وليس هناك جنس ثالث ولو على الشذوذ كما يعرض للمذكر المشكل أو للأنثى المشكل : فإنها فى حقيقة التقسيم ذكر غير متميز أو أنثى غير متميزة ولا ثالث للجنسين يسمى بالجنس المحايد بينهما. انظر العقاد : مجلة الأزهر. عدد جمادى الآخرة سنة ١٣٨١هـ ـ نوفمبر سنة ١٩٦١م من مقال بعنوان (مقارنة لغوية فى ضمائر الجنس والعدد) ص ٦٥٩.

(٢) من أسرار اللغة ص ٩١.

والفرنسية الحديثة لا يحدد فيها تذكير الاسم أو تأنيثه علامة شكلية تلحق بالاسم، وإنما الأداة والصفة اللتان تصحبان الاسم هما اللتان تختلفان صيغة تبعا لاختلاف الجنس، فالمذكر تصحبه الأداة Le يقال Le soleil : (الشمس) - وهى مذكرة فى الفرنسية - والمؤنث تصحبه الأداة La يقال : La fille (الفتاة) غير أن الأداة واحدة قبل الأسماء التى تبدأ بصوت صائت، يقال L'amour و L'nnee والاسم الأول مذكر والثانى مؤنث(1).

ويبدو الجنس فى صورة خاصة فى بعض اللغات الأمريكية والإفريقية، فاللغة الألجونكية تميز بين جنس حى وجنس غير حى، ولغة الماساى - فى شرق إفريقية - تستخدم جنسا لما هو كبير، فى مقابل جنس لما هو صغير ضعيف(2)، ومثلها الأوردية ففيها تفريق بين الصغير والكبير من هذه الناحية فكلمة (دبا) - معناها صندوق كبير، و(دبى) للصندوق الصغير(3).

وقد اختلفت وجهة النظر فى اعتبار المؤنث والمذكر بالنسبة للتأنيث غير الحقيقى، فبينما يعتبر قوم شيئا مؤنثا يعتبره آخرون مذكرا، تبعا لاختلاف نظر الشعوب والمجتمعات اللغوية، و«إن الشمس والقمر لمثالان رائعان لدراسة هذه الظاهرة فى لغات مختلفة، فالشمس مؤنثة فى العربية، مذكرة فى الإنجليزية والقمر بالعكس»(4).

بل إن اللغات المتفرعة من أصل واحد يختلف المتكلمون بها فى هذا الاعتبار أيضا، فكلمة (شمس) مؤنثة في العربية - كما عرفنا - ولكنها فى العبرية والآرامية جائزة الأمرين، وقد استقرت فى الآشورية على التذكير، ومثل (كف) التى هى مؤنثة فى العبرية، والسريانية جائزة الأمرين فى العربية ولكنها مذكرة فى الآرامية(5).

---

(1) المصدر السابق : من أسرار اللغة ص ٩١.
(2) علم اللغة. د. السعران ص ١٥٦.
(3) مناهج البحث فى اللغة ص ٢١٥.
(4) المصدر السابق ص ٢١٦.
(5) من اسرار اللغة ص ٩٣، ٩٤.

وربما تختلف النظرة ـ باعتبار التذكير والتأنيث ـ فى لهجات اللغة الواحدة، ويتضح ذلك فى لهجات اللغة العربية الفصحى (فقد روت لنا المعاجم العربية اختلاف القبائل فى تذكير بعض الكلمات وتأنيثها مثل (كتاب) يستعمل مؤنثا عند بعض قبائل اليمن، ومثل العضد والعجز يستعمل كل منهما مذكرا عند أهل تهامة، كما روى لنا أن أهل الحجاز يؤنثون الطريق والصراط والسبيل والسوق والزقاق فى حين أن بنى تميم يذكّرون كلا من هذه الكلمات)[1].

ونظرا لهذا الاختلاف فى الحكم بتأنيث الشىء أو تذكيره ـ إذا لم يكن غير حقيقى ـ لا يرى المحدثون فى التأنيث اللغوى صلة منطقية فيها دقة المنطق ووضوحه للعقل والأذهان[2].

ويقولون : إن الجنس اللغوى يجرى على منطق خاص، بمعنى أن الجنس اللغوى لا يطابق الجنس فى الواقع الطبيعى، فالاصطلاح وحده هو الذى ذكر الهواء، وأنث الأرض والسماء فى العربية[3].

وهذا التأنيث أو التذكير مبنى على الملاحظة القائمة فى أذهان المتكلمين على اختلاف لغاتهم ولهجاتهم، وترك التصريح بعلامة تأنيث فى تلك الألفاظ وما شاكلها هو تعبير عن هذه الظاهرة.

ومن ذلك قول بعض الأعراب : (فلان لغوب جاءته كتابى فاحتقرها) فأنث الكتاب؛ لأنه ذهب إلى معنى الصحيفة، وإلى ذلك مال ابن جنى من الأقدمين والأستاذ عبد الله العلايلى من المحدثين[4].

ويرى بعض المستشرقين مثل ريت Wright : أن الخيال السامى الخصيب قد أخضع فى نهاية الأمر جميع الكلمات إلى أحد أمرين : إما تذكير، وإما تأنيث، وأنه شخَّص الأشياء وجعل منها أناسا، ثم تصور فى بعضها تأنيثا، وفى البعض الآخر تذكيرا.

---

(١) المصدر السابق ص ٩٢، ٩٣.
(٢) المصدر السابق ص ٩٤.
(٣) علم اللغة. د. السعران ص ٢٥٤.
(٤) الخصائص ٢/ ٤١٥، ٤١٦، مقدمة لدرس لغة العرب ص ٢٤٣ التعليق.

كذلك يرى Wensinck أن اللغات السامية حين خلعت على بعض الأسماء فكرة التأنيث قد تأثرت فى هذا بعوامل دينية وبأخرى مرجعها التقاليد والمعتقدات العامة التى جعلت الساميين فى قديم الزمان يرون فى المرأة غموضا وسحرا، وينسبون لها من القوى الخارقة ما لم يخطر ببال من جاءوا بعدهم، ثم ضموا إلى المرأة كل ظواهر الطبيعة التى خفى عليهم تفسيرها ودق على أذهانهم فهمها بجامع الغموض والسحر فى كل، وأدت تلك المعتقدات الخرافية إلى اعتبار بعض الأسماء مؤنثة؛ لأنها تعبر عن ظواهر غامضة ليس من السهل عليهم تفسيرها، وأشبهت - لهذا - فى أذهانهم ما أحاطوا به المرأة من سحر وخرافة، ومن تلك الكلمات كل ما عبر عن الأرض وأجزائها كالطريق، والبئر، ثم الجهات الأربع، ومعظم مظاهر الطبيعة من ريح وسحاب ومطر، وأخيرا تلك الأسماء التى تدل على الممالك، والمدن، وأجزاء الجسم، والأسلحة والحجارة وبعض الحيوان.

ويبنى الدكتور أنيس على هذا الأساس أن اللغة تقبل نصوصا مثل : المرأة الكاعب والناهد - ﴿السماء منفطر به﴾ - ﴿بلدة ميتا﴾ . . إلخ[1].

ويبدو لنا أن المتكلم بأية لغة من اللغات إنما يبنى اعتبار التأنيث والتذكير على أساس الوضع الحقيقى، وهو ظاهر ملموس، ثم يبنى على الحقيقى اعتبار المؤنثات المجازية بحيث يعتد شبها بين هذا وذاك، على أساس التصور لكل منهما، فإذا اتضحت للاهج صفة من الصفات تربط لفظا أو شيئا ما بالمؤنث الحقيقى أمكن اعتباره كذلك مؤنثا، وإن وضحت صلته بالمذكر اعتبر كذلك، فالأرض - مثلا - اعتبرت فى العربية مؤنثة وإن لم تشتمل على علامة تأنيث لأنها موطن إخراج النبات، كالمرأة فهى موطن التوالد والنتاج وكذلك السماء اعتبرت مؤنثة، إذ هى تجود بالرزق والمطر وهكذا الريح والسحاب والمطر وغير ذلك.

وأما عدم اعتبارها مؤنثة فى نظر كل عربى واقترانها بعلامة تأنيث فهذا لأن التصور المذكور ملاحظة خاصة يلحظها القائل بالتأنيث وقد يختلف فيها غيره.

---

(١) من أسرار اللغة ص ٩٤، ٩٥.

ولذلك يقول الأستاذ العقاد : إن الكلمات التى تؤنث فى اللغة العربية - وهى خالية من علامات التأنيث - لم تترك عندنا بغير علامة تميزها؛ لأن اللغة عاجزة عن تمييزها بعلامة من علاماتها الكثيرة، بل هى متروكة لاعتبارها أصلا من المؤنثات المجازية، أو المذكرات المجازية، فليس السبب هنا راجعا إلى نقص العلامات والصيغ، أو إلى قواعد اللغة على العموم، ولكنه راجع إلى التصور النفسانى الذى يوحى إلى الذهن إلحاق بعض الأشياء بهذا الجنس أو ذاك على حسب العوامل الكثيرة التى تعمل عملها فى هذه التفرقة عند أبناء اللغات أجمعين[1].

ولذلك كان رأى رايت Wright قريبا من الصواب، أما رأى Wensinck السابق فغير سديد؛ لأن السامى حين اعتبر الكلمات التى أشار إليها مؤنثة لم يكن عن غموض مفاهيمها فى نفسه إلى حد خرافى يجعله ينسب ذلك إلى ما فى المرأة من سحر وخرافة.

فهناك كلمات كثيرة تختلف النظرة إليها من حيث التذكير والتأنيث تبعا للتصور النفسانى المشار إليه.

ويرى بعض المحدثين - بناء على الظاهر - أن أمر التأنيث وعلاماته مضطرب فى العربية وما قال به قدامى العرب من علامات للتأنيث غير محددة لطبيعة الأشياء التى توصف بهذا المعنى، وذلك لوجودها فى مواضع كثيرة تتناقض وهذا القانون الذى اتفقوا عليه.

فالقدماء يقولون : إن التاء علامة للتأنيث، ولكننا نرى أنها تأتى فى بعض الأسماء دالة على غيره من مبالغة وغيرها، وقد نرى اسما لمؤنث وهو خالٍ منها على حين توجد فى اسم هو علم على مذكر فإذا كانت فى (شجرة) للتأنيث فهى فى (معاوية) ليست له، والألف المقصورة والممدودة لا تختص بالدلالة على المؤنث

---

(١) مجلة الأزهر عدد رجب ١٣٨١هـ - ديسمبر سنة ١٩٦١م من مقال بعنوان (الصفة فى اللغة العربية) ص ٧٩٠.

فهما فى حبلى وحمراء للتأنيث، وفى الهوى والجوى والهباء والفناء ليستا كذلك لأنها كلمات مذكرة[1].

ومن هنا يرى هؤلاء المحدثون أن تلك العلامات ليست حدا فاصلا يتميز به المذكر والمؤنث.

بل إن الأمر فى معرفة ذلك تماما لا يمكن أن يعتمد فيه عليها وإنما «العلامات الشكلية التى تحدد تذكير الاسم أو تأنيثه فى العربية تتحقق أساسا فى الإسناد والصفة، فالذى يبين أن السماء مذكرة أو مؤنثة هو وصفها كأن تقول : السماء الصافية لا الصافى أو الإخبار عنها كأن تقول : أمطرت السماء لا أمطر»[2].

وفى شرح التصريح ـ عن القدامى ـ ما يفيد ذلك ـ مع إضافات أخرى.

فقد قال الأزهرى : إن العرب قد أنثوا أسماء كثيرة بتاء مقدرة، ويستدل على ذلك التقدير بالضمير العائد عليها نحو **﴿النار وعدها الله الذين كفروا﴾** ـ **﴿حتى تضع الحرب أوزارها﴾** ـ **﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾** ـ فالنار والحرب والسلم مؤنثات بدليل عود ضمير المؤنث عليها، وبالإشارة إليها نحو (هذه جهنم) فجهنم مؤنثة بدليل الإشارة إليها بإشارة المؤنث ـ وهى هذه ـ وبثبوتها ـ أى الياء ـ فى تصغيره نحو (عيينة) و(أذينة) ـ مصغرى عين وأذن من الأعضاء المزدوجة ـ فإن التصغير يرد الأشياء إلى أصولها، أو بثبوتها فى فعله نحو ـ **(ولما فصلت العير)** فالعير مؤنثة بدليل تأنيث فعلها، وبسقوطها من عدده كقول حميد الأرقط يصف قوسا عربية :

أرمى عليها وهى فرع أجمع   وهى ثلاث أذرع وإصبع

---

(١) علم اللغة. د. السعران ص ٢٥٥، ٢٥٦.

ومما يلاحظه الباحثون أن العربى قسم الموجودات إلى حيوان وجماد، والقسم الأول يتعين التذكير فيه أوالتأنيث سواء وجدت به علامة فارقة أو لم توجد وهذا ما يسمى بالحقيقى (شرح التصريح ٢/ ٢٨٥) ولكنه اضطرب فى تحديد أمر ما سوى الحيوان تذكيرا أو تأنيثا، فقد وردت ألفاظ تقع على غيره مرة مؤنثة، واخرى مذكرة، ومن هنا نجد اللغويين يعللون هذا بأن الأصل فى الأشياء جميعها التذكير ـ كما قال سيبويه ـ لأن المذكر أول وهو أشد تمكنا، وإنما يخرج التأنيث من التذكير، الا ترى أن الشىء يقع على كل ما أخبر عنه من قبل أن يعلم أذكر هو أم أنثى والشىء مذكر (الكتاب ١/ ٧).

ثم يقولون : إن الغالب على كذا هو التذكير، وقد يؤنث مثل اللسان والقفا (حاشية يس على التصريح ٢/ ٢٨٥).

واللغويون ـ لذلك ـ يختلفون فيما بينهم فى تحديد المذكر والمؤنث اختلافا بينا، فما يقطع ابن سيدة بتذكيره يجوز فيه الأزهرى التأنيث، ولذلك يقول الأستاذ العلايلى : إن التذكير والتأنيث لم ينتقيا من الفوضى (مقدمة لدرس لغة العرب ص ٣٤٣).

(٢) علم اللغة. د. السعران . ص ٢٥٥، ٢٥٦.

فأذرع جمع ذراع، وهى مؤنثة بدليل سقوط التاء من عددها وهو ثلاث[1].

ويرى Wensinck أن تلك العلامات ليست أكثر من علامات للمبالغة تفيد التكثير، كعلاّمة وفهّامة فى وصف مذكر، وقتلى وجرحى وشهداء وعلماء فى وصف بعض الجموع[2].

والقول بأن هذه العلامات إنما هى للمبالغة لا للتأنيث غير مسلم به، فالتاء كما تكون للتأنيث تكون للمبالغة ولا مانع من الاشتراك فى الوصف إذا كان ذلك قائما على أساس معنوى.

بل بلغ من اعتقاد بعض المحدثين أن فسروا هذه العلامات المذكورة تفسيرا يخالف ما ذكره أسلافنا، فليست كل علامة منها مستقلة تماما عن الأخرى ولها مبدأها الخاص بل إن الألف ـ بنوعيها ـ نشأت تدريجيا عن التاء.

يقول الدكتور محمد الجرح : إن ألف التأنيث المقصورة فى العربية تطورت عن تاء التأنيث بدليل هذا التطور الموجود فى اللغة العامية مثل (نجّحا) وقد ربط بين تطور العربية وتطور العبرية فى هذا المقام بأن التاء تحولت إلى هاء كما فى العبرية، ثم تحولت هذه الهاء إلى مدة، فالهاء ـ عنده ـ مرحلة وسطى بين التاء والألف[3].

ويقول الدكتور أنيس ـ موافقا الجرح ـ : إن «ما ظنه القدماء هاء متطرفة هو فى الواقع امتداد فى النفس حين الوقوف على صوت اللين الطويل ـ أو كما يسمى عند القدماء ألف المد ـ وهى نفس الظاهرة التى شاعت فى الأسماء المؤنثة المفردة التى تنتهى بما يسمى بالتاء المربوطة فليس يوقف عليها بالهاء ـ كما ظن النحاة ـ بل بحذف آخرها ويمتد النفس بما قبلها من صوت لين قصير «الفتحة» فيخيل للسامع أنها تنتهى بالهاء.

ولقد تطورت تاء التأنيث فى اللغات السامية على مراحل ليس هنا مجال تفصيلها، وإنما يمكن الإشارة إليها فيما يلى :

---

(١) شرح التصريح : ٢/ ٢٨٥ : ٢٨٦.

(٢) دراسات فى فقه اللغة ص ٨٣.

(٣) القراءات القرآنية فى ضوء علم اللغة الحديث ص ٨٢.

أ ـ الأصل فى علامة التأنيث هو التاء المتطرفة، وقد ظلت على حالها فى الفعل الماضى وجمع الإناث فى اللغة العربية.

ب ـ تطورت فى الأسماء المؤنثة إلى حال وسطى وهى النطق بها تاء فى حالة الوصل، وحذفها فى حالة الوقف.

جـ ـ الطور الثالث لهذه العلامة هو حذفها مطلقا وصلا ووقفا فى كل اسم مفرد مؤنث.

وقد شاع هذا الطور الأخير فى معظم اللغات السامية كالعبرية، وفى اللهجات العربية الحديثة، فحين نسمع كلمة مثل «الشجرة» فى لهجات الكلام الآن يخيل إلينا أن التاء المربوطة قد قلبت هاء.

والحقيقة أنها حذفت من النطق، وامتد النفس مع صوت اللين قبلها، فسمع كالهاء[١].

وهذا التطور فى اللهجات العربية الحديثة ـ كما يقول الدكتور أنيس ـ يبدو طبيعيا، ويتبع سنة التدرج.

وقد استدل الدكتور أنيس على ما ذهب إليه بإمالة القراء لما قبل هاء التأنيث يقول : ومما يؤيد ما نذهب إليه الإمالة فى هذه الأسماء، فقد رويت فى قراءة الكسائى، كما شاعت فى كثير من اللهجات العربية الحديثة، وهذه الإمالة لا علاقة لها بتاء التأنيث كما زعم بعض القراء بل هى مجرد إمالة الفتح قبلها[٢].

ومن الممكن ـ إذًا ـ كما يقول الدكتور شاهين ـ أن تكون لكل صورة منتهية الآن بالألف المقصورة أو الممدودة صورة منتهية بالتاء إلا أنها ماتت بفعل التطور اللغوى[٣].

«وأما الألف الممدودة فهى تطور للمقصورة نظرا لكراهية العربى الوقوف على مقطع مفتوح».

---

(١) فى اللهجات العربية ص ٩٩ وما بعدها.

(٢) المصدر السابق ص ١٠٠.

(٣) القراءات القرآنية فى ضوء علم اللغة الحديث ص ٨٢.

فالمقطع المفتوح قد أقفل إذا بصوت لا وظيفة له سوى الإقفال ـ كهاء السكت ـ وبعد ألف الندبة (وازيداه مثلا) ولأمر ما تسمى الهاء عند القدماء هاء السكت وكان من الممكن إطلاق ذلك على الهمزة فى مثل : حمراء وزرقاء إلخ.

وهذا معناه ـ بوضوح ـ أن همزة الكلمات السابقة وما يماثلها ليست للتأنيث كما يقول بذلك سالف اللغويين بل إنه حرف جيء به لمجرد إقفال المقطع لتمكين النطق.

وهذا يوافق ما قال به وليام رايت فى كتابه (محاضرات فى النحو المقارن للغات السامية) وهو أن الألفين المقصورة والممدودة لا ارتباط لهما بتذكير أو تأنيث، بل ربما كان كل منهما فى الأصل يعبر عن فكرة تجريدية[١].

ويبدو لنا أن القول بتطور ألف التأنيث المقصورة عن تاء التأنيث غير مسلم، والاستدلال بالعامية لا يؤيده.

فالواقع أننا ننطق فى العامية «ناجحة» بالهاء التى تصير إليها تاء التأنيث عند الوقف ولا نقول : «ناجحا» بالألف.

وإذا كان هذا يحدث فى لهجة بلدة واحدة تنطقها على الصورة السابقة فلا يمكن أن نفسر على أساسها ألف التأنيث فى الفصحى حيث انعدم منهج الاستقراء العلمى الدقيق.

وقد رد الدكتور عبد الفتاح شلبى على الدكتور أنيس فى الاستدلال بالإمالة السابقة بقوله :

ولكنى لا أستطيع أن أتخذ من إمالة القراء لما قبل هاء التأنيث دليلا على صحة ما ذكر الدكتور أنيس، فالإمالة لم تقع فيما قبل هاء التأنيث؛ لأن الهاء حذفت، أو أنهم يقدرون حذفها، لا؛ بل لأنها شبيهة بالألف فى الخفاء وقرب المخرج، إلى غير ذلك من الأسباب التى ذكرها القراء والنحاة.

---

(١) المصدر السابق ص ٨٢.

ومثل قوله تعالى : ﴿فلا اقتحم العقبة * وما أدراك ما العقبة * فك رقبة * أو إطعام فى يوم ذى مسغبة﴾ إلى آخر السورة[1] ـ مما فيه الهاء ـ يقرؤها القراء بدون حذف الهاء.

وإذا كان حذف الهاء فى مثل هذه الكلمات فى اللهجات العربية الحديثة فإن القراء يحرصون على النطق بها، وإن كانت تأتى خفية شبيهة بالألف فى الخفاء[2].

وليس من المنهج العلمى السديد ـ أيضا فى هذا الصدد ـ مقارنة الفصحى بلهجات عامية بعدت عن أصلها، وتأثرت بلغات أجنبية بعيدة عن طبيعة العربية.

وينتفى ـ بناء على ذلك ـ ما ذكره الدكتور شاهين من أن كل صورة منتهية بألف التأنيث المقصورة، أو الممدودة كانت لها صورة منتهية بالتاء.

وإن رأى المحدثين الذى يقوم على أساس أن الألف المقصورة أو الممدودة لا ارتباط لها بتذكير أو تأنيث لا يسانده الواقع، فهذه الألف إنما يفهم منها التأنيث، كما يتضح من ألفاظ اللغة واستعمالاتها.

وكون الهمزة الممدودة لإقفال المقطع فقط غير سديد، فالهمزة أصلها ألف كما نرى فى صحرى وصحراء وبشرى وبشراء ونحو ذلك.

وأخيرا، فإن رأى هؤلاء المحدثين قائم على مجرد التخمين والظن، فلا يقبل فى أمور لغوية يجب أن تستند إلى أساس علمى دقيق مؤيد بالحجج والبراهين القاطعة.

وأما الأوصاف الخاصة بالمرأة التى أتت مذكرة مرة ومؤنثة أخرى مثل حائض وحائضة، وطامث وطامثة فذلك وصف لها فى حالين مختلفين؛ فإن قصد بها الحدوث فى بعض الأزمنة لحقتها التاء فقيل : حائضة، وطامثة، وإن لم يقصد بها ذلك لم تلحقها فيقال : حائض، وطامث[3] وهى على النسب فى التذكير كأنه قال: ذات حيض، وذات طمث[4].

---

(١) الآية ١١ وما بعدها من سورة البلد.

(٢) الإمالة فى القراءات واللهجات العربية د شلبى ص ٢٤٣، ٢٤٤.

(٣) شرح التصريح ٢/ ٢٨٦.

(٤) حاشية يس على التصريح ٢/ ٢٨٦.

ولهذا مال الأستاذ العقاد فقد جعل ذلك أمرا راجعا إلى طبيعة المعنى، وهو شأن العربية دائما، يقول :

«فالصفة يجب فيها التأنيث إذا كان الموصوف مؤنثا على الحقيقة، أو على المجاز، ولكنها تؤنث بمعناها ولا ضرورة لتأنيثها بلفظها إذا امتنع اللبس، وبطلت الحاجة إلى العلامة اللفظية، فلا حاجة إلى تاء التأنيث فى مثل (حامل ومرضع وطالق)؛ لأن اللبس بين التذكير والتأنيث ممتنع فى هذه الصفات، ولكن التاء قد تلحق بالصفة إذا كان ملحوظا فيها الفعل، ولم يكن الملحوظ فيها هو الحالة، كما جاء فى الشاهد المشهور :

أيا جارتا بينى فإنك طالقة   كذاك أمور الناس غاد وطارقة

وأيًّا كان الحكم فى الخلاف بين الكوفيين والبصريين على سبب حذف التاء، فالذى لا خلاف عليه أن حذفها ملحوظ فيه حالة دائمة، وليست حالة وقوع الفعل لمرة واحدة، أو عدة مرات، فالبصريون يقولون : إنما حذفت علامة التأنيث لأن قولهم : طالق وطامث وحائض وحامل فى معنى : ذات طلاق، وطمث، وحيض، وحمل، على معنى النسب، أى أنها قد عُرفت بذلك كما يقال : رجل رامح ونابل»[1].

فاللغة العربية دقيقة غاية الدقة فى تحديدها للمذكر والمؤنث؛ لأنها لغة المعنى واللفظ على السواء.

ففيها علامات للتأنيث يمكن استخدامها عند الحاجة إليها ـ كما يقول الأستاذ العقاد ـ وفى بعض الأحيان تركت الفرصة أمام اللاهجين ليختاروا ما توحى به نفوسهم من التذكير والتأنيث.

وبهذا نستطيع أن نجزم بأن أمر التذكير والتأنيث عندنا ليس قائما على الفوضى كما ادعى ذلك بعض المحدثين[2].

---

(١) مجلة الأزهر. العدد السابق ص ٧٨٨، ٧٨٩.

(٢) انظر التعليق ص ١٢٨ حيث ذهب الأستاذ العلايلى إلى ذلك.

وفى التذكير والتأنيث مرت اللغات السامية بمراحل تطورية فكانت التفرقة بين المذكر والمؤنث تتم بتنويع أصول الألفاظ لكل من الجنسين فيقال : غلام وجارية وحمار وأتان[١] . . إلخ، ولذلك نظائر فى الساميات مثل أب وأم[٢]، ثم وجدت العلامة المميزة وهى فى العربية تاء التأنيث والألف المقصورة والألف الممدودة.

ونلاحظ وجود التاء فى اللغات السامية الأخرى، أما الألف المقصورة فيذكر برجستراسر أن لها نظائر فى العبرية والآرامية وأن الممدودة تماثلها فى العبرية الضمة الطويلة الممالة فى مثل shllo[٣].

وفى تاء أخت وبنت ذكر نحاة العرب أن التاء ليست للتأنيث لسكون ما قبلها، وأن التاء مبدلة من الواو[٤].

ويرى برجستراسر أن الحكم بأن التاء بدل وليست للتأنيث غير صحيح؛ لأن التاء تستخدم للتأنيث فى اللغات السامية مع سكون ما قبلها كالأكدية، والعبرية، فلا نجد فيها ما قبل تاء التأنيث مفتوحا غالبا.

---

(١) الأشباه والنظائر للسيوطى ص ٣١.

(٢) انظر بروكلمان .run driss. I. p. 415

(٣) انظر التطور النحوى ص ٧٥، والمرجع السابق لبروكلمان I, p. 410.

(٤) الكتاب ٢/ ٨٢، ٢١٣ وسر صناعة الإعراب ١/ ١٦٥ وشرح المفصل ١٠/ ٣٩.

التنكير والتعريف

ينقسم الاسم إلى نكرة ومعرفة.

فالنكرة : ما وضع لشيء لا بعينه[1].

والمعرفة : ما وضع لشيء بعينه، وهي المضمرات والأعلام والمبهمات وماعرف بالألف واللام وبالنداء أو المضاف إلى أحدها معنى[2].

وأصل الأشياء أن تكون نكرات، ثم تعرف بعد ذلك.

والتنوين يختص بالاسم منه ما ليس للترنم وهو أربعة أقسام :

أحدها ـ تنوين التنكير[3] وهو اللاحق لبعض الأسماء المبنيات قياسا فى باب العلم المختوم بويه كسيبويه وسماعا فى باب اسم الفعل المختوم بالهاء أو غيرها كصه وإيه إذا أردت من الأول شخصا ما أو أردت فى الثانى استزادة من حديث ما[4].

وثانيها ـ للتمكن، ومعناه كون الاسم معربا ويحذف التنوين من غير المنصرف ـ مع أنه معرب ـ لمشابهته الفعل الذى أصله البناء.

وثالثها :للتعويض عن المضاف إليه كحينئذ.

ورابعها ـ للمقابلة فى جمع المؤنث السالم نحو : مسلمات لمقابلة نون جمع المذكر السالم على الأعرف من أقوال النحاة[5].

وجعل بعض العلماء التنوين علامة للتنكير مطلقا ولم يقصره على ما قصره عليه غيره من العلماء فيما سبق.

فتنوين التنكير يدخل نحو رجل وفرس كما يدخل أيضا الأعلام إذا كثر المسمون بها، فضارعت بألفاظها النكرات إذ كان تعرفها معنويا لا لفظيا[6] لأنه لا لام تعريف فيها ولا إضافة.

---

(١) الكافيه لابن الحاجب بشرح الرضى جـ٢ ط بيروت ص ١٤٥

(٢) المصدر السابق جـ٢ ص ١٢٨

(٣) المصدر السابق جـ١ ص ١٣

(٤) شرح التصريح ١/ ٣٢، ٣٣

(٥) الكافية ١/ ١٣، ١٤

(٦) الخصائص ٣/ ٢٤

وقد فسر الأستاذ إبراهيم مصطفى حرمان العلم من التنوين حين يردف بكلمة (ابن) وينسب إلى أبيه بكونه معينا تمام التعيين، وليس ابتغاء التخفيف كما ذهب إليه النحويون، ومعنى هذا أنهم ينونون العلم إذا كان فيه معنى التنكير وأردت الإشارة إليه[1].

وفى الواقع أن ما ذهب إليه ابن جنى وتابعه عليه الأستاذ إبراهيم مصطفى يتمشى مع منطقية هذه اللغة فليس فى الأمر ما يدعو إلى تخصيص تنوين التنكير بما ذكر آنفا، وما المسوغ لاختصاص نحو سيبويه من الأعلام بذلك دون سواه منها؟ وربما كانت زيادة التنوين فى نحو صه لا للتنكير، بل لاعتدال البناء بصيرورته على ثلاثة أحرف[2].

وابن جنى فى جعله التنوين علامة للتنكير يساير سابقيه من العلماء فى تقسيم الاسم إلى نكرة ومعرفة، ويبدو من كلامه أن التنوين علامة على هذا التنكير وكأنه علامة يفتقر إليها وربما تنافى هذا مع الأصل الذى ذهبوا إليه من أن أصل الأسماء أن تكون نكرات ثم تعرف بعد ذلك.

أو أن التنوين والألف واللام علامتان تتناوبان الاسم فى حالة خاصة «فرجل بالتنوين نكرة كما أنه باللام معرفة وقبل دخولها ليس بواحد منهما، فالتنكير استفيد من التنوين والتعريف من اللام[3] وهذا على القول بإثبات الواسطة بين النكرة والمعرفة وهو مذهب معروف لبعض النحاة.

والقول بالواسطة المذكور لا يطابق الواقع اللغوى؛ لأن الاسم إما نكرة أو معرفة ولا ثالث لهما وبعض المحدثين من اللغويين يخالف ما ذهب إليه القدامى كليا وجزئيا.

فيرى الدكتور إبراهيم السامرائى أن النحويين واللغويين القدامى لم يفلحوا فى التفريق بين المعرفة والنكرة فقد أطلقوا هذه الفروق ولم يستطيعوا أن يتبينوها

---

(١) إحياء النحو ١٧٩ ودراسات فى اللغة د. إبراهيم السامرائى ص ١٢٠.

(٢) دراسات فى اللغة ص ١٢١.

(٣) حاشية يس على التصريح ١/ ٣٢، ٣٣.

بدقة تامة فقد ذكروا أن المبتدأ لا يقع نكرة إلا مع الإفادة، وقد جاء في العربية بدونها كما أشار إلى ذلك ابن مالك.

وقد يجوز نحو فائز أولو الرشد

كما نقد القول بأن التنوين يكون علامة للتنكير وقال : إن التنوين أداة صوتية في آخر الكلمة ربما قصد بها التنبيه والإشارة ثم فقدت مكانها فصارت «أل» في أول الكلمات للتعريف[1] وعلى هذا فالتنكير بالتنوين والتعريف باللام شيء واحد[2].

والأدلة على ذلك الرأي كثيرة قديمة وحديثة ومقارنة.

فأكثر الأعلام في العربية يقبل هذا التنوين ويعسر علينا فهمها على ما ذكره ابن جني ومتابعوه.

وفي اللغة الأكدية ما يثبت أن التنوين واللام شيء واحد كنصوص حمورابي وهو (التمييم) الذي يقابل التنوين في العربية فهو في الأكدية العتيقة يدخل على الألفاظ عموما لا فرق بين معرفة ونكرة كما أنه لا يوجد أداة للتعريف.

والتعريف والتنكير متصلان تمام الاتصال في مجموعة اللغات السامية بل يتبادلان مكان كل منهما، فأداة التعريف كانت في الآرامية العتيقة فتحة ممدودة ملحقة بآخر الكلمة نحو Sun (أي اسم) و Sma (أي الاسم) وربما كان هذا أصل الفتحة الممدودة ha التي هي آلة التعريف في العبرية والتي توضع في أول الكلمة.

ومكان أداة التعريف هو آخر الاسم في كثير من اللغات السامية،ففي لغات اليمن الجنوبية أن (أن) أداة التعريف وهي تلحق الآخر وربما كانت هذه هي (هن) كما في العبرية القديمة ثم بدلت مكانها فصارت بصدر الاسم كما في اللهجة الصفوية والثمودية مثل (هجمل) ومعناه الجمل و(هبيت) ومعناه البيت والتشديد في الحرف من الكلمة دليل على النون المحذوفة.

---

(١) المصدر السابق ص ١٢٤.

(٢) المصدر السابق ص ١٢٢.

وقد وردت أم فى لغة حمير أداة للتعريف مثل الحديث : «ليس من امبر امصيام فى امسفر».

وقد رجح أن تكون اللام فى العربية مبدلة من النون[1].

وكل هذه الأدلة استنتج منها رأيه الذى ذكرناه سابقا ونقض بتلك الوجهة ما ذكره ابن جنى من دخول أداة واحدة على الاسم التنوين أو اللام؛ لأن كلا منهما ضد للآخر.

وقد علل الأستاذ السامرائى لامتناع العرب من الجمع بين التنوين وأل فى كلمة واحدة بأنهما يدلان على شىء واحد ـ بناء على ما ساقه من الأدلة ـ وبأن طبيعة الكلمة العربية أو وحدتها الصوتية لا تسمح بالجمع بينهما فى لفظ واحد.

ولكن تصريح الدكتور السامرائى (بأن التمييم) لا يفيد التعريف أو التنكير فى الأكدية العتيقة يعتبر دليلا عليه لا له فكيف يقارن الأستاذ لغة عتيقة ترجع استعمالاتها إلى تاريخ سحيق بالعربية الفصحى بعد أن تطورت وارتقت ووصلت إلى درجة الاستقرار اللغوى الذى تحددت فيه الاستعمالات والصيغ وأخذت كل علامة مكانها المناسب واختصت بدلالتها المعينة.

وقد دار حوار الدكتور الطويل حول أدوات للتعريف تتقدم تارة وتتأخر أخرى وهذا أيضا لا علاقة له بعدم اجتماع علامتى التعريف والتنكير فكل ما يمكن فهمه من ذلك أن هذه الأداة التى هى علامة التعريف غير ثابتة الأوضاع فى تلك اللغات السامية فمرة توجد أولا ومرة آخرا ولا شأن لنا بذلك، فاللغة العربية وهى واحدة من بنات السامية الأولى قد استقر وضعها بتحديد مكان أداة التعريف فى أوائل الكلمات.

والارتباط بين أداة التعريف فى تلك اللغات وبين (التمييم) فى الأكدية وتبادل أمكنتهما يمثل مرحلة قديمة لم تستقر فيها أوضاع تلك اللغات فلا يصح مقارنتها بالعربية النموذجية التى استقرت ـ بعد تطور طويل ـ فى أرقى المستويات اللغوية.

---

(١) دراسات فى اللغة ص ١٢٢ ـ ١٢٤.

وأمـا التناقض الشكلى الذى بنى عليـه الدكـتور رأيه من أن أكـثر الأعـلام العربيـة يقبل هذا التنوين فـإننا نفسـر ذلك بأن العلم لما شاع واسـتـعمل لكثـير من الأفراد صار نكرة ومن هنا دخل التنوين للتنكير ويمكن فـهم دقة اللغة العربية فى هذا الشأن من صور الاستعمال المختلفة ونمثل بالمنادى فهو إذا كان معينا محددا منع من التنوين فقيل يا محمدُ إذا قصد محمد معين يشار إليه، وأما إذا قصد محمد ما شائع فى جنسه قيل يا محمدًا بالتنوين ومثله يا رجلُ فى النكرة المقصودة ويا رجلاً إذا كان شائعا غير محدد[1].

ومن هنا صـرح اللغويون بأن العلم اسم يعـين مسـماه تعـيينا مطلقـا ولفظ الإطلاق يعنى مجـرد الوضع، وكان هذا القيـد إجابة عمـا قد يوجه إلى التـعريف السابق؛ لأن العلم يـعرض له الاشتـراك كزيد مسـمى به جماعـة فإنه لا يدل على مسماه حينئذ[2].

فالعلم فى الأصـل كان يدل على فرد واحـد ثم سمى به كـثير فـشاع وعلى ذلك قالوا: إن العلم إذا كان محددا تمام التـحديد بحيث لا يطلق إلا على شخص واحد لا يجوز وصفـه؛ لأن العلم يغنى ذكره عن ذكر أوصاف كثيـرة حينئذ فنحن إذا قلنا (الحسـن) أغنى عن ذكر الرجل الفـقيه العـالم الزاهد البصـرى إلخ. فإذا وصف العلم فلأنه كثر المسمون به فالتبس[3].

وقـد زاد ابن جنى ذلك الأمر جـلاء حين أوضح أن بعض الأشـخاص قـد يكون له تسمية ينفرد بها فينطبق عليه الحكم السابق إذا ذكر بحيث لا يمكن وصفه لتخصـصه بنفسه، أمـا الاسم المشترك بين كثـير فإنه يحتـاج إلى الوصف وإن كان علما لشيوعه فى مسميات كثـيرة فما لم يكن له شريك فى العلمية مثل الفرزدق لا يوصف فلا يقال التـميمى ولا نحو ذلك؛ لأنه لم يسم به أحد غـيره. وإذا ذكرته باسمه همام جـاز وصفه فقلت همام بن غالب لاشـتراك كثـير معه فى هذا الاسم ولا يصح أن يقال : الفـرزدق بن غالب إلخ إلا عند إرادة معرفـة نسبه فقـط فأما على التخليص والتخصيص فلا[4].

---

(1) شرح التصريح ٢/١٦٦، ١٦٧.
(2) المصدر السابق ١/١١٣.
(3) الخصائص ٣/٢٣٨/٢٣٩.
(4) المصدر السابق ٣./٢٣٩.

وعلى هذا فتنكير العلم ليس دليلا على أن التنوين لا يفيد التنكير بل على العكس من ذلك يعد التنوين دليلا قاطعا على أن هذا اللفظ ـ وإن كان علما ـ نكرة لشيوعه فى أفراد كثيرة.

ومن المعقول ـ على ما يرى ابن جنى ـ أن التنوين والألف واللام لا يجتمعان فى بناء واحد؛ لأن ذلك يؤدى إلى عبث المتكلم، وعدم الحكمة التى امتاز بها العقل العربى، فكيف تجتمع علامتان تدل إحداهما على التنكير، والأخرى على التعريف كالبياض والسواد لا يجتمعان فى مكان واحد، بل يمحو كل واحد منهما الآخر، والحكم ـ إذا ـ يكون للعلامة التى تطرأ على الأخرى.

فإذا فرض أن كلمة ما كانت منونة، ثم دخلت عليها لام التعريف صارت معرفة، وحذف التنوين، كرجل والرجل فالحكم للثانى، وإلا لما فارق كل منهما مكانه، ولما سمح لغيره أن يطرأ عليه.

يقول فيلسوف العربية : إن التضاد فى هذه اللغة جار مجرى التضاد عند ذوى الكلام فإذا ترادف الضدان فى شىء منهما كان الحكم منهما للطارئ فأزال الأول، وذلك كلام التعريف إذا دخل على المنون حذف تنوينه كرجل والرجل، وذلك أن اللام للتعريف والتنوين من دلائل التنكير، فلما ترادفا على الكلمة تضادا فكان الحكم لطارئهما وهو اللام[1].

وهذا ـ كما يقول ابن جنى ـ جار مجرى الضدين المترادفين على المحل الواحد كالأسود يطرأ عليه البياض، والساكن تطرأ عليه الحركة فالحكم للثانى منهما.

ومن هذا كله نستنتج أن اللغة العربية تعرف لكل معنى قدره ومكانه المناسب فلا تتعارض معانيها أو استعمالاتها بحيث إذا كان اللفظ نكرة امتنع دخول علم المعرفة فالحكم للطارئ كما ذكر ابن جنى.

ومن ذلك حذف التنوين للإضافة؛ لأن التنوين للإتمام والإضافة للنقص والأولى للتنكير والثانية للتعريف فتضادا فلا يمكن اجتماعهما فالحكم للطارئ وهو الإضافة[2].

---

(١) الخصائص ٣/ ٦٢.

(٢) المصدر السابق ٣/ ٦٥.

التثـنية

تقسم العربية الأسماء إلى مفرد ومثنى، وللتثنية علامة تدل عليها هى الألف والنون رفعا والياء والنون نصبا وجرا.

وفيهـا كلمات تلحق بالمثنى وهى كلا وكلتا إذا أضيـفتا إلى الضمير فـتعربان إعراب المثنى فى الحالات المختلفة.

أما إذا أضيفتا إلى الظاهر فإنهما تعربان بحركات مقدرة.

كما يلحق بالمثنى اثنان واثنتان.

وفى العـربية ألفاظ أخـرى تستـخدم للدلالة على التـثنية دون أن يكـون لها قانون الزيادة المشار إليها.

والدلالة على التـثنية مـوجودة فى اللغـات الإنسانيـة وفى اللغـات السامـية أخوات العربية توجد بقايا من المثنى بعـلامة التثنية وهى الياء والنون أو الياء والميم مستخدمة فى جميع حالات الإعراب.

وهذا واضح فى الآرامـية فى الألـفاظ الخـاصة بأعـضـاء الجسم المزدوجـة كاليدين والرجلين فهما فيها riglain, yadayin.

والتثنية ـ كما نرى ـ بالياء والنون، وبقيت ـ كذلك ـ فى السريانية تثنية بعض الكمات بالياء والنون ـ مثل :

Trin ـ اثنان للمذكر ـ و Tertin اثنتان أو ثنتان للمؤنث و matin ـ مائتان ـ و misrin ـ مصران تثنية مصر.

وهذه العـلامة ـ اليـاء والنون ـ فى الآرامـية والسـريانيـة تستـعمل لحـالات الإعراب كلها على حين أن الياء خاصة فى العربية بغير حالة الرفع.

واختلفت الصـورة فى السريانيـة عنها فى لهجـات الآرامية الأخـرى، فعلى حين تكسر السريانية ما قبل الياء تفتح الآرامية.

وبقيت فى العبرية والبابلية[1] ـ كذلك ـ التـثنية فى أعضاء الجـسم المزدوجة باستخدام الياء والميم لحالات الإعراب كلها مثل : yadayim..

---

(١) هى والآشورية فرعا الأكدية.

وفى العبرية أيضا تثنية للأدوات التى لها جانبان أو نصفان مثل الرحى والميزان فيقال فى رحى : rahayim، وفى الميزان miozaim.

وقد وضعت العبرية الميم مكان النون فى اللغات السابقة وأبقت فتح ما قبل الياء وهذا يشير إلى أوجه اختلاف فى حركة التطور اللغوى فمع بقاء ما قبل الياء مفتوحا فى لهجات الآرامية والعبرية - وهذا موافق للعربية - نراه مكسورا فى السريانية، والنون ساكنة فيما عدا العربية فهى فيها مكسورة.

وقد تفتح النون فى العربية فى أمثلة قليلة ربما تعود إلى بعض القبائل أو أنه من قبيل الضرورات الشعرية كقول الشاعر :

أعرف منها الجيد والعينانا ومنخرين أشبها ظبيانا

وقد استخدمت بعض اللغات السامية - عوضا عن علامة التثنية - كلمات تدل على معنى العدد اثنين توضع قبل صيغة الجمع.

ففى السريانية - مثلا - تستخدم (trên) للدلالة على المثنى المذكر، مثل (trên Gavrin) - رجلان تثنية رجل، وتستخدم كلمة (trtên) للدلالة على المثنى المؤنث[1].

وفى اللغة السبئية - من لهجات العربية الجنوبية - يستخدم لفظ اثنين قبل صيغة المثنى (tani Namiran) نمران[2].

وإذا كانت فى العربية كلمات بلفظ المفرد تدل على معنى التثنية مثل (زوج) كما فى قوله تعالى : **﴿وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج﴾**[3]، ففى العبرية كلمات بصورة المثنى تدل على المفرد مثل : sohoraim وقت الظهيرة، وكلمات بصورة المثنى تدل على الجمع مثل : shamaim (سماوات) و maim (مياه).

---

(١) لفظ اثنان فى العبرية shnyim للمذكر و shtayim للمؤنث، وفى الأكدية shain للمذكر و shtin للمؤنث.

(٢) فى بعض لهجات العربية الجنوبية - المعينية - تستخدم فتحة وياء وقبلهما مد ونون علامة للتثنية anay تلحق الاسم المراد تثنيته مثل معليانى Ma'lianay.

(٣) الآية ٧ من سورة ق.

ويدل تفريق العـربية بين حالة الرفـع وحالتى النصب والجر على أن العـربية هى اللغـة التى تمثل الطريقة السـاميـة القديمة المنـظمة لمثل هذه الحـالات فى حين خرجت اللغات السامـية الأخرى عن حدود هذا التفريق واستـعملت صورة واحدة لكل حالات الإعـراب مع ما اعتـراها من بعض التطورات فى الحركـات والحروف بإبدال الفتحـة قبل الياء ـ فى بعضـها ـ كسرة، وإبدال النون ـ فى بعضـها الآخر ـ ميما وسكون النون بعد تحريكها[1].

(٥) انظر : المختصر فـى علم اللغة العربية الجنوبية لجويدى ص ١٣، واللمـعة الشهية فى نحو السـريانية ليوسف دارة ، وفقه اللغة المقارن للدكتور إبراهيم السامرائى.

ثالثا : لغة القرآن الكريم ودراسات المستشرقين

من المعروف أن القرآن الكريم نزل على النبى الأمين محمد ﷺ بلسان عربى مبين، وقد قامت حوله الدراسات اللغوية التى بدأت بجمع اللغة ونضجت باستنباط قواعد العربية منها فى مجالات الأصوات والمفردات والتراكيب والدلالة وبيان الأصيل منها والدخيل وغير ذلك مما يتصل بهذه الدراسة، وقد أطلق على ما يختص بالبنية (علم الصرف)، وعلى ما يختص بمواقع الكلمات (علم النحو)، وعلى ما يختص بمجال المفردات والأصوات (علم اللغة).

وقد قام بهذه الألوان من الدراسة طوائف من العلماء دأبت على هذا النوع من البحوث، واشتد التنافس بينها على الإجادة والإحسان فى البيئات اللغوية المشهورة : البصرة والكوفة وبغداد والأندلس ومصر وغيرها.

وقد حفظ الله كتابه وحفظ لغته فبقيت مفهومة لكل عربى أو مسلم يسمعها فيعرف محتواها ويسمع القرآن الكريم أو يقرؤه فيدرك مراميه فى وضوح كامل.

وقد عز على كثير من المستشرقين أن يروا القرآن الكريم باقيا خالدا خلود الزمن، وأن تبقى لغته سليمة ثابتة على الرغم من مرور أكثر من ستة عشر قرنا. على حين أن اللغات الأوربية قد منيت بهزائم متوالية فى بنيتها ومفرداتها وتراكيبها، فبعضها يموت وبعضها يحيا حياة تخضع للتغير السريع، فاللغة الإنجليزية ـ مثلا ـ تتغير كل مائة سنة تقريبا حتى أصبحت لغة شكسبير عصية على ألسنة الإنجليز أنفسهم، فإذا رجعنا إلى عهد تشوسر لا نجد الآن من يفهم أو يعى ما يقوله هذا الشاعر القديم.

ولذلك وجدنا اتجاها استشراقيا يقوم على التشكيك فى دراسات علماء العربية ومحاولة التقليل من أهميتها، والاتجاه إلى طرق أخرى من الدراسات الملتوية التى نبتت فى الغرب وإقحامها على العربية لتقضى على أصالتها وصمودها أمام اللغات الأخرى.

فهم يريدون أن يبينوا أن ما يحويه القرآن الكريم من ألفاظ وتراكيب مقتبس من تعبيرات وثنية قديمة، وأن كلماته ليست أصيلة فى العربية بل أخذت عارية من

كلمات اللغات الأخرى، ويقوم هذا ـ فى نظرهم ـ على جعل العربية لغة حديثة وغيرها أقدم منها ليسهل القول بالإعارة.

ويهدفون من وراء هذا كله إلى إثبات أن القرآن ليس وحيا من عند الله وإنما صنعه كاتبه (محمد بن عبد الله) ـ ولا حول ولا قوة إلا بالله ـ وهى قضية استشراقية خطيرة ينبغى أن ننبه إلى شرها.

ومما يدعو للأسف أن بعض أبناء العرب حديثا يجرون وراء هذه المحاولات الاستشراقية ويروجون لها، وبعض هؤلاء من المشتغلين بالدراسة فى جامعاتنا يلقون على أبنائنا وبناتنا من طلاب وطالبات هذه الجامعات ما يحرف فهمهم للعربية وكتابها الخالد (القرآن الكريم) فهما منبعه هذه الاتجاهات الأجنبية الضالة.

وسنعطى أمثلة لدراسات وبحوث استشراقية قادت بعض الكاتبين العرب إلى الإعجاب بها ومحاولة قسر العربية على أن تدخل فى نطاقها مع أن البحث المنهجى السليم يكشف عن فساد هذا الاتجاه وعدم صحته.

ونعرض لمجالين من مجالات هذه الدراسات والبحوث :

المجال الأول ـ البحث فى الألفاظ .

المجال الثانى ـ البحث فى التراكيب والقواعد.

فمن البحث فى الألفاظ ما كتبه بعض المستشرقين عن الفعل (تاب) بمعنى رجع عن الذنب فى العربية، فقد زعموا أن هذا الفعل ليس أصيلا فى العربية إنما هو مستعار من الآرامية من النصوص الدينية التى استعمل فيها هذا الفعل بكثرة، فالفعل فى العبرية (شاب) sab،والآرامية (تاب) tab بمعنى (رجع)[1].

وبأدنى تأمل نقول : إن المستشرقين ـ وأتباعهم ـ وقعوا فى تناقض حين حاولوا الربط بين الفعل (تاب) العربى و(تاب) الآرامى، فالفعل الآرامى (تاب) يقابل الفعل (ثاب) فى العربية بمعنى رجع مطلقا، ولا يقابل (تاب) بمعنى رجع عن الذنب الوارد فى القرآن الكريم ـ لأن التاء فى الآرامية تقابل الثاء فى العربية،

(١) فصول فى فقه العربية. ط الخانجى ص ٤٨.

ومعنى (تاب) فى الآرامية رجع مطلقا فلا صلة بين (تاب) العربى و(تاب) الآرامى.

وإذا كان البحث عن أقدم اللغات أمرا جد عسير فقد ذكر المؤرخون أن العرب هم الطائفة السامية التى بقيت فى الجزيرة العربية ممثلة للشعب السامى الأول، وقال محققو الباحثين : إن العربية هى التى تمثل اللغة الأم السامية الأولى.

ويذكر الباحثون أن التغير فى النظام الصوتى يعترى العبرية والآرامية وهذه التغيرات تعبر عن تطور داخلى فى اللغتين، ومعنى هذا أنها غير موروثة عن اللغة السامية الأولى، أما النطق العربى فيعبّر عن النطق الموروث عن اللغة السامية الأم، فمثلا الثاء هى الصيغة القدمى وغيرها من الأصوات التى تقابلها كالشين فى العبرية، والتاء فى الآرامية تطورت عنها[1].

فالأقرب إلى القبول أن تكون الآرامية والعبرية وغيرهما هى الآخذة من العربية لا المعطية لها.

وأيضا فإن المحققين من الباحثين قصروا المستعار فى العربية على ما ليس ساميا، فالكلمات الدخيلة هى التى ترجع إلى لغة أجنبية غير سامية كالفارسية والإنجليزية وغيرهما[2].

فاللغات السامية كالعبرية والآرامية والعربية أخوات ترجع إلى أصل واحد هو اللغة السامية الأم ـ كما ذكرنا ـ ولذا لا يصح الحكم بأن إحداها قد أخذت من الأخرى ـ ولاسيما فى الكلمات التى وقع فيها الاشتراك فى هذه المجموعة اللغوية المتشابهة، فالكلمات المشتركة أصيلة فى كل منها لرجوعها إلى الأم السامية ولم تستعرها إحداها من الأخرى.

ومن ذلك ما كتبه المستشرق الألمانى نولدكه عن الأسماء ذات الأصل الثنائى[3]:

---

(١) أسس علم اللغة العربية ص ٢٠٣.

(٢) انظر كتابنا : (العربية وخصائصها وسماتها) ط٤.

(٣) انظر :

Noldke, Zweiradikalige suheatanive, in Noue Heitragezutae mitis cten sprachwriac nachaft a log 178.

ومن ذلك حديثه عن كلمة (اسم) - وتبعه على ذلك بعض المعاصرين - يقول أحدهم : «اختلف النحاة العرب قديما فى كلمة (اسم) أهى مشتقة من السمة أم من السمو[1] وأثبت البحث المقارن فى اللغات السامية أن الأصل ثنائى هو الشين والميم أو السين والميم فى اللغة السامية الأم، فهى فى العبرية (شم) ŝem. وفى الآرامية (شما) ŝma وفى الحبشية (سِمْ) sem وفى الأكادية (شُمُ) ŝumu.

وقد تحدث نولدكه عن كلمات أخرى (أب - أم - أخ - حم - ابن - لثة - رئة) وأنها من أصْل ثنائي - وفسّر عدة أفعال على أنها ترجع إلى أصل ثنائى منها سكب وكبَّ - نقص وقصَّ . . إلخ[2].

والاعتماد على اللغات السامية فى هذا التفسير لا يعضد ما يقول به هذا المستشرق.

فاللغة الأكادية - كما يذكر بعض الباحثين - لا تفرق بين التعريف والتنكير، فالتميم الذى يقابل التنوين - يدخل فى الأكادية على الألفاظ عموما لا فرق بين معرفة ونكرة كما أنه لا توجد أداة للتعريف بها، والتعريف والتنكير متصلان تمام الاتصال فى مجموعة اللغات السامية ويتبادلان مكان كل منهما[3].

ويعد علماء الساميات الأصل الأكادى نظير اللغة العربية فى القدم وفى النظائر السامية ورد الأصل الأكادى (suma) وهو يرشد إلى الحرف الثالث المعتل فى آخر كلمة (اسم) (شُمُو) مما يؤكد وجود حرف ثالث فى الكلمة هو الواو وأنها ثلاثية الأحرف بما يتفق مع رأى البصريين من النحاة.

على أن العربية تعود بالمشتق إلى أصله وهو المادة الثلاثية (سمو) أو (وسم) أصل هذا اللفظ.

وكلمات (يد ودم وأب وأخ وحم وابن) تعود كذلك إلى أصول ثلاثية تظهر فى صور التصريفات مثل (دمِى يدمى- يَدَيْتُ إليه يدًا - أيديهم (جمع يد)- أخوان

---

(١) انظر الإنصاف فى مسائل الخلاف لابن الأنبارى - المسألة الأولى.

(٢) انظر بحث نولدكه ص ١٤٠، ١٤٣، وأسس علم اللغة العربية ص ٢١٢، ٣١٥، وفصول فى فقه العربية ص ٤٩.

(٣) دراسات فى اللغة ص ١٢٢ وأبنية العربية فى ضوء علم التشكيل الصوتى ص ١٠٥ وانظر ص ١٣٧ من هذا الكتاب.

ـ أبوان ـ حمـوان ـ تثنية أخ وأب وحم) وبنون (جـمع ابن) وفى النسب (بنوى) ولثوى ورثوى (نسبة إلى ابن ولثة ورثة).

وتفسير الأفعـال : سكب وكبَّ ونقص وقصَّ ونحوهما على أنها ذات أصل ثنائى ثم زيد عليهـا حرف ثالث لتنويع المعنى مـقبول من الوجـهة التاريخيـة، وقد بُذلت محاولات قـديمة عند أحمد بن فارس،وحديثـة عند بعض الكاتبين المحدثين فقالوا : إن الأصل فـى اللغة هو الثنائى ثم زيد فى مراحل تطوره التـاريخى حرفا ثالثا لتنويع المعنى ولكن ذلك لم يستقر ولم يثبت.

ونحن نؤمن بأن الثنائيـة مرحلة تاريخية لم تطـبق إلا فى القليل من الألفاظ مع أن مواد العربـية كثيرة،فـالذى يعتمد فى بحث نشـأة الألفاظ هو أن الأصل فى اللغة هو الثلاثى ولا داعى إلى الخوض فى هذه البحوث الميتـافيزيقية التى لم تتأكد صحتها ولا يزال البحث فيها مضطربا غامضا[١].

وعلى هذا فليس من اللائق علميا تخطئة النحـاة العرب أو الاعتراض عليهم فى القول بثلاثية (اسم) ونحوها من الكلمات السابقة.

ومن ذلك ما ذهب إليه بعض المعاصرين فى الفعل (اطمأن).

يقول : «واعتقاد النحويين العرب أن الهمزة فى كلمة (اطمأن) أصلية يكذبه أن المادة فى العبرية (طمن) taman ليس فيها الهمزة،والتعليل العلمى لوجود الهمز فيها فى العربية أن الكلمة أصلها (اطمـانّ) على وزن احمارّ واصفارّ ثم استخدمت الكلمة فى الشعر بكثرة فاضطر الشاعر إلى التخلص من التقاء السـاكنين ـ على قول النحاة ـ بإقحام همزة كما قال كُثيِّر عزة :

وأنت ابن ليلى خير قومك مشهدا إذا ما احـمأرت بالعبيط العوامل[٢]

ونقول : إن تخطئـة النحاة وتكذيبهم ليس فى موضـعه فهم على حق فـيما ذهبوا إليه من أصالة الهمزة، ودعوى الكاتب أن الهمزة أصلها الألف وأنها ظهرت للتخلص من التقاء السـاكنين فى الشعر لا يوجد ما يدل عليه، فالهمزة موجودة فى

---

(١) انظر كتابنا (العربية خصائصها وسماتها) ط ٤.

(٢) فصول فى فقه العربية ص ٤٩.

(طمْـأن) و(طَأْمَنَ) و(اطْمَأَنَّ) بـكل تصرفـاته مـثل يطمئن ـ اطْمَـئِنَّ ـ اطمـئنانا ـ مطمئن ـ مطمأنّ إليه إلخ.

والرجوع إلى التصريفات أساس مهم لمعرفة أصول الحروف أو وقوع الإبدال فيها.

ومما يرد التفسير الذى ذهب إليه هذا الـكاتب من اختصاص ذلك بالشعر أن هذا الفعل (اطمـأن) وقع فى أعلى نص نثرى وهو القرآن الكريم كقـوله تعالى: **﴿الذين آمنوا وتطمـئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطـمئن القلوب﴾** وقوله جل شأنه: **﴿فإذا اطمأننتم فأقـيموا الصلاة﴾** وغيـر ذلك، وبهذا يفسد مـا ادعاه هذا الكاتب.

ومن ذلك الاتجاه الاسـتشراقـى ما ذهب إليه بعـضهم من أن كلمـة (اللغة) ليست أصيلة فى العـربية وإنما هى مستعارة من الكلمـة اليونانية Logos[1]. ودللوا على ذلك بأن كلمة اللغـة لم تعرف عند العرب قبل انـتهاء القرن الثانـى الهجرى، ولم تظهر تلك الكلمة فى آداب العرب إلا فى القرن الثامن الهجرى.

فقد كان أول ورودها ـ على ما يعلم ـ فى شـعر لصفى الدين الحلى المتوفى سنة ٧٥٠ هـ حيث يقول:

بقـدر لغـات المرء يكـثـر نفـعـه ... وتلك لـه عند الملـمـات أعـوان

فهافت عـلى حفظ اللغات وفهـمها ... فكل لسـان فى الحـقـيـقـة إنسـان

ولم ترد كلمـة (اللغة) فى القـرآن الكريم وإنما عبَّـر عن مفـهومـها بكلـمة (لسان) فى عدة مواضع منها قوله تعالى: **﴿وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين﴾**.

وبناء على ذلك استنتج بعض الباحثين أنها دخيلة على العربية.

والواقع أن كلمـة (اللغة) عـربية أصـيلة؛لأن مادة (ل غ و) مـوجودة فى الآداب العربية وفى القرآن الكريم ومعجـمات اللغة وهى تعنى الأصوات الإنسانية وغيرها وما يمكن أن يشبهها من معان مختلفة.

---

(١) أسس علم اللغة العربية ص ٣١٧.

فقد ورد (اللغا) بمعنى الهذيان فى قول العجاج :

ورب أسرار حجيج كُظَّم عن اللَّغا ورفث التكلُّم[1]

كما ورد (اللغو) بمعنى السقط الذى لا يعتد به من الكلام فى قوله تعالى : ﴿وإذا مروا باللغو مروا كراما﴾ وورد الفعل (الْغَوْا) كذلك فى قوله تعالى ـ حكاية عن الكافرين ـ ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه﴾ .

وقد ورد (لغا) بمعنى تكلم فى الحديث : (من قال فى الجمعة صه فقد لغا) كما ورد فى معجمات العربية (لغا يلغو) إذا تحدث ،و(لغِى يلغَى) إذا لهج، مع تصرفات أخرى لمادة (ل غ و) ونصوص كثيرة موثوق بها .

وبذلك كله تثبت عربية كلمة (لغة) .

ومن المجال الثانى (البحث فى التراكيب والقواعد): ما أثاره بعض المستشرقين حول قضية الإعراب فى العربية ولهجاتها.

فالمستشرق Marcel Cohen يدعى أن القواعد اللغوية المتشعبة وبخاصة قواعد الإعراب كانت مراعاة فى اللغة الأدبية الفصحى ولم تكن مراعاة فى لهجات التخاطب عند العرب لصعوبتها عليهم.

وزعم بعضهم أن النحاة العرب اخترعوا قواعد الإعراب على نظام النحو فى اللغات الأخرى كاليونانية مثلا،ففيها يفرق بين حالات الأسماء التى تسمى casses ويرمز لها فى نهاية الأسماء برموز معينة، وقد حاول النحاة العرب أن يجعلوا فى العربية مثل هذه الـ casses فحين وافقت الحركة ما استنبطوه من أصول إعرابية قالوا عنها: إنها حركة إعراب وفى غير ذلك سموها حركة أتى بها للتخلص من التقاء الساكنين[2].

وراح بعضهم يردّد أنَّ الإعراب قصة وهو مردود عليه[3].

---

(١) الخصائص ١/٣٣.

(٢) من أسرار اللغة للدكتور إبراهيم أنيس ص ٨٩، وانظر الرد على ذلك فى كتابنا : علم اللغة بين القديم والحديث.

(٣) انظر ص ٤٨، ٤٩ من هذا الكتاب.

ويقول المستشرق يوهان فك : إن العربية الفصحى قد احتفظت فى ظاهرة التصرف الإعرابى بسمة من أقدم السمات اللغوية التى فقدتها جميع اللغات السامية باستثناء البابلية القديمة قبل عصر نموها وازدهارها الأدبى[١].

«وقد اكتشفت نقوش فى شمال الحجاز تدل دلالة قاطعة على وجود الإعراب فى العربية البائدة نفسها».

«وإن تواتر القرآن بالإعراب، وكذلك الأحاديث النبوية ـ وطريقة نقلها موثوق فى صحتها ومقاييسها ـ دليل قاطع على وصول الكلمات إلينا معربة، وكذلك رسم المصحف العثمانى مع تجرده من الإعجام، والشكل، وذلك أن المصحف يرمز إلى كثير من علامات الإعراب بالحروف: المؤمنون ـ رسولا ـ شهيدا. . إلخ.

ولاشك أن المصحف العثمانى قد دوِّن فى عصر سابق بأمد غير قصير لعهد علماء البصرة والكوفة الذين تنسب إليهم هذه المذاهب الفاسدة اختراع قواعد الإعراب»[٢].

وقد أثبت المستشرق يوهان فك «أن الإعراب من سمات العربية القديمة، فأشعار عرب البادية من قبل العهد الإسلامى، ومن بعده، ترينا علامة الإعراب مطردة كاملة السلطان، كما أن الحقيقة الثابتة من أن النحويين واللغويين الإسلاميين كانوا حتى القرن الرابع الهجرى والعاشر الميلادى ـ على الأقل ـ يختلفون إلى عرب البادية لدرس لغتهم تدل على أن التصرف الإعرابى كان بالغا أشده لذلك العهد، بل لا نزال حتى اليوم نجد فى بعض البقايا الجامدة من لهجات العرب البداة ظواهر الإعراب[٣].

«وقد روى بعض الباحثين أن آثارالإعراب بالحركات لا تزال باقية فى لهجات بعض القبائل الحجازية فى العصر الحاضر، ويستفاد ذلك من كثير من كتب

---

(١) العربية ص ٣، وجاء فى التاريخ القديم : أن اللغة التى انتشرت فى المملكة البابلية قبل زمن حمورابى بعشرين قرنا أو أكثر كانت ذات حركات للإعراب، وأنها قضت أكثر من ألفى عام وهى ذات حياة فى سجلات الحكومة، ودواوينها، وعلى ألسنة العلية من القوم. انظر مولد اللغة لأحمد رضا العاملى ص ٧٨.

(٢) فقه اللغة د. وافى ص ٢٠٤ ـ ٢١٠.

(٣) العربية ص ٣، ٤.

التاريخ، ففى كتب أبى الفدا : أن العربية بقيت فى بعض لهجات المحادثة حتى أواخر العصور الوسطى»[1].

ونضيف إلى هذا أن الزبيدى فى تاج العروس (مادة عكد) ذكر أن قرية قرب جبل (عكادا) كانت لا تزال فصيحة حتى عصره، وقد توفى الزبيدى سنة ١٢٠٥هـ).

ويقول الأستاذ مصطفى صادق الرافعى :

«نقطع بأن اللحن لم يكن فى الجاهلية ألبتة، وكل ما كان فى بعض القبائل من خور الطباع، وانحراف الألسنة فإنما هو لغات لا أكثر، ولا عبرة بما يهجس به بعض أولئك الذين تراهم فى مجازفتهم، وتخرصهم كأنما يشرحون للناس علم الغيب»[2].

«ولا يصح القياس على اللهجات العامية الحديثة، لأنها خضعت لقوانين التطور فبعدت بعدا كبيرا عن أصلها، فلا تقوم دليلا، وقد خضعت لقانون التطور الصوتى ـ وهو ضعف الأصوات الأخيرة فى الكلمة وانقراضها ـ وهو قانون عام خضعت له جميع اللغات الإنسانية فى مثل (أبوك ـ أخوك) فى عامية مصر.

وفى معظم لهجات العراق، والسعودية[3]، تثبت النون فى الأفعال الخمسة مثل: يمشون ـ تمشون ـ تمشين»[4].

«وصعوبة قواعد الإعراب لا تدل على اختراعها؛ فاليونانية ـ مع صعوبة الإعراب ودقته فيها ـ كالعربية ـ لا تزال تستعمل حتى الآن فى المحادثة، والألمانية مع صعوبتها لا تزال لغة تخاطب بين الألمان.

وخلق القواعد خلقا لا يتصوره العقل؛ إذ اللغة هى التى تفرض نفسها، ولم يكن هناك صلة بين علماء النحو العربى والإغريق حتى يقتبسوا منهم؛ لأنهم لم يكونوا يعرفون اليونانية، مع أن قواعد العربية تختلف اختلافا جوهريا عن اللغة اليونانية»[5].

---

(١) المرجع السابق للدكتور وافى.

(٢) تاريخ آداب العرب ١/ ٢٣٩، ٢٥٤.

(٣) كما خبرت ذلك منهم.

(٤) المرجع السابق للدكتور وافى.

(٥) المرجع السابق للدكتور وافى.

ويكفى أن نشير إلى مـا ذكره المستشرق يوهان فك من أدلة قاطعـة استمدها من القـرآن الكريم تفيـد أن الإعراب دليل على المعـانى بحركـاته المختلـفة كقـوله تعالى : ﴿إنما يخشى اللهَ من عـباده العلماءُ﴾، ﴿وإذا ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمـات﴾ فمثل مواقع الكلمات فى هاتين الآيتـين كالاستعمال اللاتينى Matrem amat filie (الأمَّ تُحبُّ البنتُ) لا يـمكن أن يكون إلا فى لغـة لا يزال الإعـراب فـيـهـا حـيـا صحيحا»[1].

ولابد أن الضمـة فى (العلماء) و(ربـه) علم الفاعليـة، والفتحـة فى (لفظ الجلالة) و(إبراهيم) علم المفعولية كما نص على ذلك القدماء.

ومثل ذلك قول البوصيرى فى مدح الرسول ﷺ :

إنما مـثلوا صفـاتك للنا   س كـمـا مـثل النجـومَ الماءُ

فكلمة (الـنجوم) منصوبة ـ مـفعـولا به ـ وكلمة (الماء) مرفـوعة ـ فـاعلا ـ وعليها يتضح المعنى.

ولو عكس الأمر فرفعت الكلمة الأولى، ونصبت الكلمة الثانية لفسد المعنى.

وقد ثبت ـ كـما يقول العـقاد ـ أن المزية الشـعرية فى قواعـد الإعراب ـ فى لغتنا ـ أسبق من المصطلحات التى يتقيد بها النحاة والصرفيون.

فالشاعـر العربى يستطيع أن يضع لفظة بعـينها حيث صح له وضعهـا بلفظها ووزنها ومعناها، ومن ذلك :

قطعـــوا بأيديهـم خـيـوط سـيــادة

كـــانت كـخـيـط العنـكبـوت ضـئـيــلا

إن (ضئـيلا) ـ فى هذا البيت الذى وصف به (شـوقى) سيادة بنى عثـمان ـ لتحـمد للإعراب العـربى تلك الطمأنينة التى تستـقر بها فى مـوضعهـا، فلا تضطر الخيوط إلى الجمع، ولا تضطر السيـادة إلى التأنيث، وليس عليه أن يقول : (كانت ضئيلة)، ولا أن يقول : (قطعوا خيوطا ضئالا)؛ لأن لسان (الحال) هنا أصدق من لسان المقال[2].

فالإعراب ليس مخترعا، وحركاته ذات أثر بعيد فى معنى الجمل والعبارات.

---

(١) العربية ص ٣، ٤.

(٢) اللغة الشاعرة ص ٢٣، ٢٤.

ومما ينبغى أن ننبه إليه فى هذا المجال أن بعض المعاصرين العرب مضى يفسر بعض قضايا الإعـراب تفسيرا استـشراقيا يقوم علـى (هدم نظرية الإعراب) يقول. «النظر السطحى والخضوع لتـقليد السلف والأخذ بأقوالهم وقع ضحـيته الآخذون بنظرية العامل النـحوى» وزعم أن النحاة العـرب وقعوا ضحـايا اهتمامـهم الشديد بالعلامة الإعرابية، وفى رأيه أن «التـعليق هو الفكرة المركزية فى النحو العربى وأن ذلك وحده كاف للقضاء على خرافة العـمل النحوى» والعلاقات التى يتحدث عنها هى التى يسميـها الغربيون : eynogmatic reiations وهو يأتى بمصطلحات غـريبة يخرج بها على مـا ألف من مصطلحات نحوية مـستقرة، ففى (باب الاخـتصاص) يعلن أنه لا يحس ارتيـاحا إلى تفـسيـر النحاة لمعنى (بـاب الاختصـاص) ويرى أن الاسم المختص منصوب بقرينة (المخالفة) ـ كـما يرى الكوفيون ـ لا بفعل محذوف كما قدره جمهور النحاة العـرب، وكذلك حركة المستثنى المنقطع ونصب الاسم بعد (ما أفـعل) فى التعـجب وبعد الصـفة المشبـهة وهو خـروج على القواعـد المألوفة الصحـيحـة، فالنصب بالعـامل المحســوس المأخوذ من واقع المعنـى كالفعـل المقدر (أخُص) فى باب الاختصاص، و(أفعل) التعـجب وغيرها مما ذكر أقرب إلى الواقع الملموس المؤكد للمـعنى اللغوى فى النصوص العربيـة، وهو أقوى من هذا العامل المعنوى الذى سماه الكوفيون (قرينة المخالفة)، ثم ما قرينة المخالفة هذه؟ وما قوتها الخيالية التى تجعلها تتسلط وتنصب بهذه الصورة الواسعة؟

ويجعل هذا الكاتب تقـسيم النحاة لاسم الفعل تقـسيما اعتـباطيا مع أن هذا الحكم غيـر صحيح، ويـعتمـد أيضا بعض المصطلحات الكـوفية الضـعيفـة ويترك نظائرها المشهورة الراجحـة كتسمية (اسم الفعل) خالفـة الإحالة، وصيغة التعجب (خالفة التعجب)، وإطلاقه اسم (صيغة مسكوكة) على هذه الخوالف Idioms.

ومع أن هذه اتجاهات وتفسيرات لبعض النحاة العرب نرى الكاتب يصر على جعلها مما ورثه عن الغربيين وهو مـسوق إلى هذا بما يراه الغربيون ويسمونه affec- tive language [1].

---

(١) انظر كتاب (اللغة العربية مبناها ومعناها) للدكتور / تمام حسان ط ٢ ص ١١٨، ١٦٣، ١٨٩، ٢٠٧، ٢٣٣، ٢٣٤ وغيرها.

وأرى أن ذلك يتنافى مع اتجاهنا العربى الإسلامى الخالص الذى يدعو إلى تأصيل العربية واتصالها بتراث علمائنا من السلف الصالح لا الثورة عليهم والنيل منهم، وتوجيه العربية توجيها غريبا عنها بهذه الصورة التى لا نريد أن تقوم عليها أصول العلم فى جامعاتنا ومدراسنا المسلمة العربية.

وراح بعض المستشرقين - مثل المستشرق الفرنسى ماسنيون - يدعو إلى نبذ الإعراب فى اللغة الفصحى زاعما أن (إهمال الإعراب ييسر تعليم اللغة العربية على الأجانب).

وقد ظهر - منذ مطلع هذا القرن - دعوات هدامة تحبذ استعمال العاميات فى الأقطار العربية ونبذ الفصحى وتعدت ذلك إلى الدعوة إلى ترك الحروف العربية واستعمال الحروف اللاتينية وقد قادها المستشرقون ومن سار على دربهم من العرب، ومع ذلك فشلت هذه الدعوات الهدامة كما فشل ما انبنى عليها من الدعوة إلى العامية[1]، ولكن الخطر ما زال كامنا فى استمرار هذا الاتجاه فى دراسة اللغة ومحاولة تلقينه للناشئة من شبابنا وشاباتنا .

وبين الحين والآخر نسمع من ينادى بمشروع كتابة القرآن ونطقه وتسجيله صوتيا بالحروف اللاتينية المستعملة فى اللغات الأجنبية طبقا لعلم الصوتيات، وإمكان قراءته عربيا باللغات الأجنبية لمن لا يعرف العربية.

ونقول فى بيان الخطر فى ذلك :

إن مزية الأصوات التى تشتمل عليها الأبجدية العربية أن الحروف فيها تخلص بغير لبس، ولا اختلاط، وهى متفردة فى ذلك بمزاياها التى لا تتوافر لغيرها من الأبجديات فى اللغات الأوربية، أو الشرقية، وتشهد لذلك الشواهد البيولوجية الفزيولوجية - كما هو مقرر فى مصطلحات علم الأصوات الحديث.

وفى الأبجدية العربية بأصواتها المفردة Phonetcs والمركبة Phonology يتحقق الوضوح الكامل، وعدم الالتباس فى مخارج الأصوات، بخلاف الأبجديات فى اللغات الأخرى، فبعض الأصوات فيها تتداخل، وتلتبس، كالثاء

---

(١) حاضر اللغة العربية فى الشام للأستاذ سعيد الأفغانى ص ١٥٦ - ٢١١، وانظر بحث الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة فى مجلة كلية اللغة العربية بالرياض - العدد السادس.

والذال فى الإنجليزية مثلا فيعبــر عنهما على سبيل التركيب (th) ويتغير النطق بهما فى مختلف الكلمــات، وكذلك ازدحام أصوات الحروف على مخــرج واحد كاللغة اليونانية فى اختلاط الباء الثقيلة والسين مع ترك مخارج الحلق مهملة.

والأبجدية العربيــة تستخدم أصــوات الحلق بما لم يتيسر لغــيرها من اللغات، ولذلك تلتبس الحروف عند الأمم غــير العربية لإهمال مخــارج الحروف الحلقية فى تقسيم حروف الكلمات.

وعدد الحروف الأبجــدية يختلف، ففى اللغة العــربية تسعة وعشــرون حرفا لكنه فى بعض الأبجديــات العالمية يزيد كثــيرا كمــا فى الهندية الجرمانيــة أو اللغات الطورانية، وقد تبلغ فى بعــض اللغات خــمسين أو ستيــن حــرفا لكن هذه الكــثرة لا تدل على تنوع مفيد لمخارج النطق الإنسانى.

واللاتينية ـ لغة الإمبراطورية الرومــانية ـ تطورت وتنوعت فنشأت عنها اللغة الإيطالية واللغة الفرنسية واللغة الأسبانية وغيرها وأصبح لكل منها قواعده الخاصة به وطرائقه فى نطق الأصوات.

والحروف اللاتينية التى كتبت بها اللغــات الأوربية وغيرها وطرائق نطقها فى اللغات العالمية لا تستطيع أن تستــوعب كل مخارج الأصوات العربية ولا تستطيع أن تؤدى نغماتها الصوتية كاملة.

والأصوات التى تــتركب منها الكــلمات تنقســم إلى صوامت (consonants) وحركات (vowels) والصوامت موزعة على ســبعة عشر مخرجــا ـ كما قال الخليل وأخذ بذلك علماء التــجويد ـ أو ستة عــشر مخرجا كــما قال سيبــويه وتبعه بعض علماء التجويد وعلمــاء الصوتيات العرب، وللحركات مخــارج ذكرها علماء العرب ودرست فى علم الأصوات الحديث.

وفى مــجــال الصوامت توجــد أصــوات فى اللغة العــربيــة لا نظير لهــا فى الحــروف والأصــوات اللاتينيــة وما تفــرع منهــا فى اللغــات الأخــرى، ومن هذه الأصــوات التى لا نظائر لهــا فى اللاتينيــة : الحاء والصــاد والضــاد والطاء والظاء والعين والغين والــقاف وكل ما يمكن أن تمثل به من الأصوات اللاتينيــة كالتالى : (q - z - t - d - s - h) ـ ولا نظير يمثل به للعين والغــين ـ وقوبلت القــاف العربية فى اللاتينية بما ينطق كافا، فمعروف أن q لا يستعمل فى أية لغة من تلك اللغات إلا مصحــوبا بحرف (u) وهما يســتعــملان فى نغمــة الكاف وصوتهــا فقط عند

الفرنسيين، وينطق بهما عند الإنجليز كافا ساكنة تعقبها واو، وعند الألمان تدلان على كاف ساكنة بعدها صوت الحرف (v).

ولذلك لا تصلح هذه المقابلات فى اللاتينية - واللغات التى على منوالها - أن تمثل نظائرها من الأصوات العربية المذكورة، فهذا تمثيل ناقص جدا لا يعطى الأصوات العربية حقها المستحق لها من النطق الكامل، ويمكن أن نمثل لما ينشأ من خطأ هذا التمثيل بكلمتى «محظور» و«محذور» حيث يقع الخلط بينهما فى الكتابة اللاتينية فيؤدى إلى فساد النطق وتغير المعانى، وكذلك «طامة» و«تامة» Tammah فيشوه النطق إلى كلمات غير مرادة وهكذا، وأصوات الجيم والخاء والثاء والذال العربيات يقابلها فى الحروف اللاتينية ولغاتها حروف وأصوات بعيدة عن النغمة الصوتية العربية وطريقة النطق، فمثلا الجيم العربية المعطشة لها خصائص نطقية ونظيرها فى اللاتينية حرف (J) عند الفرنسيين والإنجليز دائما لكنه لا يمثل تعطيش الجيم العربية تماما بل يقترب منها فحسب، كذلك قد يقارنون الجيم العربية بحرف (g) فى بعض الصور النطقية ولكن هذا الصوت (g) قد ينطق جيما قاهرية فى مثل big, bag ولذلك لا يصلح هذان الحرفان أن يكونا نظيرين صوتيين للجيم العربية الفصحى.

والثاء والذال لهما نغمتان فى اللغة الإنجليزية يستعمل فى التعبير عنهما حرف مركب (th) ويميز السماع الصوتين حسب السياق.

والخاء العربية لا نظير لها فى اللغات الأوربية، ولكنها توجد - فقط - فى الألمانية، ويعبر عنها فيها بصوت مركب هو (ch) لكن نغمة الخاء الألمانية وصوتها لا تتفق مع نغمة الخاء العربية وصوتها.

والشين لا تتفق اللغات المتفرعة من اللاتينية أو غيرها فى التعبير عنها فيلاحظ أنهم لا يستعملون لنطقها حرفا مفردا بل حرفين مركبين، ويختلف الفرنسيون والإيطاليون والألمان والإنجليز، فكل منهم يعبر عنها بتركيب خاص من التراكيب الآتية (sch - sh - ci - ch).

والكاف العربية يوجد نظير لها فى اللاتينية ولغاتها وهو (K) لكن يعكر الصفو وجود حروف أخرى تعبر عن الكاف مثل (C) حيث يستعمل لهذا الصوت

فى بعض الصـور، وفى صـور أخرى يسـتـعمل لصـوت السـين عند الفـرنسيـين والإنجليز والألمان أو لصـوت الشين عند الإيطاليين، فـهذا الحرف (C) مشترك بين هذه الأصوات والنغمات كلها مما يوقع فى اللـبس والخلط فيما لو نقل هذا الصوت إلى النطق العربى ليـمثل صوت الكاف وإذا اسـتعمل للتـعبيـر عن الشين أدى إلى اللبس والإبهام.

وصوت الهـمزة يوجد فى اللغة العـربية على أنه صوت صامت يعـتد به فى أول الكلمة أو وسطهـا أو آخرها لكنه فى اللاتينية يـمثل حركة تنطق عـرضا دون تركز أو انضـباط، ولا تشارك فى نطقه الحنجـرة ولا الأوتار الصوتية فيـها بل هو حرف حركـة من حروف الفم ـ وفق نظرية دانيال جونز ـ فلا يمكن جـعله مساويا لصوت الهمزة العربية لأنه صوت أصيل فيها تجب كتابته برسم خاص.

. ومن هنا يتـبـين أن الحـروف الصـامتـة اللاتينيـة لا تمثل أداء كل مـخـارج الأصوات فى الألـفاظ العربيـة، ويحدث الخطأ فى وضـع الحرف المقابل لـلصوت العـربى فى الصـوامت المشار إليـهـا من قـبل وهى ما يقـرب من نصف أصـوات الأبجدية فلا تمثل النطق الصحيح فى العربية فلا يمكن أداء ذلك بالحرف اللاتينى، ولا تستطيع أن تفى نغمات الحـروف اللاتينية بنغمات الحروف العربية، فـاستعمال المقابلات اللاتينية للأصوات العـربية يؤدى إلى فساد كبير ونقص خطيـر كما حدث حين استعمل الأتراك الحروف اللاتينية فى كتـابة اللغة التركية فلم تستطع تمثيل كل المخارج فيها فخسر الأتراك خسارة جسيمة فى أصوات لغتهم حين استبدلوا الحروف اللاتينية بالحروف العربية.

هذا فى مجال الصوامت.

وفى مجال الحركات أو الصوائت (Vouels) نلاحظ أن الحركات العربية منها حركـات طويلة (الواو والياء والألف المديات) وحركـات قصيـرة (الفتحة والضـمة والكسرة) وحـركات فرعـية كالإمـالة والروم والإشمام وغـيرها، ولهذه الحـركات أصول واعتـبارات نطقية بيَّنهـا علماء التجويد واللغة وحـددوا القدر الزمنى للنطق بهذه الأصـوات، وقد وضع علمـاء التجـويد أصولا للمـد الطبيعى والمد الفرعى

والقصر وحددوا كل ذلك وغيره فى السياق الصوتى فى القرآن الكريم ويعرف ذلك بالتعليم والمشافهة والتلقين.

وتستعمل الحركات لإفادة المعانى فى بنية الكلمة العربية التى تختلف حسب المراد منها.

ويقابل هذه الحركات العربية ما يسمى فى اللاتينية واللغات الأوربية بحروف الحركة، ونلحظ أن استعمال حروف الحركة مكان الحركات العربية يؤدى إلى إطالة الكتابة وزيادة عدد الحروف حتى يصير ضعف حروف الكتابة العربية أو أكثر، ونجد - مع ذلك - خلافا بيِّنا فى طرائق نطق حروف الحركة فى اللغات الأجنبية وذلك يضلل الناطق باللغة ويؤدى إلى خلل فى طرق نطق الكلمات العربية إذا استعملت فيها حروف الحركة هذه لما تؤدى إليه من تعدد النطق ووقوع الخلل والفساد فيه.

فمثلا :

- حرف (a) يؤدى فى الإنجليزية ثلاثة أصوات على الأقل حسب الكمات التى يقع فيها مثل : Shame - bald - rat - war.

- حرف (u) يؤدى خمسة أصوات فى مثل : survey - sute - mule - nut - minute.

- حرف (o) يؤدى صوتين فى مثل : for - not.

- حرفا (ea) يؤديان أربعة أصوات فى مثل: bread - fear - wear - heart.

- حرف (i) يؤدى صوتين فى مثل : Sir - sin.

- حرفا (ow) يؤديان صوتين فى مثل : row - bow.

- حرفا (ou) يؤديان ثلاثة أصوات فى مثل: round - route - pout.

- حرفا (ew) يؤديان ثلاثة أصوات فى مثل: few - reward - sew.

- حرفا (oo) يؤديان أربعة أصوات فى مثل: poor - blood - nook - floor.

- حرفا (ie) يؤديان ثلاثة أصوات فى مثل : fiery - fiend - friend.

- حرف (e) يؤدى ثلاثة أصوات فى مثل: fever - red - here.

- حرفا (ei) يؤديان ثلاثة أصوات فى مثل: feign - receive - neithet.

هذا قليل من كثير مما يقع فيه تعدد طرائق النطق فى حروف الحركة، وتعبث حروف الحركة بالأصوات وتتلاعب بها، مما يجعلها فى أوربا محتاجة إلى معلم ليرشد الطفل إلى طريقة النطق السليم.

وحروف الحركات اللاتينية لا تؤدى حركات العربية ولا تمثلها، فإن لكل أمة خصائصها، وجهاز النطق الأوربى تشكل بطريقة تخالف جهاز النطق وتكوينه عند العرب للمؤثرات على كل واحد منهما فالحركات العربية غير الحركات اللاتينية.

وتكتب حروف الحركة أحيانا على نمط واحد وتختلف طرائق نطق الكلمات التى تقع فيها فى درجة المد وفى مخارج الصوت كما يقولون على سبيل المثال : Bone - done أو فى good ـ moon ـ door .

وبذلك يختلط النطق السليم بالخطأ ويؤدى إلى الفساد فيما لو استعمل لكتابة اللفظ القرآنى.

وحينما تمثل حروف الحركة اللاتينية حركات العربية نجد من يجعل (i) الفرنسية للكسرة ومن يجعل لها (e) فى الإنجليزية، ويجعلون (u) للضمة فى النطق الألمانى والإيطالى دون النطق الإنجليزى أو الفرنسى، ويجعلون (a) للفتحة كما ينطق فى الفرنسية.

ولكننا نقول : إن الحركات فى العربية الفصحى حركات خالصة موروثة مقدرة الوقت وكيفية الأداء،وقد يكون فيها إمالة أو إشمام أو نحو ذلك، وهذا ما لا يمكن أن يتحقق تماثله مع الحروف اللاتينة التى هى حروف حركة.

ويستخدمون (w) فى النطق الإنجليزى للواو،و (y) للياء، مع أن الواو والياء فى العربية يكونان من الصوامت فى مثل يوم وبيت وبيوت، ولذلك يختلط الأمر حال كتابتها فى اللغات الأجنبية إذا كانت مدا أو غيره مما يقتضى التباس النطق واضطرابه.

وبعض الحروف العربية يعتريه إبدال أو إقلاب أو إخفاء أو إدغام حسب السياق الصوتى، وهذا ما لا تستطيع أداءه الكتابة والنطق الأجنبى.

وبعض الحروف تسقط فى درج الكلام، وهذا يحدث فى العربية وفى غيرها من اللغات، والمعول فيه على اتباع طرائق النطق المتوارث وذلك مما يعتمد على التلقين والمشافهة لا على الكتابة.

فإذا اعتمدنا الكتابة والأصـوات اللاتينية واللغات الأوربية ونحوها أدى ذلك إلى تشويه كلمات العربية وكلمات القرآن الـكريم وخلطها بعضها ببعض، وتشويه جرسهـا وإخراجها عن طبيعـتها العربية الأصيـلة السليمة إلى صيغ سقيـمة الجرس نابيـة عن الذوق العـربى الأصـيل وهذا يؤدى إلى الخلل فى كـتـاب الله وضيـاع الفصحى العربية.

وإذا كانت اللـغـة العربية قـد شهـد لها غيـر العرب بالسـهولة فى أصـواتها وألفاظها واسـتيعاب معانيـها فإنها قد أثبـتت جدارتها واستحـقاقها أن يتعلمهـا غير العرب من المسلمين وغيرهم.

ولا يزال الملايو من المسلمين وغيرهـم يكتبـون لغاتهم الأصلية بحروف عربية وكذلك الفرس يستـعملونها فى كتابة لغتهم الفارسـية وفى لغة الأوردو ببلاد الهند يستخـدمون الكتابة العربيـة فى لغاتهم التى هى خليط من لغات آرية وسـامية وفى الأندلس كانت لغة كتابة وعلم أيضا.

لذا نرى عدم جـواز كتـابة القرآن الكريم بالحـروف اللاتينية، أو غـيرها من الأبجديات غـير العربية حـتى لا ينحرف القرآن الكريـم عن النطق الموروث العربى السليم.

وعلى من يريد تعلُّم القـرآن الكريم وقراءته من غـير العـرب أن يتعلَّم لغـته العربيـة أولا، وأمرها - إن شاء الله - سـهل ميسور، ويمـكن من لا يستطيع ذلك الاكتفاء بأن يترجموا معانى القرآن الكريم إلى لغتهم، أو يقرأوا ترجمة هذه المعانى فى اللغات التى نقلت إليها معانى القرآن الكريم.

ويجب أن نعمل علـى نشر تعليم اللغة العـربية فى العـالم الإسلامى الناطق بغير العربية، ولسائر الشعوب حتى يقرأوا القرآن الكريم، وتراث المسلمين ﴿بلسان عربى مبين﴾.

رابعا ـ أصالة العربية ودلائل التطور العريق فيها مقارنة باللغات الأخرى

(أ) فى مجال التصرف والاشتقاق

الذى لا شك فيه أن اللغات لم تنشأ دفعة واحدة، بل إن بعضها حدث أولا ثم حدث بعضها الآخر ولا يزال يحدث شيئا فشيئا، يقول ابن جنى : «إن اللغة لابد أن يكون قد وقع فى أول الأمر بعضها ثم احتيج فيما بعد إلى الزيادة عليه لحضور الداعى إليه فزيد فيها شيئا فشيئا»(١).

وقد تتبع علماء اللغة المسالك اللغوية التى درجت عليها اللغات جميعها فى تنويع ألفاظها ودلالتها وتصريفها، وكان ذلك فى القرن التاسع عشر فقسموا اللغات إلى ثلاث فصائل من جهة الاشتقاق وأخذت الألفاظ بعضها من بعض كما يلى :

١ ـ الفاصلة Isolating أو المنفصلة أو العازلة أو لغات التجميع أو لغات التركيب الكثير poliysynthetic أو اللغات غير المتصرفة Monosyllabiques أو اللغات غير المرتقية(٢).

وهذا النوع من اللغات يتضمن أدنى اللغات بيانا وأبسطها ألفاظا، وكلمات هذا النوع تلازم شكلا واحدا، وتدل على معنى ثابت لا يتغير (من ناحية المورفولوجيا) ومن ناحية السنتكس توضع أجزاء الجملة بعضها بجانب بعض دون روابط، وتستفاد وظائفها وعلاقاتها من ترتيبها أو من سياق الكلام(٣).

«فالفاصلة هى اللغة التى لا يتغير فيها شكل الكلمة (أو الجذر) إن وقع فى التركيب، أما العلاقات الصرفية والنحوية بين كلمة وأخرى فى الجملة فتتوقف

---

(١) الخصائص ٢/٢٨.

(٢) مجلة الأزهر عدد شوال ١٣٨٠هـ ص ١٠٥٨، وعلم اللغة لوافى ص ١١٧، والفلسفة اللغوية لجورجى زيدان ص ١٠.

(٣) علم اللغة د وافى ص ١١٧.

على موقع الكلمة فى الجملة لا على تصريفها أو حالاتها الإعرابية، واللغة الصينية من هذا النوع فإن الضمير «أنا» لا يتغير شكله كما هى الحال فى لغتنا العربية تبعا للحالات الإعرابية والصرفية بل يظل على شكله الأول، إنما يتغير مركزه فى الجملة، وهذا التغيير فى مركز الكلمة يدل على الحالة الإعرابية أو على الوظيفة النحوية التى تقوم بها الكلمة. وإيضاحا للمسألة نقول : فى لغتنا العربية يتغير الضمير «أنا» إلى (تُ) فى مثل : أكلتُ، ويتغير إلى «نى» فى مثل : أجنبى، ويتغير إلى «ى» فى مثل : كتابى، وإذا أكدناه قلنا : «إياى». أما فى الصينية فيقال «كتاب أنا» «أجب أنا» وفى حالة التأكيد «أنا أنا»[1].

وهذه اللغات تعتمد ـ كذلك ـ على (التنغيم) لتنويع المدلول والتمييز بين الصفات والظروف من ناحية والأوقات والأجناس وغيرها من معانى الجمع والتثنية والإفراد من ناحية أخرى[2].

ومن أهم صفاتها أن ألفاظها أحادية المقاطع لا فرق فيها بين الاسم والفعل والحرف، واللفظة الواحدة تكون اسما أو فعلا أو نعتا بإضافة ألفاظ أخرى ذات معانٍ مستقلة.

ومن هذه اللغات ـ غير الصينية ـ اللغات الزنجية التى يتفاهم بها قاطنو جنوب إفريقية، واللغات الأمريكية التى يتكلم بها هنود أمريكا، والشمالية الشرقية الآسيوية، والحامية[3].

ويرى بعض الباحثين أن هذه اللغات سارت على هذا المسلك لبدائية أهلها لأنها تشيع فى كثير من الأمم البدائية.

وسُمى هذا النوع باللغات الفاصلة أو المنفصلة؛ لأن الكلمة فيها تنفصل بصيغة واحدة لا تتغير حروفها، وإنما يتغير المعنى بضم صيغة أخرى بترتيب متبع أو بغير ترتيب يلتزم فى جميع الأحوال. وسميت عازلة لعدم وجود روابط فى جملها[4]. وسميت بلغات التجميع أو التركيب الكثير؛ لأن من فروع هذه اللغات

---

(١) محاضرات فى اللهجات لأنيس فريحة ص ٢٢.

(٢) من بحث لعباس العقاد بمجلة الأزهر العدد السابق ص ١٠٥٨.

(٣) الفلسفة اللغوية ص ١٠ ومقدمة لدرس لغة العرب ص ١٢٢.

(٤) علم اللغة د. وافى ص ١١٧.

ما تتكون أسماؤه وأفعاله من جملة تتألف من عدة مقاطع وأجزاء، وسميت غير متصرفة لعدم تغير أبنيتها ومعانيها[1] وغير مرتقية لتضمنها أدنى اللغات بيانا وأبسطها ألفاظا وانتشارها بين الأمم البدائية.

٢ ـ اللاصقة Agglutinative أو اللصقية أو الوصلية أو لغات النحت: وتسمى أحيانا باسم اللغات الغروية فى اصطلاح الأوربيين ومرتقية[2]، ومن أهم صفات هذه اللغات أنها مؤلفة من أصول جامدة لا تقبل التغيير فى بنائها مطلقا، وأن الاشتقاق يقوم فيها بإلحاق أدوات لا معنى لها وتوضع هذه الأدوات أحيانا قبل الأصل فتسمى سابقة prefixes وأحيانا بعده فتسمى لاحقة Suffixes ومعظمها كان فى الأصل كلمات ذات دلالة ثم فقدت معانيها وأصبحت لا تستخدم إلا مساعدة للدلالة على تغير معنى الأصل الذى تلصق به أو للإشارة إلى علاقته بما عداه من أجزاء الجملة[3].

ويختلف أسلوب اللصق باختلاف اللغات، فبعض اللغات الملصقية تستخدم الحروف السابقة كاللغة البنتوية[4]، وبعضها يستخدم الحروف اللاحقة كالتركية فـ (منزل) فى التركية مثلا يقال له: إو Ew فإذا أردت أن تقول: خارج المنزل ألصقت بآخره دالا مكسورة ونونا للدلالة على المجاورة فتقول: إودن Ew-den وإذا أردت جمعه ألصقت بآخره لاما مكسورة وراء فتقول: إولر Ewler، وإذا أردت أن تقول: خارج المنازل ألصقت بالجمع الدال والنون الدالتين على المجاورة فتقول: إولردن Ewlerden، وقد تجتمع الطريقتان فى لغة واحدة فتستخدم أحيانا الحروف السابقة وأحيانا الحروف اللاحقة، وقد رُوى أنه توجد فى لغة الإيروكويين[5] كلمة واحدة تدل على ما يأتى: «أطلب نقودا من هؤلاء الذين جاءوا ليشتروا منى الأقمشة» ويكثر كذلك هذا النوع من الكلمات الطويلة فى لغة الإسكيمو.

---

(١) المصدر السابق ص ١١٥، ١٢٦.

(٢) محاضرات فى اللهجات وبحث العقاد السابق.

(٣) الفلسفة اللغوية ص ١١، ومقدمة لدرس لغة العرب ص ١٢٢.

(٤) يطلق اسم البنتوية Bantous على سكان القسم الجنوبى بإفريقيا الاستوائية ما عدا قبيلتى الهوتانتوت والبوشيمات وترجع لغاتهم إلى فصيلة واحدة على الرغم من اختلاف أصولهم الشعبية.

(٥) عشائر الهنود الحمر وهم السكان الأصليون لأمريكا الشمالية.

ولذا سميت باللصقية أو الوصلية[1] وسميت بلغات النحت لتكون الأسماء والأفعال والصفات فيها بإدخال المقاطع الصغيرة عليها أو إلحاقها بها، وباللغات الغروية؛ لأن مفرداتها تلصق لصقا لتنويع معانيها كما تلصق أدوات البناء بالغراء[2].

ومن أشهر لغات هذه الفصيلة ـ عدا ما سبق ـ اللغة اليابانية، وغير التركية من فروع اللغات الطورانية والمنغولية[3] وبعض لغات الأمم الأولية.

٣ ـ المتصرفة flexional أو التحليلية Analytiques ويطلق عليها اسم المرتقية.

ويمتاز هذا القسم من الناحية المورفولوجية بأن كلماته تتغير معانيها بتغير أبنيتها ومن ناحية السنتكس بأن أجزاء الجملة يتصل بعضها ببعض بروابط مستقلة تدل على مختلف العلاقات[4].

فاللغات المتصرفة هى التى يتغير فيها الجذر أو تتغير حركته وقد يمتزج بعناصرأخرى أو عناصر أخرى تمتزج به فى أوله ووسطه وآخره وفى جميع هذه التغييرات يختلف المعنى[5].

وسميت متصرفة لتغير أبنيتها بتغير المعانى، وبالتحليلية لما تتخذه حيال الجملة من تحليل أجزائها وربط بعضها ببعض بروابط تدل على العلاقات مثل : ذهب محمد وعلى من المنزل إلى الجامعة. فالربط هنا بالواو ومن وإلى بمعان خاصة وتسمى هى والتى قبلها المرتقية؛ لأنها تمتاز بسعة نطاقها ومنها لغات العالم المتمدن.

وأحسن مثال على تصرف اللغات هو اللغة العربية، فجذورها تتصرف على أنحاء شتى للدلالة على المعانى، ومن ذلك الجذر (ك ت ب) فمنه : كَتَبَ ـ بالبناء للمعلوم ـ كُتِبَ ـ بالبناء للمجهول ـ كاتب ـ مكتوب ـ استكتب. . إلخ.

---

(١) علم اللغة د. وافي الأصل والتعليق ص ١١٦.

(٢) بحث العقاد السابق.

(٣) الفلسفة اللغوية ص ١١، ومقدمة لدرس لغة العرب ص ١٢٢.

(٤) محاضرات فى اللهجات ص ٢٢ وعلم اللغة د. وافي ص ١١٥.

(٥) محاضرات فى اللهجات ص ٢٢.

واللغـات المتصـرفة تمتـاز بقبـول أصولهـا التصريـف إلحاقا وإدراجـا، ومن الصفات المميـزة للطائفة الآرية أنها مؤلفة من أصول قـابلة للتصريف إدراجا، وأن الاشتقاق فيـها يقوم بإضافة أدوات معظمها ذات مـعنى فى نفسها، وهذه الأدوات تلحق غالبا فى آخر الأصل وأحيانا فى أوله.

مثـال ذلك فى الإنجليزية Thank (شكر) منها Thankful (شاكر أو شكور) ثم Unthankful (غير شاكر) Unthankfulness (عدم شكر).

وهكذا فى سـائر التصـاريف وعليه تجـرى سائر اللغـات الآرية[1] واللغات السامية تشارك الطائفة الآرية فى قبـول الاشتقاق على طريق الإلحاق لكنها لا تقبل الأدوات الملحقة إذا كانت ذات معنى فى نفسها وتمتاز بحصول معظم الاشتقاق فيها بواسطة تغيـير الحـركات، فاللغـات الساميـة يعم فيهـا الفعل الثـلاثى فى كل مادة وتجرى قواعد الصرف فيها على المخالفة بين الأوزان بحسب معانيها[2] فهى «مؤلفة من أصول ثلاثية الأحرف ثابتة فى الاشتقاق، أى أنه لا يؤثر على أحرفها، بل هو يقوم فيهـا بتغيير الحركـات التى يتوقف عليها نوع الدلالة، مثاله فى الـعربية (قتل) وهو أصل يتضمن معنى القتل، فبتغييـر الحركات فيه تشتق عدة أفعال أو أسماء أو نعوت تبعـا لنوع التغيير فـمنه : (قَتَل) ـ فعل ماض معلوم ـ و(قُـتِل) ـ فعل ماض مجهول ـ و(قَـتْل) ـ مصدر ـ و(قِتْل) ـ بكسر القـاف وسكون التاء ـ بمعنى العدو، و(المقاتل) و (وقُتُل) ـ بضمتين ـ جمع قتول، وقد تمد إحدى هذه الحركات فيقال: قاتَلَ وقاتِل وقتيل وقتول وقَتَّال وقِتَّال ـ بكسر القاف وفتحها، وقتلى . . إلخ»[3].

«فـتبـادل الحركـة يلعب فى السـاميـة دورا أوسع مما فى الهندية الأوربيـة، فخاصة هذه اللغات فى تعبيـرها بالسواكن عن أساس الفكرة وعن تفرعاتها الثانوية بالحـركـات يجـعلنا فى حل من القـول بأن التـصـريف فى هذه اللغـة يقع داخل الكلمات، أما عن الحركات فكل ساكن من سـواكن الأصل يمكن أن يتبع بالفتحة القصيرة أو الطويلة أو بالكسرة القصيـرة أو الطويلة أو بالضمة القصيرة أو الطويلة

(١) الفلسفة اللغوية ص ١٢، ١٣.

(٢) المصدر السابق وبحث العقاد السابق.

(٣) الفلسفة اللغوية ص ١٢٦.

أو بالصفر، فعندنا سبع صور، وكل واحـدة من هذه الصور السبع تستخدم للدلالة على الوظيفة النحوية وذلك يسمح للغات السامية بصياغة عدد من الكلمات المشتقة دون الحاجة إلى لواحق»[1]. فاللغات السامية تسمى ـ لذلك ـ لغات الاشتقاق وهو من خصائصها الملازمة لها.

وتكاد اللغة العربيـة ـ من بينها ـ تنفرد بعموم الاشتـقاق واطراده مع تحريك أواخر الكلمات حسب مواقعها من الجمل المفيدة[2].

فنحن إذا قارنا فى خاصة الاشـتقاق نفسها بين العربيـة وأخواتها فى الأسرة اللغوية نرى أنها كادت تنفرد باشـتقاق مقصور عليها لا يضارعه اشـتقاق العبرية أو السريانية أو الكلدانيـة أو الحبشية فى السعة ولا فى تقـسيم القاعدة ولا فى تحكيم المتكلم فى التعبير عن أغراضه على حسب كل احتمال معقول[3].

وإن اللغات الـساميـة التى تشارك هذه اللغـة فى قواعـد الاشتقـاق لم تبلغ مبلغها فى ضـبط المشتقات بالموازين التى تسرى على جمـيع أجزائها وتوفق أحسن التوفيق المستطاع بين مبانيها ومعانيها[4].

وإذا ما قارنا بين الاشتقاق فى العربية واللغات الأجنبية لحظنا أن العربية تمتاز ـ كما سبق إيضاحه ـ بأصول تسمـى بالحروف الصامتة وهى مـا عدا حروف المد، أثبت وأقوى وأبقى على اختلاف أحـوال الكلمة وتصرفاتها وصيـغها ومنها تتكون حروف الكلمة الأصلية الثابتـة التى تدور معها أنى دارت، وتثبت أنى تقلبت وهى التى تثبت أصل المعنى بثباتها. ولحروف المد فـيها وظيفة تنويع المعنى الواحد والمادة الواحدة[5] ـ بجانب الحركات التى تنوع المعنى أيضا ـ [6] تبعا لأوزان مختلفة مثل: ينـظر ـ ناظـر ـ منظـور ـ نظـيـــر ـ نظـائر ـ نظـارة ـ منـاظر ـ منـظار ـ منـظر ـ

---

(١) علم اللغة ص ١١٣، ١١٤.
(٢) بحث العقاد السابق.
(٣) أشتات مجتمعات فى اللغة والأدب للعقاد ص ١٠١.
(٤) اللغة الشاعرة للعقاد ص ١٣.
(٥) خصائص العربية ومنهجها الأصيل فى التجديد والتوليد. د. محمد المبارك ص ١٩٩.
(٦) فقه اللغة. د. وافى ص ٢٤١.

منتظر . . إلخ . فهـذه الكلمات تختلف بين أسمـاء وأفعال وصفات وأفـراد وجموع والذى فرق بينهما هو الوزن الذى لوَّنته الحركة قصيرة وطويلة وهذه الحركات، مع ما يسمى بحروف الزيادة التى يجمعها قولهم «سألتمونيها»، مما يعين على ذلك[1].

بل تسـمو العـربيـة حين تعـبر باخـتلاف الوزن والحركـة عن معان دقيـقة، فهناك تفرقة واضحة بين مـا هو حـركة فى النفس وما هو حركة فى الجوارح يدرك - مثلا بين الكبر - بكسر الكاف وفتح الباء - والتكبر والعلم والتعلم والفقه والتفقه وما إلى ذلك[2].

وإن هذه القوالب الفكرية العامة فى اللغة الـعربية توفر على المتكلم والمتعلم كثيرا من الجهد، ذلك أن فى عالم الفكر معانى كلية كالفاعلية والمفعولية، والمكانية والزمانية والسببية والحدث أو الفعل والآلية، ويمكن أن تزاد هذه المعانى الكلية أو القوالب الفكرية وأن ترد إليها جميع المعانى الجزئية والتفصيلية[3].

واللغة العربيـة بلغت غاية الحسن بتقـسيمها الحـروف إلى نوع صامت لتنويع أصول المعانى، وحروف المد التى تنوع المعنى الواحد على حسب أحواله وملابساته للفاعل والمفعـول والصفة وللماضى والمسـتقبل، واختلاف الحـركة مع الاتفاق فى الحروف الأصلية يؤدى إلى اختلاف جزئى فى المعنى كـالمبنى للمعلوم أو للمجهول واسم الفاعل واسم المفعول. . إلخ[4].

وبذلك نرى أن للعربية نسـقا مورفولوجيـا مبتكرا داخل الكلمة يستـبعد كل إضافة خارجـية من المقاطع لأوائل الكلمات أو أواخرها وينتج ثروة مـن الاشتقاق من الأصل الواحد[5].

«فالكلمـة العربية تبدو كأنهـا أذيبت ثم صيغت وتوزعت أجـزاؤها وحشيت أطرافهـا وأوساطها مع الاحـتفاظ دائمـا بمادتها الأصلية فـخرجت فى قالب مـعين ووزن محدود لا يختلف من مادة إلى أخرى»[6].

---

(١) فقه اللغة للمبارك ص ١٥٢ - ١٥٤ بتصرف.

(٢) فلسفة اللغة العربية د. عثمان أمين ص ٤٦.

(٣) فقه اللغة للمبارك ص ١١٨.

(٤) المصدر السابق ص ١٥٤ - ١٥٥.

(٥) فلسفة اللغة العربية ص ١٠.

(٦) فقه اللغة للمبارك ص ١٠٠.

ولذلك كانت أبنية الألفاظ وأوزان الكلم العربى وحدات موسيقية ترجع إليها جميع ألفاظ اللغة العربية، وكان الكلام فى حال تركيبه ـ شعرا أو نثرا ـ إذا أحكم تركيبه على يد حاذق لغوى، كان هذا الكلام يمثل وحدات موسيقية وكأنه زخارف الفن العربى»[١].

وهذه الخصائص التى تتمثل فى أصول ثلاثية تشمل المعنى العام ومعها يتنوع بالحركات قصيرة وطويلة وببقية حروف الزيادة المعروفة فى العربية بحيث تكوّن إطارا عاما تجرى المعانى فى فلكه، وتوفر على المتكلم والباحث جهدا طويلا شاقا قد يقضيه عند استعمال لغة أخرى، هذه المزايا لا تتوافر لغير العربية من اللغات الأجنبية المتصرفة.

فالباحث فى اللغات اللاتينية يرى أنه «ليس فى مفردات هذه اللغات عدد من الحروف الثابتة فقد تتغير كلها أو أكثرها فى تصاريف الكلمة ومشتقاتها أو تحذف، وقد تتغير أصواتها على مر السنين وقد يقع هذا التعبير فى بعض مفردات المادة دون بعضها الآخر فتنفك الصلة بينها، فالشين فى كلمة cheval (حصان) كانت كافا فى الأصل وانقلبت إلى شين فى بعض الألفاظ وبقيت كافا فى بعض مشتقات الكلمة مثل : cavalier(فارس)»[٢].

ولا فرق بين حروف المد وغيرها من جهة تبدلها وعدم استقرارها أو من جهة دلالتها ووظيفتها.

وليس فى الاشتراك فى الحروف الصامتة فى اللغات الأجنبية أى دليل على اشتراك بينها فى المعنى، مثال ذلك فى الفرنسية (سكران) Oeuver (أثر أو تأليف) Ouver (il) (فتح) ومثلها Livre (كتاب) Levre (شفة)[٣].

والخلاف فى حروف المد فى الفرنسية والإنجليزية خلاف أساسى يتغير به المعنى والأصل الاشتقاقى غالبا كالاختلاف بين الألفاظ الفرنسية الآتية، وهو منحصر فى حروف المد: mal, pas, puis, moule, male, peau, peu, mulle, mile[٤].

---

(١) المصدر السابق ١٠٤، ١٠٥.

(٢) خصائص العربية ومنهجها الأصيل فى التجديد والتوليد ص ٢٣.

(٣) المصدر السابق ص ٢٢.

(٤) فقه اللغة للمبارك ص ١٠٥ وانظر كتابه خصائص العربية ص ٢٢.

وهى تقوم فى تركيب الألفاظ واشتقاقـها على طريقة التركيب الإلحاقى التى تقوم على زيـادة أحرف مخـصوصة فى أول الكـلمة أو آخرها للدلالة عـلى معنى خاص يحصل بهذه الإضـافة كإضافة ent فى الفرنسـية وer فى الإنجليـزية للدلالة علي اسم الفاعل، وإضافة in فى أول الكلمـة للسلب و er للتكرار و tions فى آخرها للحدث وment وللحال فى الفرنسية أو بطرق أخرى كالنحت.

وقد تجـرى الكلمات فى اللغات الأجنبـية على وزن واحد ولكن بغـير دلالة على اتفـاق فى المعنى ولا فى تقـسـيم الأسمـاء والأفـعال والحـروف، ولولا هذه المشابـهة العرضـية بين بعض كلـماتها لكان فـيهـا من الأوزان عداد مـا فيـها من الكلمـات، فـالأوزان : آن ـ بان ـ تان ـ ثان ـ جـان ـ ذان ـ ران ـ فـان ـ مـان ـ توجد فى الـلغة الإنجليزية اتـفاقا، ومنهـا الحروف والأفـعال والأسمـاء وليس بين أوزانها ومعانيها ارتباط على الإطلاق[١].

وبهذا يثـبت سر كبير للاشـتقاق والتصـريف فى اللغة العربية، وكـونها من أرقى اللغات بيانا وأوسعها نطاقا وأغناها ألفاظا وأدقها تعبيرا[٢]. وإن دلائل التطور العريق الذى امتازت به لغة الضاد تحقيق علمى يقرره غير أبناء اللغة. وليس بالفخر القومى الذى يعلنه أبناؤها وحدهم دون دليل[٣].

(١) اللغة الشاعرة ص ١٣ وفقه اللغة للمبارك ص ١٠٠.

(٢) الفلسفة اللغوية ص ١٣.

(٣) العقاد فى مجلة الأزهر العدد السابق ص ١٠٥٩.

(ب) فى مجال الدلالة اللغوية

إن اللفظ والمعنى فى العربية صنوان، يرتبط أحدهما بالآخر، وإن العربى لم يفصل أحدهما عن صاحبه، بل اهتم بهما معا، كما يرى ذلك أبو هلال العسكرى.

والعربية ـ كما وصلتنا فى آثار أهلها الناطقين بها شعرا ونثرا ـ تصل بين اللفظ والمعنى بوشائج القربى، وتهتم بهما، بل ربما كان المعنى هو الأشرف فيهما، واللفظ موضوع على سمته، وشاهد بصحته، وخادم له، كما يرى ابن جنى ذلك[١].

ويبدو أن العرب اهتمت بموسيقا الألفاظ لتؤثر فى نفس السامع، وللدلالة على المعنى.

ويؤكد ابن جنى ـ أيضا ـ أن المعنى السامى يحتاج إلى لفظ جيد للتعبير عنه. «فقد نجد من المعانى الفاخرة السامية ما يهجّنه ويغض منه كدرة لفظه، وسوء العبارة عنه»[٢]. وهو بذلك يؤكد أن العربى الذى اعتاد الفصاحة والبلاغة رسم للغته طريق قوة آدابها من الناحيتين اللفظية والمعنوية فهذب لفظها لتهذيب معناها.

ويعقد الإمام عبد القاهر الجرجانى فى كتابه «دلائل الإعجاز» فصلا يؤكد فيه بالشواهد بطلان كون الفصاحة فى اللفظ وينسبها إلى المعنى[٣].

ويقول الجاحظ: «لكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ، ولكل نوع من المعانى نوع من الأسماء، فالسخيف للسخيف، والخفيف للخفيف، والجزل للجزل، والإفصاح للإفصاح، والكناية فى موضع الكناية، والاسترسال فى موضع الاسترسال، وقد قال: لكل مقام مقال»[٤]. وبهذا يندفع الاعتراض على الأبيات:

---

(١) الخصائص ١/ ٢١٥، ٢١٦.
(٢) المصدر السابق ١/ ٢١٧.
(٣) ص ٣٢٩ ـ ٣٣٢.
(٤) الحيوان ١/ ٤٣٣.

ولما قضينا من منى كل حاجة
ومسّح بالأركان من هو ماسح

وشُدت على دُهْم المهارى رحالنا
ولم ينظر الغادى الذى هو رائح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا
وسالت بأعناق المطى الأباطح

بأن الشاعر قد دبج اللفظ فى حين أن المعنى ضئيل هو : لما قطعنا أيام منى، واستلمنا الأركان وعالينا إبلنا الأنضاء لا ينظر الغادى الرائح ابتدأنا الحديث وسارت الإبل فى الأبطح[1].

وقد أوضح الإمام عبد القاهر الناحية البلاغية فى الأبيات فقال : «إن استحسانها يرجع إلى استعارة وقعت موقعها وأصابت غرضها، أو حسن تركيب تكامل معه البيان حتى وصل المعنى إلى القلب مع وصول اللفظ إلى السمع؛ فقوله «كل حاجة» تعبر عن قضاء المناسك بأجمعها بطريق العموم، وكلمة «أطراف الأحاديث» تشير إلى التصرف الذى يكون بين الرفاق فى فنون القول وشجون الحديث وفنه من الإشارة، والتلويح، والرمز، والإيحاء، وأنبأ ذلك عن طيب النفوس، وقوة النشاط، وفضل الاغتباط بين الأصحاب والأحباب». وكذلك أشار إلى الاستعارة فى أعناق المطى ودلالتها التعبيرية[2]، بل قال : «إنها فى غاية الحسن واللطف وعلو الطبقة»[3].

وقد أفاض عبد القاهر فى رجوع بلاغة الأبيات إلى المعانى لا الألفاظ، فحُسْنُ الكلام يرجع إلى الأولى لا إلى الثانية.

وأكد الأستاذ عباس محمود العقاد أن تلك القطعة حافلة بتلك الصور التى تتوارد على الخيال كما تتوارد المناظر للعين فى الصور المتحركة[4].

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٥٦، ٥٧، وقد نقل الاعتراض وأجاب عليه ابن جنى فى الخصائص ١/ ٢٠٨ ـ ٢١٦ والإمام عبد القاهر فى أسرار البلاغة ص ٢٧ ، وابن الأثير فى المثل السائر ص ١٤٠، والأستاذ العقاد فى المراجعات ص ٩٦ ، والأستاذ عنبر فى قضية الأدب ص ٤٢ ، وتوسط أبو هلال العسكرى فعدها رائعة الألفاظ معجبة وليس تحتها كبير معنى (الصناعتين) ص ٥٥، ٥٦.

(٢) أسرار البلاغة ص ١٥ ـ ١٨.

(٣) دلائل الإعجاز ص ٤٩، ٥٠.

(٤) مراجعات فى الآداب والفنون ص ٩٦.

وقد أردت بما سقته من هذا الشاهد وغيره أن أبطل زعم الزاعمين الذين يشككون فى جدارة العربية بالفوق ويتهمونها بأنها لغة الألفاظ.

وينتقص بعض النقاد المستشرقين والعرب من عناية العرب بالمعانى ويدَّعون أنهم يهتمون بالصناعة اللفظية. فمن المستشرقين جارسيا جرميز الذى قال : «إن الصناعة اللفظية هى موضع العناية الكبرى فى الأدب العربى»[1].

وبعض اللغويين العرب يرى أن العرب عنيت باللفظ أكثر من المعنى، أو بعبارة أخرى عنيت بموسيقا الكلام أكثر من عنايتها بمضمونه، ويعلل لتلك النظرية اللفظية بقوله :«إنا فى ندائنا بهذا الرأى نعزوه إلى الظروف الاجتماعية التى نشأت فيها تلك الآداب من شيوع الأمية بين العرب، واعتمادهم على السمع والمشافهة فى تلقى النصوص وتداولها»[2].

ودعوى أن اللغة العربية تهتم باللفظ ولا تنظر إلى المعنى إلا قليلا دعوى زائفة قام الدليل على نقضها، وقد ذكرنا من كلام القدامى ما يؤكد اهتمام العرب بموسيقا اللفظ من أجل خدمة المعنى.

وقد أنحى الأستاذ عباس العقاد باللائمة على المستشرقين الذين قالوا: إن اللغة العربية تؤمن باللفظ أكثر من المعنى، أمثال جارسيا جرميز، وعدَّ حكمهم هذا خطأً ذريعا، وفند مزاعمهم.

فاللغة العربية لغة معنى، والصور المحسوسة فيها ترتفع إلى حدود المعانى المجردة، فيستمع العربى إلى التشبيه فلا يشتغل ذهنه بأشكاله المحسوسة إلا ريثما ينتقل منها إلى المقصود من معناه، فالقمر - عنده - بهاء، والزهرة نضارة، والغصن اعتدال ورشاقة، والطَّود وقار وسكينة[3].

وقد كتب الدكتور عثمان أمين فصلا كاملا من كتابه «فلسفة اللغة العربية» يؤكد فيه أن العربية تؤمن بالمعنى، وتختار له اللفظ المناسب، وعلى حد تعبيره : تؤثر الجوانية على البرانية، والتفكير الواعى يتصوره العرب صادرا عن هذه الجُوانيَّة، ألسنا نراهم يعبرون عنه بألفاظ القلب، واللب، والحجا، والنهى، أكثر

---

(١) اللغة الشاعرة للعقاد ص ٥١.

(٢) دلالة الألفاظ د. أنيس ص ١٩٦.

(٣) اللغة الشاعرة ص ٤٠، ٥٢، ٥٣.

مما يعبـرون عنه بألفاظ المخ، والدماغ، والـرأس. ويفرقون بين القـرابة والقربى، ووإحداهما لحمة الدم والأخرى رابطة الروح[١].

ومن المترادفات ألفاظ تبـدو فيها خاصة لغوية رائـعة هى إظهار ألوان المعانى وظلالها، وهذه ميزة تكاد تنفـرد بها اللغة العربية وتعد من خصـائصها التى تتجلى فى ألفاظ مترادفة أحيانا، ويسميهـا الدكتور عثمان أمين «خاصية التلوين الداخلى» الذى كأنمـا يرسم للماهيـة الواحدة بالأطيـاف والظلال صورا ذهنيـة متعـددة تغنينا باللفظ الواحد عن عبارات مطولة نحدد بها المعنى المقصود[٢].

وتظهـر تلك الميزة فى كـثيـر من الألفاظ الدالة على الشىء منظورا إلـيه من مختلف درجاته وأحواله، ومتـفاوت صوره وألوانه، فالظمأ، والصدى، والأوام، والهُيام، كلمات تدل على العطش، إلا أن كلا منها يصور درجة من درجاته، فأنت تعطش إذا أحسـست بالحاجـة إلى الماء، ثم يشتد بك العطش فـتظمأ، ويشـتد بك الظمأ فتصـدى، ويشتد بك الصدى فتؤوم، ويشتـد بك الأوام فتهيم، وإذا قلت: إن فلانا عطشـان فقد أردت أنه بحاجـة إلى جرعات من الماء، لا يضـيره أن تبطئ عليه، أما إذا قلت : إنه هائم فـقد علم السامع أن الظمأ برَّح به حـتى كاد يقتله، وهذا على حين أن الفرنسى لا يستطيع أن يؤدى هذا المعنى إلا فى ثلاث كلمات إذ يقول : «مـائت من الظمأ» Mourant de soif أو فى سـبع كلمـات ليكون المعنى أوضح فيقول : «على وشك أن يموت من الظمأ».

Sur le point de mourir de soif.

ففى كلمات العربية إيجاز يجعل من الكلمة الواحدة جملة كاملة[٣].

وتلك خصيصة للعربية تفضل بها اللغات الأخرى، يقول المستشرق الفرنسى لويس ماسنيـون : «إنه فى حين أن اللغات الهندوأوربيـة جُعِلت للتعبـير عن نظام العالم الخارجى نجـد اللغة العربية وكأنهـا هى لغة التأمل الداخلى، ففيـها ـ بفضل

(١) فلسفة اللغة العربية ص ٨.

(٢) المصدر السابق ص ٥٨.

(٣) فلسفة اللغة العربية د. أمين ص ٥٨، ٥٩.

تركيبها الداخلى وطراز الخلوة الذى توحى به ـ قدرة خاصة على التجريد والنزوع إلى الكلية والشمول، ومن هنا كان للعرب الفضل فى اكتشاف رموز الجبر، وصيغ الكيمياء، والمسلسلات الحسابية»[١].

ومما ذكره المستشرق الفرنسى كارادوفو : تفرقة العربية بين الكبر الداخلى والكبر الخارجى، فالداخلى هو استعداد فى النفس، والخارجى ناتج عن أفعال الجوارح، واللفظ الفرنسى الذى يدل على معنى الكِبَر هو : orguil (أورجى)، أما التكبر فأولى أن يكون مرادفه الفرنسى superbe (سوبيرب)، ولاحظ كارادوفو أن هذه الفروق المعنوية الدقيقة التى تحملها ألفاظ اللغة العربية ليس من الميسور نقلها فى لفظ واحد إلى اللغات الأخرى.

وخلص من هذه الملاحظة إلى التنويه بما تنطوى عليه العربية من قدرة ذاتية على التحليل الفلسفى العميق «مادام أن إحداث تغيير طفيف فى بنية اللفظ العربى يسمح لتلك اللغة بأن تميز بين الحالة النفسية والعادة البدنية التى تطابقها»[٢].

واللغة العربية فى مقدمة اللغات جميعها تعبيرا ودلالة وتصويرا للمجتمع الذى لهج ـ ويلهج ـ بها، ففى ألفاظها ـ التى قطعت الأزمان التاريخية المتطاولة ـ ما يدل على أصل أصحابها وتاريخهم وعقليتهم، فالكتابة والشكل والرسم والبلاغة والفصاحة والدلالة نفسها كلمات مستعارة من حياة العرب الأولى، فالكتابة والشكل بمعنى القيد، والرسم : أثر خطو الإبل على الرمل فى رسيمها أو سيرها على العموم، والبلاغة : من الوصول إلى غاية المسير، والفصاحة : من اللبن الفصيح الذى زال رغوه، والدلالة للقافلة كالدلالة فى الكلام[٣].

ولفظ «الصديق» فى العربية من الصدق، و«العدو» من العدوان، فى حين أن كلمة Ami =صديق فى الفرنسية مشتقة من لفظ يفيد معنى المحبة، وennemi = عدو لفظ مركب يفيد نفى المحبة أى بمعنى البغض، فالمفهوم العربى للصداقة مبنى

(١) المصدر السابق ص ٨.

(٢) المصدر السابق ص ٤٦، ٤٧.

(٣) اللغة الشاعرة ص ٤٢.

على الصـدق والعداوة على العـدوان، على حين أنـه عند الفرنسـيين مـبنى على أساس الحب والبغض.

ولفظ «عقل» ـ فى العربيـة ـ مأخوذ من العقل بمعنى الربط والتقـييد، ويدل ذلك على أن فى مـعنى العقل عند العـرب مفـهومـا خلقيا بـالإضافة إلى العـنصر الفكرى، فهـو يعقل عن المنكر والـشر، ولا يدل لفظ yaison الفرنسى عـلى مثل ذلك فإن أصل معناه العد والإحصاء[1].

ومن معرفة هذا التنوع والتغير الدلالى يمكن معرفة أصالة الكلمات العربية، فإذا التـبس علينا أمر كلمـة من الكلمات فلم نعلم فى ظاهر الأمـر أهى من ألفاظ العرب الأصـيلة أم من الدخيل عليها، فلـدينا هذا المقياس الحاضـر نقيس به دلالة الكلمة ونردها إلى حياة العرب وإلى المعهود من تعبيرها عن معالم تلك الحياة، فلا يطول بنا العناء فى الرجوع إلى أصل معقول نطمـئن إليه. وقد رد الأسـتاذ العقـاد ـ بناء على ذلك ـ كلمة القانون إلى اللغة العـربية، فالقانون Canon تصغير للقناة Cane، ونحن نجزم بأن القناة كلمة لم يأخـذها العرب عن اليونان؛ لأن الأقنية من النخل ومن عيدان الشـجر ومن مسايل المياه، ومن أسنة الرماح أصـول عريقة فى حياة العرب لا تستعار[2].

ولغـة العرب بهـا أصـول وفروع تولدت مـن طرق عديدة تبـعـا للحاجـات الاجتماعية النامية كالاشتقاق والقياس والقلب والإبدال وغيرها، وهذا على طبيعة العرب فى السخـاء اللغوى كما هى عادتهم فى سخـائهم الطبيعى والمادى. ولذلك ترى ما تعجب له، فقد وضعوا لبعض المعـانى أسماء تفوق التصور، فللسيف ألف اسم، وللأسد خمسمائة، إلى غيـر ذلك مما يدل على قدرة العرب الفائقة وطواعية لغتهم لهم علـما بأن تلك الأسماء هى أوصـاف لذات المسمى فكل اسم فيه صفة لا نجدها فى المسمى الآخر، وهذا دليل على دقة أوصافهم فى أداء المعنى.

وتؤدى الصـيغ فى هذه اللغة دورا مـهمـا فى المعـانى، فأنت تقـول : قطع وكسر ـ بفتح الطاء والسين ـ فيكون لهما معنى، ثم تُضعِّف العين ـ الطاء والسين ـ

---

(١) فقه اللغة . د. محمد المبارك ص ١٣٨ .

(٢) اللغة الشاعرة ص ٦٨ ـ ٧٠.

للدلالة على قوة الفعل فتـقول : قطَّع وكسَّر، وفرق كبير بين قـدر واقتدر وكسب واكتسب.

وقد حاولت طائفـة من العلماء العرب والغربيـين الكشف عن دلالة الألفاظ والقوانين التى تحكمها، ونشـأ عن ذلك علم الدلالة الذى ظهر اسمه semantique فى مقال نشره ميشيل بريال سنة ١٨٨٣م وعنى بالبـحث فيه من الغرب كثير، منهم الأساتذة بريال الفـرنسى ووتنى الإنجليزى وكروس الإيطالى وفـونت الألمانى. وقد بذل هؤلاء وغيـرهم من علماء الغـرب مجـهودا كبـيرا وصلوا بعـده إلى دراسات مجـدية فى هذا العلم على أسـاس من دراسة الأصـوات واللهجـات وعلم النفس اللغـوى. بيد أن علمـاءنا العرب قـد أدركوا ـ قبل الـغربيين ـ مـفهـوم هذا العلم لماتمتـعت به لغتـهم من ثراء واسع وتصرف مـعنوى لم تحظ به أية لغة فى الـعالم، فهى تقف على رأس اللـغات التى تمتاز بالدلالة وأثرها فـيها، فليس من المبـالغة أن يقـال : «إن هذا البحث يجـمع بين أغـراض التـاريخ وأغراض البـيان وأغـراض الدراسة النفسية والاجتماعية، والدلالة هى قوام اللغـة، ووظيفتها ومقياس كفايتها وارتقائها عند المقارنة بين اللغات»[١].

وتاريخ الدراسة اللغـوية يثبت أن علماء العرب تناولوا مـوضوع الدلالة التى «بلغوا من بحث مشكلاتها وقضاياها ما لم يبلغه علماء اللغات الأخرى فى العصور الحديثة»[٢]. وروادهم الأوائل ـ الذين جمعوا اللغة فى رسائل خاصة استمرت فى التدرج ـ حتى وصلت إلى صـورتها المثلى فى المعجمـات ـ هم الذين أرسوا دعائم هذا الفن فى اللغة العـربية، فالمعجـمات تبحث الكلمات وتذكـر معانيهـا، غير أنه يؤخـذ على جامـعيـها أنهم لم يبـينوا تاريخ التـغيـرات اللغوية المعنوية وسـابقهـا ولاحقـها، اللهم إلا كتـاب «مقاييس اللغـة» لأحمد بن فارس (ت ٣٩٥ هـ) فـهو «مثل رائع للمـعجمات التى تعنى بمعـانى الألفاظ، ومحاولة الربط بينهـا، وإعادتها إلى أصول قليلة تفرعت عنها، وقد وُفِّق فى ذلك إلى حد بعيد»[٣].

---

(١) أشتات مجتمعات فى اللغة والأدب للعقاد ص ١٢.

(٢) فقه اللغة للمبارك ص ١٣١.

(٣) المصدر السابق ص ١٣٢.

ومع هذا فالتسلسل التاريخى لا نحتاج إليه كثيرا فى وضع معجماتنا الحديثة، لأن هذا التسلسل ضرورى فى اللغات التى يكثر فيها إهمال استعمال الكلمة فى معنى وسيرورتها فى معنى آخر، ولكنه لا يبلغ هذا المبلغ من الضرورة حين توجد الكلمة مستعملة فى جميع معانيها على السوء أو على درجات متفاوتة[1].

وقد ألف أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازى كتابه المسمى «الزينة فى الكلمات الإسلامية والعربية» وهو مؤلف بارع فى هذه الناحية، فقد عالج فيه مؤلفه عددا من الألفاظ الإسلامية ودرسها دراسة تطورية تاريخية، وتتبع معانيها من العصر الجاهلى حتى العصر الإسلامى[2]، وعقد أحمد بن فارس ـ فى كتابه «الصاحبى» ـ فصلا بعنوان : «باب القول فى حاجة أهل العلم إلى معرفة اللغة العربية» أوجب فيه العلم بالعربية على كل متعلق من العلم بالقرآن والسنة والفتيا حتى لا يخطئ فى الأحكام، فقد غلط أبو بكر بن داود أبا عبد الله محمد بن إدريس الشافعى فى كلمات ذكر أنه أخطأ فيها طريق اللغة[3]، وعقد أبو الفتح عثمان بن جنى (ت ٣٩٢ هـ) ـ فى كتابه «الخصائص» فصلا بعنوان : «باب فيما يؤمِّنه علم العربية من الاعتقادات الدينية» طلب فيه من علماء الشريعة أن يفهموا الألفاظ العربية واستعمالاتها، وأن يعرفوا مجازاتها؛ لأن الجهل بها يؤدى إلى ضلال بعيد، وضرب أمثلة للجهل باللغة الذى أوقع بعض المفسرين فى الخطأ فى تأويل بعض الآيات والأحاديث الشريفة[4].

وإن روعة اللغة العربية ودقة الدراسة التى حظيت بها عند علمائنا كانت الأسس التى اعتمد عليها دارسو اللغات الإنسانية قديما وحديثا بما يؤكد أن ما يحاوله المستشرقون ـ وغيرهم ـ الآن من نسبة النظريات اللغوية إليهم أمر يحتاج إلى مراجعة وتريث فإن معظم هذه النظريات مستمدة من أصول عربية سبقت ما قالوه بقرون عديدة.

هذا ـ وغيره كثير ـ يدل على قوة اللغة العربية، وصلاحيتها للتعبير عن المعانى والمصطلحات العلمية الجديدة فى العلوم والفنون ويكشف أسرار نموها وسعتها.

---

(١) اللغة الشاعرة ص ٤٧.

(٢) انظر : كتاب الزينة نفسه ط ٢ سنة ١٩٥٨م، وانظر : فقه اللغة للمبارك ص ١٣١.

(٣) ص ٦٢ ـ ٦٥.

(٤) ج ٣ ص ٢٤٥ ـ ٢٥٥.

أهم مراجع الكتاب

* **أبنية العربية فى ضوء علم التشكيل الصوتى** د. عبد الغفار هلال. الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م.

* **الإتقان فى علوم القرآن**. للسيوطى. ط مصطفى الحلبى ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م.

* **أساس البلاغة**. للزمخشرى. ط ١٣٤١ هـ - ١٩٢٢م.

* **إستراتيجية تطوير التربية العربية**. لجنة وضع استراتيجية لتطوير البيئة فى البلاد العربية. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. نوفمبر ١٩٧٦م.

* **أسس علم اللغة** لـ «ماريو باى» ترجمة وتعليق د. أحمد مختار عمر. ط ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٢م.

* **أسس علم اللغة العربية**. د. محمود فهمى حجازى. ط ١٩٧٩م.

* **الأشباه والنظائر**. للسيوطى. ط حيدر آباد.

* **أصوات اللغة العربية**. د. عبد الغفار هلال. نشر مكتبة وهبة. الطبعة الثالثة ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

* **الإنصاف فى مسائل الخلاف** لعبد الرحمن بن محمد الأنبارى. ط ١٣٨٠هـ - ١٩٦١م.

* **البداية والنهاية فى التاريخ لابن كثير**. ط السعادة. الطبعة الأولى ١٩٢٣م.

* **تاريخ آداب العرب** لمصطفى صادق الرافعى. ط الأخبار ١٩١١م.

* **تاريخ الأمم والملوك للطبرى** بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. ط دار المعارف ١٩٦٨م.

* **تاريخ الحضارة المصرية - العصر الفرعونى**. ألفه نخبة من العلماء. المجلد الأول. بحثان للدكتور محمد جمال الدين مختار والدكتور عبد المنعم أبو بكر.

* **تاريخ اللغات السامية** د. إسرائيل ولفنسون. ط الاعتماد ١٣٤٨ هـ - ١٩٢٩م.

* **تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسى** لجيمس هنرى برستد. ترجمة د. حسن كمال المطبعة الأميرية. الطبعة الأولى ١٣٤٧هـ - ١٩٢٩م.

* **تحفة المريد** لشيخ الإسلام إبراهيم بن محمد البيجورى على جوهرة التوحيد للشيخ اللقانى. تصحيح وتعليق حسين عبد الرحيم مكى. ط محمد على صبيح. الطبعة الأولى ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٤م.

* **التطور النحوى للغة العربية** لبرجستراسر. ط ١٩٢٩م.
* **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبى. ط الشعب.
* **حاشية الخضرى على ابن عقيل**. المطبعة الأزهرية ١٣٥٠ هـ - ١٩٣٢م.
* **الحضارات السامية القديمة**. لـ «سبتينوموسكاتى» ترجمة د. السيد يعقوب بكر. ط دار الكتاب العربى.
* **الخصائص لابن جنى** بتحقيق الشيخ محمد على النجار. ط دار الكتب ١٣٧١ هـ - ١٣٧٦ هـ (١٩٥٢ - ١٩٥٦م).
* **خلاصة تاريخ العرب** لـ «سيديو» ط دار الآثار بيروت. الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ.
* **دراسات فى العالم العربى** : الجزء الخاص بتاريخ الشرق القديم. د. أحمد فخرى. مطبعة مخيمر ١٩٥٨م.
* **دراسات فى اللغة**. د. إبراهيم السامرائى. ط بغداد ١٩٦١م.
* **دلالة الألفاظ**. د. إبراهيم أنيس. ط الأنجلو المصرية ١٩٧٢م.
* **الرسالة** للإمام الشافعى. ط ١٣١٠هـ و ط ١٣٥٨هـ.
* **الزينة فى الكلمات الإسلامية والعربية** لأبى حاتم الرازى. الطبعة الثانية ١٩٥٨م.
* **الساميون ولغاتهم** د. حسن ظاظا. ط دار المعارف ١٩٧١م.
* **سر صناعة الإعراب** لابن جنى جـ١ ط ١٣٧٤هـ - ١٩٥٤م.
* **سر الليال فى القلب والإبدال** لأحمد فارس الشدياق. ط الآستانة ١٢٨٤هـ.
* **السيرة النبوية** لابن هشام، الطبعة الثالثة ١٩٧٨م.
* **شرح الأشمونى مع حاشية الصبان وشرح الشواهد للعينى**. ط دار إحياء الكتب العربية.
* **شرح التصريح للشيخ خالد الأزهرى**. ط دار إحياء الكتب العربية والمطبعة الأزهرية ١٣٢٥هـ.
* **شرح المفصل** لابن يعيش ط المنيرية.
* **شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل** لشهاب الدين الخفاجى. ط ١٢٨٢هـ.

* **الصاحبى** لأحمد بن فارس بتحقيق السيد أحمد صقر. ط عيسى البابى الحلبى وط بيروت ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦٤م.
* **الطبقات الكبرى** لابن سعد. ط دار التحرير ١٩٦٨م.
* **العربية** ليوهان فك ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار. ط دار الكتاب العربى ١٣٧٠هـ ـ ١٩٥١م.
* **العربية خصائصها وسماتها**. د. عبد الغفار هلال. ط الحضارة العربية. الطبعة الأولى ١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م. وط الجبلاوى. الطبعة الرابعة ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.
* **علم اللغة**. د. على عبد الواحد وافى. ط ١٩٣٨م.
* **علم اللغة**. د. محمود السعران. ط دار المعارف ١٩٦٢م.
* **علم اللغة بين القديم والحديث**. د. عبد الغفار هلال. ط دار الطباعة المحمدية. الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩م والطبعة الثالثة ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.
* **فتوح البلدان للبلاذرى** بتحقيق صلاح الدين المنجد. ط النهضة المصرية. ١٩٥٦م.
* **فجر الإسلام**. د. أحمد أمين. ط النهضة المصرية ١٩٧٨م.
* **فقه اللغة**. د. إبراهيم نجا. ج٣ ط السعادة ١٩٦٥م، وج٤ ط السعادة ١٩٦١م.
* **فقه اللغة**. د. على عبد الواحد وافى. ط ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م.
* **فقه اللغة المقارن**. د. إبراهيم السامرائى. ط بيروت ١٩٦٨م.
* **الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية** لجورجى زيدان. ط دار الهلال ١٩٢٣م.
* **القراءات القرآنية فى ضوء علم اللغة الحديث**. د. عبد الصبور شاهين. ط دار القلم ١٩٦٦م.
* **قصة الجنس البشرى**. د. هندريك فان لون. ترجمة إبراهيم زكى خورشيد الشنتناوى. كتاب الشعب (٣) الطبعة الثانية.
* **قضايا لغوية**. د. كمال بشر. ط ١٩٦٢م.
* **الكتاب لسيبويه**. ط بولاق وبتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون. ط دار القلم وط دار الكتاب العربى.
* **لسان العرب لابن منظور**. ط بولاق ١٣٠٠هـ ـ ١٣٠٧هـ وط بيروت ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٦م.

* **اللسان والإنسان**. د. حسن ظاظا. ط دار المعارف ١٩٧١م.

* **لغات البشر** لـ «ماريو باى» ترجمة د. صلاح العربى. نشر الجامعة الأمريكية بالقاهرة.

* **اللغة الشاعرة** للأستاذ عباس محمود العقاد. ط الاستقلال.

* **مجلة كلية اللغة العربية بالرياض**. بحوث د. محمد عبد الخالق عضيمة. ود. محمد السيد غلاب ود. خالد طه الدسوقى ود. عبد الغفار هلال. العدد السادس ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م.

* **مدرسة الكوفة ومنهجها فى دراسة اللغة والنحو** د. مهدى المخزومى. ط مصطفى الحلبى ١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م.

* **المزهر** للسيوطى بتحقيق محمد أحمد جاد المولى وآخرين. ط عيسى البابى الحلبى.

* **معجم البلدان** لياقوت الحموى. ط السعادة. الطبعة الأولى ١٩٠٦م.

* **المعرب من الكلام الأعجمى** لأبى منصور الجواليقى. ط دار الكتب ١٩٦١م.

* **المغازى للواقدى** بتحقيق جونس. ط طهران المصورة عن طبعة جامعة أكسفورد. لندن. ١٩٦٦م.

* **مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب** لابن هشام. المطبعة الأزهرية ١٣٤٧هـ - ١٩٢٧م وط المدنى بتحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد.

* **المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام** للأستاذ جواد على. ط بيروت ١٩٦٨م.

* **المقاييس** لأحمد بن فارس بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون. ط دار إحياء الكتب العربية.

* **من أسرار اللغة**. د. إبراهيم أنيس. ط الأنجلو المصرية. الطبعة الثالثة ١٩٦٦م.

* **مناهج الأدلة فى عقائد الملة** لابن رشد بتحقيق د. محمود قاسم. ط الأنجلو المصرية ١٩٦٤م.

* **موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية**. د. أحمد شلبى. ط النهضة المصرية ١٩٧٧م.

المحتوى

رقم الإيداع	١٩٩٦/٧٦٢٣
I. S. B. N الترقيم الدولي	977-10-0812-2